# الواضح في التفسير

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الرابع

سورة النساء

مركز الغدير
للدراسات والنشر والتوزيع

الْوَاضِحُ فِي التَّفْسِيرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - بناية مركز الغدير
تلفاكس: ٥٥٨٢١٥ / ٠١ ـــ ٥٥٢٢٦٢ / ٠١ خليوي: ٦٤٤٦٦٢ / ٠٣
ص.ب: ٥٠/٢٤ - الرمز البريدي: ١٠١٧ - ٢٠١٠ - برج البراجنة
www.alqadir.org
www.alqadir.net

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

# الواضح في التفسير

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الرابع

سورة النساء

مركز الغدير

# سورة النساء

«مدنية»

«آياتها ست وسبعون ومائة»

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

## بين يدي السورة

سورة النساء من السور المدنية التي تكفّلت بوضع التشريعات التفصيلية للبيت والأسرة والمجتمع وخصوصاً موضوع النساء حيث أنصفهنّ في إعطائهن حقوقهن في التعامل والميراث كما استعرضت السورة العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب والمجتمعات الأخرى، ويمكن أن نوجز بعض العناوين التي تناولتها السورة ضمن أمور هي:

١ ـ تبتدئ السورة بالأمر بتقوى الله ومن تقوى الله المحافظة على ما أمر الله به ومما أمر الله به صلة الأرحام وشد روابط هذه العلاقة بين الأرحاموالأقرباء.

٢ ـ تستعرض السورة مشكلة الأيتام وتحمّل الأولياء والمجتمع مسؤولية المحافظة على أموالهم لئلا تضيع مع تفصيلات تتناول القيمين عليهم والمدبّرين لشؤونهم مع التحذير لهم إذا تجاوزوا أو تعدّوا أو أكلوا أموالهم حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

٣ ـ تضع السورة قواعد الميراث بالتفصيل وخصوصاً ميراث الأبوين والأولاد الذكور والإناث وكذلك ميراث الأزواج والأخوات والأخوة وهكذا...

٤ ـ تستعرض السورة حالة الشذوذ الجنسي من المرأة ومنها وقوعها في خطيئة الزنا مع ما يترتب على ذلك من عقوبة التحجير عليها والحبس لها، وقد كان هذا التشريع في بدايته وقد نسخ بغيره مما هو مذكور لمثل هذه الخطيئة.

٥ ـ تستعرض السورة محرمات النكاح من النساء كحرمة الزواج من امرأة الأب ـ غير الأم ـ وكذلك حرمة الزواج من الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وهكذا..

٦ ـ تنظّم الآيات الأسرة ـ هذه المملكة الصغيرة وتعطي للرجل حق إدارتها والقيمومة عليها بما يصلحها ويحفظها ويجعلها باستمرار في خط الطاعة لله والالتزام بأمره لعمارة الحياة وبناء مجتمع سليم كريم.

٧ ـ استعرضت السورة أعمال أهل الكتاب ونواياهم السيئة اتجاه الرسل والأنبياء وما كانوا يضمرونه من سواء للمسلمين وما كانوا يقومون به من شر.

٨ ـ وضعت السورة الطريقة التي يجب أن يتعامل بها المسلمون مع النبي وأولي الأمر وأوجبت على المؤمنين طاعتهم والتزام أمرهم وإذا وقع فيما بين المسلمين خلاف أن يعودوا إليهم ليفصلوا بينهم مع ذكر المنافقين الذين دعوا إلى التحاكم إلى ما أنزل الله فأبوا وامتنعوا فكانت الحملة الشديد عليهم مع التحذير لهم من عواقب هذا الرفض.

٩ ـ تستعرض السورة فريضة الجهاد وتحث عليه ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهكذا...

١٠ ـ تستعرض السورة أحوال اليهود وتذكر تعنّتهم وطلبهم من النبي(ص) أن ينزّل عليهم كتاباً من السماء، وتردّ الآيات عليهم بأنهم طلبوا من موسى أكبرمن ذلك فقالوا أرنا الله جهرة، ثم تذكر الآيات مخالفاتهم وبعض خطاياهم كعبادتهم للعجل ثم تمنعهم عن أخذ التوراة حتى هدّدهم الله بالقضاء عليهم وارتكابهم صيد البحر في يوم سبتهم وهكذا...

وأيضاً استعرضت السورة حالة النصارى وغلوّهم في المسيح حيث جعلوه تارة ربّاً وأخرى جعلوه ولداً لله ومرة ثالثة جعلوا ثالث ثلاثة مع تحذيرهم من الاستمرار في هذه العقيدة الفاسدة وما يترتب عليها من عقوبات في الدنيا والآخرة. . .

١١ ـ سُمّيت بـ«سورة النساء» لكثرة التشريعات التي تناولت النساء فأعطت المرأة حقوقها الاجتماعية وأعطتها حق الميراث وكثير من الحقوق الأخرى.

## اللغة

﴿ٱتَّقُوا۟﴾: احترزوا عن المعاصي.

﴿زَوْجَهَا﴾: يطلق على المرأة أنها زوج الرجل، كما يطلق على الرجل أنه زوج المرأة والمقصود هنا هو المعنى الأول، والزوج اسم لكل واحد من القرينين سواء كانا من الحيوان أو غيره. . .

﴿وَبَثَّ﴾: نشر وفرّق.

﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾: أي يسأل به بعضكم بعضاً بأن يقول أحدنا: سألتك بالله أن تفعل هذا الفعل.

﴿ٱلْأَرْحَامَ﴾: جمع رحم، وهو في الأصل موضع تكوّن الجنين، ثم استعمل في الأقارب لخروجهم من تلك الرحم. . .

﴿رَقِيبًا﴾: الرقيب: الحفيظ المطلع على الأعمال.

## التفسير

انتهت سورة آل عمران بالأمر بتقوى الله وابتدأت هذه السورة بالأمر بتقوى الله وهذا التأكيد على التقوى لأجل أنها هي الحصانة التي تضمن سلامة العمل

وصحته وتدفع بالإنسان إلى تنفيذ ما أمر الله به وخصوصاً في هذه السورة التي تأتي لتنقض العادات الجاهلية المبتنية على الظلم والقهر وهضم حقوق الأيتام والنساء والضعفاء، وكيف حُرم هؤلاء من أبسط حقوقهم وأدناها، فإذا لم يكن في المقام ما يضمن سلامة هذا التشريع فَقَدَ التشريع أثره، ولذا كانت التقوى أهم من كل الحرّاس والشرطة والعيون والرقباء لأنها الصيانة من الداخل التي تحفظ تماسك هذا التشريع وانطلاقه وتطبيقه...

والخطاب كما نرى لجميع الناس تذكيراً لهم بوحدة المنشأ والمبدأ وإنهم جميعاً يرجعون إلى رحم واحدة يجب أن تكون الدافعة لتعاونهم وتعاطفهم وتراحمهم...

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء للإنسانية جمعاء من كان في زمن النداء ومن يأتي ويستمع النداء وإلى آخر يوم في الدنيا...

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ وكلمة ربكم فيها تذكير بعظمة الله الذي خلق هذا الإنسان وربّاه واعتنى به وأغدق عليه من نعمه كما تدل عليه كلمة ـ رب ـ.

وأما التقوى.. فهي الركن الأساس لصلاح نفوس الناس وطهرهم ونقاء سريرتهم وكمال أعمالهم وعليها يترتب الأجر والثواب.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ هذا تذكير بوحدة المنشأ وبيان المصدر، وأن الناس جميعاً من نفس واحدة وهي نفس آدم أبو البشر...

والتذكير بالأصل الواحد يستدعي من كل الفروع أن يلتقوا في تراحم وتعاطف وتكاتف، وأن ينشروا فيما بينهم كل محبة وكل تعاون وإلفة و...

إذا كان يجمع الناس وحدة الأب فعليهم أن يكونوا في وحدة دائمة، فلا تؤثر عليهم المصالح الخاصة والأهواء والشهوات والميول وما يفرّق جمعهم أو يشتت شملهم... ولا يخفى أن تنكير ﴿مِّن نَّفْسٖ﴾ للتعظيم والتفخيم.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وخلق من جنس تلك النفس الواحدة ـ التي هي آدم ـ خلق حواء زوجه أم الأسرة البشرية.... ﴿وَمِنْهَا﴾ على حد قوله.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فهو لبيان أنه من جنسهم ليكون مقبولاً عندهم مألوفاً لديهم فلا يستغربون أو يستوحشون. . .

وأيضاً فيه بيان أن المرأة والرجل متماثلان في الإنسانية.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ أي فرّق ونشر من ـ آدم وحواء ـ المعبّر عنهما في الآية ﴿مِّن نَّفْسٍ﴾ و﴿زَوْجَهَا﴾. . وهي تحكي قصة هذا النوع البشري، وأنه يرجع بالتوالد منهما كما يقتضي قوله:

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ وبمقتضى هذا الظاهر الذي يفهمه كل أهل اللسان تسقط كل الدعاوى الأخرى التي تخالفه ولا يُلتفت إلى شيء منها لمصادمتها لهذا الظهور وليس في البين شيء مقطوع به عن المعصوم يحكي خلافه ليكون مفسّراً له وما ورد، فهو مع ضعفه معارض بهذا الظهور. . .

يبقى أن نشير إلى قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾ وأنه لماذا وصف الرجال بالكثرة دون النساء.

قالوا: إمّا لأن الرجال أصل في إيجاد هذا النوع البشري المشمول للنساء.

وإمّا أن يكون هذا الوصف ـ للرجال والنساء ـ وإنما حذف الوصف في النساء لدلالة الأول عليه، وهذا وجه من وجوه البلاغة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ إنكم تسألون بعضكم البعض بالله وتعظمون مضمون ما تريدون من خلال تلك المناشدة فتقولون ننشدكم بالله إلاّ فعلتم ذلك ـ تأكيداً على المطلب المراد.

فهذا الإله الذي تناشدونه اتقوه وخافوا منه واعملوا بما أراد إن كنتم صادقين في مناشدتكم له وتحلفون به وتُساءلون به. . .

وليعلم أن ﴿تَسَآءَلُونَ﴾ أصلها تتساءلون حذفت التاء تخفيفاً وهو متعارف عند العرب.

وأمّا ﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ فهي معطوفة على ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ فيكون المعنى واتقوا الأرحام.. أي احفظوها وارعوها ولا تقطعوها أو تسيئوا إليها...

﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ مفهوم عرفي ولم يخرج عند الفقهاء أو يكون لهم مفهوم خاص محدود الأطراف والأفراد، ويراد به الأقارب الأدنين كالآباء والأبناء والأخوة والأخوات، وهكذا...

﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ جمع رحم: وهو مكان نمو الجنين في بطن المرأة، وهذه الآية الكريمة تكشف أن الإحسان إلى الأرحام والتقوى فيهم من تقوى الله تعالى، فيجب مراعاتها والمحافظة عليها والاهتمام بها والقيام بشؤونها..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ وهذا فيه ترغيب وترهيب لجهة إن الله سبحانه إذا كان يعلم الأعمال والأفعال ويحفظها وبالتالي سيحاسب عليها ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى والذين أساءوا بالعذاب، فعلى الإنسان أن يجيد عمله ويخرجه كما يرضي الله حتى ينال أجره وثوابه...

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾.

## اللغة

﴿وَءَاتُوا۟﴾: من الإيتاء: وهو العطاء.

﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾: جمع يتيم: وهو من الإنسان من مات أبوه ومن سائر الحيوانات فاقد الأم، وأصله من اليتم: وهو الانفراد.

﴿تَتَبَدَّلُوا۟﴾: من بدل، والإبدال والتبديل والتبدّل والاستبدال: جعل شيء مكان آخر، والتبديل قد يأتي للتغيير مطلقاً...

﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: ما لا يوافق النفس ولا تستطيبه وفي الشرع هو الحرام.

﴿ٱلطَّيِّبِ﴾: أصل الطيب: ما تستلذه الحواس وتستلذه النفس وفي الشرع هو الحلال.

﴿حُوبًا﴾: الحوب: الإثم العظيم.

﴿خِفْتُمْ﴾: الخوف: توقع مكروه ويضاده الأمن.

﴿تُقْسِطُوا﴾: من القسط: وهو العدل والإنصاف.

﴿فَانكِحُوا﴾: أصل النكاح للعقد ثم استعير للجماع.

﴿مَا طَابَ﴾: أصل الطيب: ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس، والطيب من الإنسان: من تعرّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال وتحلى بالإيمان ومحاسن الأعمال وما طاب هنا مجاز في الحلال.

﴿مَثْنَىٰ﴾: معدول عن اثنين اثنين فهي تدل على مكرر.

﴿ثُلَٰثَ﴾: معدول عن ثلاث ثلاث.

﴿وَرُبَٰعَ﴾: معدول عن أربع أربع.

﴿أَلَّا تَمِيلُوا﴾: ألاّ تجوروا وتظلموا.

﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾: جمع يمين: وهي الجارحة التي تقابل الشمال، وملك اليمين: هي الإماء.

﴿أَدْنَىٰ﴾: أقرب.

﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾: ألاّ تميلوا وتجوروا من قولهم: عال الميزان: إذا مال، وعال الحاكم: إذا جار.

## التفسير

﴿وَءَاتُوا الْيَتَٰمَىٰ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ هذا من أظهر مصاديق التقوى وأقواها، وذلك لضعف اليتيم وقلة حيلته وعدم إمكان دفعه لمظالم الآخرين عنه...

اليتيم: هو العنصر الرقيق الذي يحتاج إلى الشفقة والعطف والإعانة.. إنه يحتاج إلى مَنْ يأخذ بيده إلى أن يصبح رجلاً يقوى على مصاعب الحياة ومصائبها ويستطيع أن يصمد في وجه الأعاصير التي تهدّد حياته فضلاً عن ماله وممتلكاته.

ويتجلى الأمر الإلهي بأن يُدفع مال اليتيم إليه بعد أن يبلغ ويصبح رجلاً، ..

إنه بمجرد أن يخرج من عالم الصغر ويدخل عالم التكليف ويأنس الولي منه الرشد، يجب أن يدفع إليه أمواله وبدون تأخير. . . إن التقوى تتحقق في امتثال أمر الله بتسليم كل أموال الأيتام إليهم بعد البلوغ. . .

يجب أن تصل إلى الأيتام أموالهم التي ورثوها أو تلك التي اكتسبوها بعد بلوغهم مبلغ الرجال. . . إنه أمر صريح بدفع مال اليتيم إليه بعد البلوغ. .

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إدفعوها إليهم، وابتدأ سبحانه بذكر هذه الفئة لأنها أضعف الفئات وأرقها، فاحتاج الأمر إلى الاعتناء بهم وإظهار شأنهم والاهتمام بهم. . .

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ إذا كان من التقوى أن تُسلِّم أموال اليتامى إلى أصحابها، فمن عدم التقوى أن تستبدلها بغيرها مما هو دونها أو أن تأكلها بغير حق، وقد عبَّر سبحانه عن استبدالها بغيرها مما هو دونها في الجودة أو النوعية بقوله:

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ ـ الحرام ـ الذي هو مال اليتيم من حيث أنكم تأكلونه بغير حق ـ بالطيب وهو ـ الحلال وهو مالكم المملوك لكم الذي يجوز لكم التصرف فيه ـ فهذه الطريقة التي كان يمارسها بعض أولياء الأيتام فيها ظلم وأكل للحرام من حيث يعطون أموالهم الرديئة للأيتام وينقلون الجيد من أموال الأيتام إليهم. . . إنها طريقة تحفظ وحدة الشكل والصورة ولكنها تختلف في الحقيقة والمضمون. . وهذا أمر يضر بالأيتام فتكون الطريقة باطلة يدخلها الحرام فيمنع الدين والشرع من ممارستها أو تعاطيها.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ لا تأكلوا أموال اليتامى كما تأكلون أموالكم مساوين بينهما، وهذا حرام وذاك حلال. . .

والأكل ليس هو وحده المنهى عنه بالخصوص، بل يعمّ الأخذ والاستيلاء عليها بأي وجه من الوجوه وعبّر بالأكل لأنه الغاية من وراء هذا الاستيلاء. . .

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ إن أكل مال اليتيم إثم كبير لأنه ظلم، وأفحش الظلم

ظلم الضعيف، واليتيم من أضعف الناس، لأنه لا يمتلك قوة يدفع بها الظلم عن نفسه فضلاً عن ماله...

والحوب: هو الإثم، ووصفه بالكبير لتعظيمه لكي يُرتدع عنه...

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾.

رعى الإسلام اليتامى وحافظ عليهم واعتنى بهم وأولاهم من الاهتمام الشيء الكثير ورفع عنهم كل غبن أو حيف ودفع عنهم كل أذى أو ضرر...

وهذه الآية في سياق الآيات التي تحفظ اليتيمات وتصون حقوقهن وترفع عنهن كل ضرر، وقد كانت اليتيمة مهضومة الجانب، فإذا كانت ذات مال وجمال تزوج بها الرجال ثم استمتعوا بها وأكلوا مالها حتى إذا نفذ وانتهى هجروها وتركوها وشأنها تتكفف وجوه الناس وتستعطيهم ولم يتركوها على عهدتهم ولم يتكفلوا لها بنفقة أو حياة كريمة، فمن هنا جاءت هذه الآية لتحرك حس التقوى في قلوب المسلمين الذين يمكن أن يعيشوا مضمون هذه التقوى وحقيقتها.. إنها تقول لهؤلاء الرجال المؤمنين إذا شعرتم من أنفسكم خوفاً بأنكم لا تقدرون على إقامة العدالة في اليتيمات وحفظهن والقيام بحقوقهن فاعدلوا في التزويج إلى غيرهن من النساء غير اليتيمات...

تزوجوا من النساء ـ غير اليتيمات إن خفتم عدم العدل فيهن، تزوجوا من غيرهن من النساء مما لذَّ لكم وكان حلالاً.

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي انكحوا غير اليتيمات إن لم تقدروا على حفظهن وحفظ مالهن وتوجبون الضرر عليهن.. انكحوا من غيرهنَّ إن شئتم اثنتين وإن شئتم ثلاثاً وإن شئتم أربعاً. وهذا تخيير في العدد لكل رجل حر إلى الأربعة فلا يجوز الزيادة على ذلك إجماعاً وسنة...

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فإن خفتم من عدم العدل بين الزوجات المتعددات فعليكم الاقتصار على الواحدة دون الجمع بينها وبين

غيرها. أو عليكم بالتزويج بملك اليمين، وهذا بدون حدّ أو عدد لقلة مؤنتهن ولأنه لا يتوجب لهن ما يتوجب للحرائر . . .

ومفاد الآية بشكل عام. . أنه إذا خفتم ظلم اليتامى فيما إذا تزوجتموهن فاتركوا الزواج منهن واعدلوا إلى النساء الأُخريات، فتزوجوا إن شئتم اثنتين أو ثلاث أو أربع إذا لم تخافوا ظلمهنّ، فإذا خفتم ذلك فعليكم بواحدة من الحرائر أو عليكم بالتزويج من ملك اليمين ـ وهن الإماء ـ كما كان متعارفاً. . .

والمراد ـ بالخوف ـ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ العلم العادي المؤدي إلى الاطمئنان.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ الزواج بواحدة أو بملك اليمين أقرب إلى أن لا تجوروا وتميلوا عن الحق إلى غيره لسهولة القيام بالواجبات الزوجية مع الواحدة من الحرائر وكذلك مع الإماء. . .

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةًۭ ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍۢ مِّنْهُ نَفْسًۭا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًۭٔا مَّرِيٓـًۭٔا ﴿٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿ءَاتُوا۟﴾: أعطوا.

﴿صَدُقَـٰتِهِنَّ﴾: جمع صدُقة بفتح الصاد وضم الدال ـ وهو الصداق أي المهر للمرأة: وهو شيء يملّكه الرجل للمرأة الذي يريد الزواج منها.

﴿نِحْلَةًۭ﴾: هبة وعطية ـ والمقصود هنا عطية ينتفع بها دون مقابل.

﴿طِبْنَ﴾: يقال طاب عن الشيء نفساً إذا تركه راضياً.

﴿هَنِيٓـًۭٔا﴾: الهنيء: قيل إنه ما يلذُّ آكله، وقيل: إن الهنيء والمريء: السائغ الذي لا تنغيص فيه...

﴿مَّرِيٓـًۭٔا﴾: قيل المريء: ما يحمد عاقبته، وقيل: ما ينساغ في مجراه، ومنه: سمي المريء لمرور الطعام في المكان المعين.

## التفسير

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةًۭ﴾ الخطاب كما هو الظاهر للأزواج، يأمرهم الله أن يدفعوا مهور مَنْ يريدون التزويج منهن ولا يأكلوا منه شيئاً...

والمهور ـ الصداق ـ هو ما يقدّمه الرجل أو ما يلتزم الرجل بدفعه إلى من يريد الزواج منها وقد عبّر الله عنه. . .

﴿نِحْلَةً﴾ أي عطية مجانية تتصرف فيها المرأة لمصالحها الخاصة وليس لأحد من أوليائها سلطة يستولي من خلالها عليها. . . يجب أن يلاحظ كلمة ﴿نِحْلَةً﴾ بما تحمل من معنى التبرع والمجانية.

المهر ـ الصداق ـ تعبير عملي عن صدق شعور الرجل نحو مَنْ أحب. . . إنه يحبها فيشركها في ماله أو يتعهد لها في بذل هذا المال كصيغة تعبيريّة عن رغبة تعيش في قلبه نحو من يحب. . .

لا يعني المهر غير هذا المعنى. . لا يعني البيع والشراء! فالحرُّ لا يُملك ولا يُباع أو يُشرى، سواء كان رجلاً أم امرأة.

قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝﴾. ليجعل العلاقة مميزة بين الرجل والمرأة، أباح للزوج أن يأكل مما أعطاه لزوجته، لكن شرط أن يكون ذلك عن طيب نفس منها. وبدون شعور منها بالغبن أو المنع أو عدم الرضا. . .

إذا طابت نفس الزوجة وسخت يداها بما تملّكت من قبل زوجها وردّت على الزوج كل مهرها أو بعضه، فله أن يتملّكه أو يأكله أو يتصرّف فيه ويكون مباحاً له وحلالاً عليه. . .

بل يكون ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ كما في التعبير القرآني. . أي سهلاً سائغاً طيباً خالياً من الأقذار والأكدار والأتعاب. . .

يبقى أن نقول: أن ﴿مِنْهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ ليس للتبعيض، بل لبيان الجنس على حد قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾(١). والأمر في قوله: ﴿فَكُلُوهُ﴾ للإباحة.

(١) الحج/ ٣٠.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

## اللغة

﴿وَلَا تُؤْتُوا﴾: ولا تعطوا..

﴿السُّفَهَاءَ﴾: جمع سفيه، والسفه: هي الخفة في العقل، وهنا يراد به من لم يُحسن وضع ماله في مواضعه، أو لم يحسن التصرف فيه.

﴿قِيَامًا﴾: من القوام بكسر القاف، وقوام الأمر: نظام الأمر وعماده.

﴿وَارْزُقُوهُمْ﴾: الرزق: ما يؤكل وتتقوم به الحياة وتستمرّ.

﴿وَاكْسُوهُمْ﴾: من كسا، الكساء والكسوة: اللباس.

﴿وَابْتَلُوا﴾: اختبروا وامتحنوا.

﴿بَلَغُوا﴾: بلغ البلد: إذا انتهى إليها ووصل.

﴿آنَسْتُم﴾: أبصرتم، من آنس: الشيء إذا أبصره.

﴿رُشْدًا﴾: الرشد: خلاف الغي يستعمل استعمال الهداية، والمقصود هنا حفظ المال وعدم تبذيره.

﴿فَادْفَعُوٓا۟﴾: من دفع، والدَّفع: إذا عدي بإلى اقتضى معنى الإنالة كما في مقامنا في الآية هنا، وإذا عدى بعن اقتضى معنى الحماية. .

﴿إِسْرَافًا﴾: الإسراف: هو التجاوز في كل شيء عن الحد المألوف.

﴿وَبِدَارًا﴾: مبادرة ومسارعة.

﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: من عفّ، والعفة: حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف: المتعاطي لذلك، والاستعفاف: طلب العفة.

## التفسير

بعد أن تقدم الحديث عن الأيتام والنساء ووجوب إعطائهم أموالهم استثنى سبحانه هنا الأيتام السفهاء لأنهم لا يؤتمنون على أموالهم حيث يبذّرونها ويبددونها ولا تعود عليهم بالنفع والفائدة.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ نهى سبحانه عن تسليم الأموال إلى السفهاء التي ـ هذه الأموال ـ بها قوّتكم وعزتكم وديمومة حياتكم فإن الله جعل المال عصب الحياة، وبه تقوم الأمة وتزدهر حياتها. .

وهنا أمور يجب التوقف عندها. . .

١ ـ ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟﴾ الخطاب هنا للأولياء على الأيتام الذين بأيديهم أموالهم وممتلكاتهم، وهي صيغة نهي يكون مقتضاها حرمة تسليم المال إلى السفهاء، وهذا أمر ترجع فائدته إلى الأيتام السفهاء أنفسهم، ولا يعود منه إلى الأولياء ثمرة أو فائدة. . لأن المقصود حفظها لئلا تتلف بأيدي من لا يحسن إدارتها أو التصرف فيها. .

٢ ـ ما المراد من السفهاء في الآية الشريفة؟!. . .

السفهاء: جمع سفيه، والمقصود به هنا من لم يحسن التصرف في المال أو يقدر على حفظه ورعايته وتدبيره وتثميره.

فالسفيه يجب على وليّه حفظ ماله ورعايته لئلا يضيع، وبالتالي يفقد هذا السفيه رصيده وما به قوام حياته واستمراريتها بكرامة وعزة.

إن بعض الفقهاء قد يستفيد من هذه الآية تعميم الحكم إلى كل سفيه لا يحسن حفظ ماله ـ وإن لم يكن يتيماً ـ بل بعضهم تعدى به إلى من يخالف بعض الأحكام الإسلامية كمن يشرب الخمر، وفي هذا المعنى جملة من الأحاديث.

ففي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: لا تؤتوها شرّاب الخمر ولا النساء. ثم قال: وأي سفيه أسفه من شارب الخمر؟!...

٣ ـ لماذا أضاف الأموال إلى ﴿لَكُمْ﴾ ولم يضفهم ﴿لَهُمْ﴾ فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ مع أنها أموال الأيتام وحقها ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾.

قالوا في الجواب: إن الإضافة تكفي فيها أدنى مناسبة.

وباعتبار أن الأموال تحت أيدي الأولياء، فنسبت إليهم وإن لم تكن ملكاً لهم؟...

وقيل: بل لأن المال عصب الحياة وبه تقوم الأمم والشعوب، وأي أمّة فقيرة لا تقدر على النهوض أو العيش الكريم بدونه، فهو ملك للأمة يجب أن تحافظ عليه وتحفظه، وما الأيدي المتعاقبة والمتداولة عليه إلاّ من باب الاختصاص، ومن أجل تنظيمه وتثميره يجب على الأُمة أن ترعاه لأهله إذا لم يُحسنوا حفظه وتنميته والتعامل به...

ومقتضى مفهوم الشرط ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ أنه لا يجوز دفع المال إليهم إذا لم يُرشدوا، وإن طُعنوا في السن خلافاً لأبي حنيفة الذي زاد سبع سنين على بلوغ الذكر والأنثى وأوجب دفع المال إليهما رَشداً أم لم يُرشدا...

٤ ـ إن قوله تعالى: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ فالمال به قيامكم وحركتكم ومعاشكم فهو السبب المحرك لهذا الإنسان في زحمة الحياة ومصاعبها...

إن قوام الإنسان وقوته وحركته بل استقلاله وكرامته وعزته فيما يملك من رصيد يستطيع أن يواجه به صعوبات الحياة ويدفع به شر الأعداء...

إن المال الذي تتمتع به الدول الغنية تستطيع أن تشتري من خلاله الأسلحة والمعدات والطائرات والدبابات، وتستطيع أن تشتري به كل ما يدفع عنها ما تتعرض إليه من مؤامرات أو غزو أو محاولات استغلال واستبداد...

إن عصرنا هذا يجسّد بصورة واقعية مفهوم هذه الآية الكريمة، وكيف يتحول المال إلى قوام الأمم والشعوب! وبه تستطيع أن تحقق وجودها وكرامتها إذا امتلكت إلى جانبه عقلاً يدبّره، ويستطيع أن يستفيد منه وينتفع من خلاله بما يعود بالنفع والفائدة.

٥ - ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ عدَلَ سبحانه عن قوله ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ إلى ﴿فِيهَآ﴾ دليل على وجوب التكسب لهم والاسترباح بها حتى تكون نفقة اليتيم من الربح، ولا يكون من رأس المال فيفنى...

إن تنمية مال اليتيم «بمقتضى هذه الآية» واجب حتى تكون النفقة من الربح، ولكن شرط أن يضمن الولي الربح وبه أفتى جملة من الفقهاء. وإن احتاط بعضهم وحملها على الاستحباب، إذا كان للولي مال يجبر به الخسارة لو وقعت في مال اليتيم...

والمراد بقوله: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي أعطوهم ما يحتاجون إليه من طعام وغذاء وما يقيم أودَهم ويحقق لهم الحياة الكريمة.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَٱكْسُوهُمْ﴾ أي أُعطوهم ما يحتاجون إليه من ثياب ولباس بحسب وضعهم شتاء وصيفاً، وهكذا...

٦ - ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ لأن حبس الأموال عنهم قد يؤدي إلى أذيتهم واستيحاشهم وتكدير أوضاعهم وكأنه طَعْنٌ في شخصيتهم وحطٌّ لها عن مقامها، فيأتي القول الطيب الذي يزرع في قلوبهم الثقة والطمأنينة على أموالهم بمثابة علاج يهدّىء ثورتهم ويربّي فيهم عنصر القوة وقوة الشخصية...

وبعضهم فصّلَ قوله: ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عن حبس الأموال وجعله واجباً مستقلاً برأسه على الولي، فكما أن على الولي أن يحفظ أموال اليتيم والسفيه،

فعليه أيضاً أن يحفظ شخصية كل منهما ويربيه على الفضيلة والخير من خلال القول المعروف الذي يتضمن كل قائمة الفضائل والصفات الطيبة من تعليم وتربية وتهذيب وتأديب وما يتضمن ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ من سعة وشمولية...

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ اختبروا الأيتام كي تعلموا صحة تصرفاتهم، وإنها على الطريقة العقلائية التي يسير عليها أغلب الناس حتى إذا بلغوا مبلغ الرجال والنساء دُفعت إليهم أموالهم وحَرُم حبسها عنهم...

واختبارهم طبعاً يكون عندما يتراءى للولي أنهم أوشكوا على البلوغ...

والاختبار يكون بإعطائهم بعض الأموال للاتجار بها إن كانوا من أهل ذلك، أو بغيره من وجوه التصرف مع مراقبة الوليّ لهم ليرى صحة ما يقومون به من فساده لئلا يضيع ما يعطيهم.

وقد يكون الاختبار بطرق أخرى تثبت صحة تصرفاتهم وملكيتهم لملكة المحافظة على المال، فإذا ثبت ذلك للولي.. فبمجرد أن يبلغ الفتى أو تبلغ الفتاة وجب دفع المال لهما... يبقى أن نذكر علامات بلوغ الذكر وعلامات بلوغ الأُنثى...

ذكروا أن علامات بلوغ الذكر ثلاثة أمور:

**الأول**: الاحتلام: بأن يرى المني وقد خرج منه، وهذا دليل الرجولة، وإن من خرج منه المني بلغ مبلغ الرجال سواء كان ذلك في يقظة أو في نوم، في الليل أو في النهار، بجماع أو غيره.

**الثاني**: الإنبات: والمراد به، إنبات الشعر الخشن على العانة.

**الثالث**: السن: وذلك بإكمال السنة الخامسة عشر هلالية، فإذا أتمها فقد بلغ.

وما ذكرناه من علامات للبلوغ هو المعوّل عليه عند أهل البيت عليهم السلام وعليه

العمل وهو المشهور في المذهب ومن شذّ عن ذلك فلا يلتفت إليه ولا يعوّل عليه.

وأمّا في الأنثى فالبلوغ يكون..

١ ـ بالعادة الشهرية: فمن جاءتها هذه الحالة فقد بلغت مبلغ النساء..

٢ ـ الإنبات للشعر الغليظ على العانة، كما هي الحالة عند الذكر.

٣ ـ إكمالها تسع سنين هلالية: فإذا أتمتها فقد أدركت النساء ولحقها حكمهن...

وهذا أيضاً ما عليه المذهب وعليه ـ يمكن أن يقال ـ الإجماع ـ لأن من شذّ معروف.

يبقى أن نقول: إن أي علامة تتقدم يكون بها البلوغ، ولا يشترط أن تجتمع كلها ليبلغ الذكر أو لكي تبلغ الأنثى، بل بواحدة منها يبلغ كل منهما...

وعلى ما تقدم يجب دفع المال إلى اليتيم مع البلوغ ـ بالمعنى المتقدم ـ والرشد أيضاً بالمعنى المتقدم، فإذا اجتمعا لا يجوز للوليّ حبس المال عن اليتيم ـ ذكراً أم أنثى ـ بل وجب عليه أن يدفعه إليهما، وذلك بمقتضى فاء التعقيب في قوله: ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ فإن وجدتم وأبصرتم منهم صلاحاً في عملهم بأن كانت تصرفاتهم على طبق الموازين العقلانية وليس فيها خلل فاضح فادفعوا إليهم أموالهم وسلموها لهم بدون تأخير لأنها حقهم، وقد استوفوا شروط تسليمها من البلوغ والرُّشد.

ولعل مجيء كلمة ﴿رُشْدًا﴾ منكّرة إشارة إلى أن المطلوب هو الرشد في المال من جهة حفظه وعدم تبذيره وليس المراد به العدالة أو الالتزام الشرعي بكل خصوصياته..

والخلاصة: إن الأيتام تدفع إليهم أموالهم بشرطين اثنين:

**الأول**: بلوغ اليتيم واليتيمة من التكليف الشرعي وقد بينّا فيما تقدم العلامات التي بها يتحقق هذا البلوغ.

**الثاني**: أن يؤنس من الأيتام الرشد الذي يعني حسن التصرف في المال وعدم إضاعته أو التبذير والإسراف في صرفه أو عدم المحافظة عليه...

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ وهذه حالة ربما عاشت في بعض النفوس المريضة حيث يبادر الولي إلى تبذير أموال اليتامى والإسراف في صرفها، والتصرف فيها لصالحه مخافة أن يكبر الأيتام فينتزعوا أموالهم منه فنهاهم الله عن مثل هذا الفعل القبيح والأكل الشنيع...

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الولي على الأيتام تارةً يكون غنياً ـ شرعاً بأن كان يملك قوت سنته له ولعياله ـ فهذا يستحب له إذا قام على إصلاح أموال الأيتام وتنميتها والعمل فيها.. أن لا يأخذ أجراً عليه، وذلك معنى أخلاقياً أدبياً من حيث كفايته وعدم حاجته، وإظهاراً منه لخصلة حميدة يحبها الله ويريدها منه، لأن في إعانة الأيتام أجراً وثواباً يفوق ما يأخذه الولي أجرة وبدلاً.

فالأمر بالاستعفاف للاستحباب أو للإرشاد إلى أفضل الخصال، وأمّا إذا كان فقيراً وهو يعمل لهم في أموالهم إصلاحاً وحفظاً وتنمية، فليأكل بالمعروف وهو عبارة عن أجرة المِثْل وهو المتبادر من الأكل بالمعروف دون الأزيد ـ وبه وردت الروايات ـ ففي صحيحة هشام بن الحكم، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عمن تولى مال اليتيم ما له أن يأكل منه؟

فقال: ينظر إلى ما كان غيره يقوم به فليأكل بقدر ذلك...

يبقى أن نشير إلى أن الأمر هنا للاستحباب، فيحق للفقير أن يتخلى عن أكل مال اليتامى ولو بالمعروف ويعمل لهم تقرباً منه سبحانه وامتثالاً لأمره بالإحسان إلى الأيتام...

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ فإذا اجتمع في اليتيم البلوغ والرشد

وأردتم دفع ماله إليه فاشهدوا على هذا الدفع والتسليم من تقوم الحجة بشهادته، ليثبت التسليم بشكل سليم وشرعي ويُدفع به احتمال أن ينكر اليتيم تسلّمه..

وهذا الإشهاد حمله الفقهاء على الاستحباب أو الإرشاد لمصلحة الولي فيما لو أنكر اليتيم تسلمه فيكون الإشهاد قاطعاً لمثل ذلك...

وعليه فلو لم يشهد الولي على التسليم وأنكر اليتيم وأقيمت الدعوى، فعلى الولي إذا لم يكن ثمة شهود أن يدفع المال المتنازع عليه لإهماله الإشهاد، ولا يكفي قوله بالتسليم لإهماله الإشهاد المأمور به.

وكونه أميناً لا يُسقط ظهور الآية بالضمان لعدم الإشهاد مع أنه ليس كل أمين لا ضمان عليه...

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ وهذا وعيد لمن خالف أمر الله فخان، أو غيّر أو بدّل أو أكل مال اليتيم بغير حق. وإن الإشهاد إنما يثبت به ظاهر الأمر وأمّا في الواقع فالله وحده المحاسب والعالم به وهو سيوقف كل واحد ويحاسبه عليه لعلمه به..

قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾.

## اللغة

﴿نَصِيبٌ﴾: حظ وسهم.

﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾: هما الأب والأم.

﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: الأقارب: الأدنون من القرب ضد البُعد.

﴿مَّفْرُوضًا﴾: واجباً محدوداً.

## التفسير

بعد أن أمر سبحانه فيما تقدم بحفظ أموال اليتامى شرع هنا في بيان الميراث وهذه الآية تشرّع أصل هذه الفريضة دون التعرض بالتفصيل للسهام والحصص أو لمقدار ما يرث كل واحد...

إنها تسنُّ القاعدة الأولية الكبرى التي يفهم منها الأصول المعتمدة، وهي قاعدة الميراث لكل أحد من ذكر أو أنثى، صغير أو كبير والقاعدة هي: يرث الميت أقربُ الناس إليه وأشدُّهم رحماً به...

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ للرجال سهمهم من الميراث مما خلّفه الوالدان ـ الأم والأب ـ وكذلك لهم مما ترك الأقربون إليهم..

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ صغاراً أم كباراً، لهم سهمهم من الميراث مما خلّفه الوالدان ـ الأم والأب ـ وكذلك لهم مما ترك الأقربون إليهم ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ سواء كان المتروك قليلاً أو كثيراً حظاً واجباً محدّداً كما أراد الله وبالحدود التي رسمها وحدّها...

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ سهماً واجباً وحصة مكتوبة واجبة لا يجوز التلاعب فيه بالتبديل أو التغيير، وأفرد النساء ليكون نصاً صريحاً في حقهن من الميراث ورفضاً لما اعتاده أهل الجاهلية من حيث أنهم كانوا لا يورّثون النساء ويقولون لا يرث إلاّ مَنْ طاعن بالرماح وذاد عن الحريم والمال...

وفي الآية دلالة واضحة على بطلان التعصيب الذي يذهب إليه أهل السنة، فإن الأقربية مع اتحاد الرتبة هي التي ترث على حدٍ سواء دون فرق بين الذكر والأنثى، ولذا فإن الولد يحجب ولد الولد، إذن فترث العمّة والعم، ويرث ابن العم مع بنت العم والأخت مع الأخ بينما القائلون بالتعصيب يمنعون ذلك ويخصون ما فضل عن الفريضة بالرجال دون النساء وهو خلاف مقتضى الآية...

فمن كان له بنت واحدة وابن عم وبنت عم فعلى مقتضى القوم ومذهبهم في التعصيب ترث البنت النصف ويرث ابن العم النصف الباقي وتحرم بنت العم مع اتحادها معه في القرب، وهذا خلاف ظاهر الآية ومقتضاها وهذا هو التعصيب الباطل الذي يعمل به القوم مخالفين كتاب الله روحاً ونصاً.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿حَضَرَ﴾: شهد.

﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾: القَسْمَ: إفراز النصيب، وقسمة الميراث: تفريقه بين أربابه.

﴿أُوْلُوا ٱلْقُرْبَىٰ﴾: الأقرباء من الأرحام.

﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم: وهو في الإنسان مَنْ فقد أباه وبعد لم يبلغ.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾: الفقراء.

﴿فَٱرْزُقُوهُم﴾: من الرزق: وهو أن يعطى هؤلاء شيئاً من هذا الميراث ليأكلوه ويكملوا حياتهم في الدنيا.

﴿وَلْيَخْشَ﴾: الخشية: في الأصل خوف يشوبه تعظيم.

﴿ذُرِّيَّةً﴾: ذرية الرجل: نسله ومن يخلفه من أولاده.

﴿ضِعَٰفًا﴾: جمع ضعيف، والضعف: خلاف القوة.

﴿سَدِيدًا﴾: مصيباً ـ السليم من خلل الفساد، والسَّداد: الصواب والاستقامة.

## التفسير

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾.

هذه واحدة مما يجمع القلوب ويوحّد الصفوف ويؤلّف فيما بين الناس وخصوصاً الأقارب الذين يلتقون تحت سقف واحد، وكانوا من رحم واحدة...

إذا شهد قسمة الميراث بيّن الورثة «قرابة الميت ممن يمتّ إليه بصلة ولم يشمله الميراث لوجود حاجب يحجبه عنه» أو كان في البيّن أيتام فقدوا المعيل والمعين أو المساكين الذين يعيشون الفقر والحاجة فهؤلاء ينبغي للورثة ويستحب لهم أن يخصُّوهم بشيء من التركة تطيباً لخواطرهم ورفعاً لما يجيش في قلوبهم من حزازة وأسى وحرمان..

إن هذا العطاء يُشعرهم بالعطف والحنان والرّقة، وأنهم لا يزالون ضمن الأسرة الصغيرة ـ العائلة ـ أو الأسرة الإنسانية العامة... إنه شعور ينعكس عطاءاً فتهتدي إليهم الأيدي الخيرة الطيبة...

وهذا العطاء لم يحدّد بحدّ ولم يُعيّن بمقدار معيّن، بل تُرك تقديره إلى الورثة فهم الذين يقدرونه ويخرجونه بحسب ما تستجيش به نفوسهم من معانٍ إنسانية رفيعة وقرابة قريبة ورحم رحيمة...

وهذا الرزق ﴿فَارْزُقُوهُم﴾ ظاهره الاستحباب كما يظهر من لحن الآية وخصوصاً بقرينة قوله تعالى:

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ هذا القول يشي بالأخلاقية العالية ويوحي بالعطف والرقة والاسترحام...

ومضافاً إلى هذا العطاء ينبغي أن يقولوا لهم الكلام الطيب الذي يعكس تعاونهم معهم وعطفهم عليهم... إنها الكلمات الطيبة التي تجذبهم إلى الورثة

وتضفي على القرابة أجواء الصلة والمودة، وما أجمل الكلمة الطيبة التي تواسي قلب اليتيم والمحتاج وتشعره أنه محط اهتمام الناس وتفقّدهم وعنايتهم. . .

﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو القول الجميل الذي يستل الأضغان، ويزرع مكانها العطف والتوادّ.

طبعاً هذا التكليف يتوجه إلى من كان بالغاً، أمّا غيره ممن لم يبلغ أو يكون ذا علة من جنون أو غير ذلك، فلا يُخرج من ميراثه شيء. . .

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾. هذا أمر إلى أولياء اليتامى أن يفعلوا معهم ما يحب أن يفعله الغير مع أيتامهم لو كان لهم أيتام. . . إنها تربية أدبية وأخلاقية للأولياء كي يتصوروا أنفسهم قد رحلوا عن الحياة وتركوا وراءهم أولاداً أيتاماً، فكيف يحبون أن يُعامل أولادهم من قبل غيرهم؟! فليعاملوا هم أيتام الناس بمثل ذلك. . .

إن الإنسان إذا عاش هذه الحقيقة وراح يتصور أن أطفاله الأيتام لا معين لهم ولا شفيق عليهم. . . وهم مع ذلك يعاملون بالقسوة والغلظة والشدة. . . ويرى كيف تمارس عليهم شتى أنواع الإهانات والشدائد وما فيه امتهان لشخصياتهم ومقاماتهم. .

إذا رسم الإنسان لأولاده هذه الصورة وكيف تمارس عليهم مثل هذه الأعمال، لا بدّ وأن يتراجع عن هذه الأعمال «إذا كان يمارسها أو يقوم بها». . إنه يخاف على أولاده أن يصيبهم ما يمارسه على أيتام الناس، إن هذا التصور يشكل دافعاً من أكبر الدوافع لإصلاح أعمال الأولياء مع الأيتام فتنعكس الأمور وتتبدل القضايا وتتغير السبل وتصلح الأعمال. . .

إن اليتيم بحاجة إلى عناية بدنية وصحية ولكن بالإضافة إلى ذلك بحاجة إلى بناء شخصيته الاجتماعية فلا يقع فريسة التربية الفاسدة والمعاملة السيئة. . .

إن هذا اليتيم بحاجة إلى العطف والحنان وإلى الأخذ بيده لبناء شخصيته على أسس متوازنة تحفظ التعادل الذي يبني كل شخصية إنسانية. . .

﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ دعوة إلى الأولياء ـ على الأيتام ـ أن يتقوا الله.. أي يراعوا أحكامه في هذه الفئة الضعيفة فيحفظون لهم أموالهم التي تحت أيديهم يحفظونها لهم ـ عن التلف والضياع ـ ثم يثمّرونها لهم، وهذا إصلاح المال لهم.

وأمّا إصلاح شخصياتهم والقيام على تربيتهم وإعدادهم للمستقبل فيتجسّد في القول السديد لهم ـ أي الاهتمام بتربيتهم وإعدادهم إعداداً جيداً من تعليم وتهذيب وتأديب حتى يأتوا وقد اكتملت رجولتهم وأصبحوا في موقع المسؤولية التي تتطلبها منهم الحياة وحركتها الدائمة في الأيام القادمة...

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾: سيلازمون النار، وأصل الصلْي لإيقاد النار، وصلي بالنار: إذا بلي بها...

﴿سَعِيرًا﴾: السّعْر: التهاب النار، والسّعير: النار الملتهبة.

## التفسير

هذه من جملة الآيات التي تحمي الأيتام من استغلال الأولياء، وتحفظ لهم أموالهم وما به قوامهم... الأيتام لضعفهم وقلة حيلتهم احتاج الأمر إلى هذا التهديد والوعيد لعل مَنْ به رحمة وعطفاً وخشيةً أو رهبةً إن سوّلت له نفسه بشيء من ذلك أن يرجع عنه ويعود أو يصلح ما أفسد ويرمّم ما أحدث..

إنها صورة يتحول فيها مال اليتيم في بطن من أكله ظلماً إلى نار...

أكل مال اليتيم ظلماً وبغير حق ـ ليس أجرة ولا قرضاً مشروعاً ـ بل اعتداءاً وتجاوزاً عن المشروع، هذا المال المأكول يتحول إلى نار وما أشدها من نار في

موضع لا يتحمل الإنسان فيه وجعاً قليلاً، فكيف إذا تحوّل موقداً تضطرم فيه النار؟ . .

ثم سيدخل نار جهنم التي أعدّها الله للعصاة والمتمردين، فتصبح النار من داخله ومن خارجه، محيطة به من الخارج وتعيش في عمقه من الداخل. . .

إنها صورة لا يتحمل الإنسان تخيّلها وتصورها، فكيف يتحمل أن يعيشها حقيقة ينطق بها الله ويتوعد بها أكلة مال الأيتام ظلماً.

## فوائد

١ ـ إن قوله: ﴿ظُلْمًا﴾ ليخرج ما لو كان الأكل مشروعاً، كمن يعمل لهم في إصلاح أموالهم وتدبير شؤونهم، أو أنه يستقرض من أموالهم لمصلحتهم أو لغير ذلك مما هو مشروع.

٢ ـ ينبغي أن نشير إلى أن قوله: ﴿يَأْكُلُونَ﴾ ليس محصوراً بالأكل بل يتناول ذلك جميع التصرفات الظالمة بالسلب والنهب والأخذ والتملك والتقلب فيها واستعمالها بغير حق. والتعبير بالأكل لأنه المقصود في الغالب من وراء جميع التصرفات والحركات. . .

٣ ـ إن مجيء كلمة ﴿سَعِيرًا﴾ في حالة تنكير وتنوين إنما هو للتهويل والتعظيم لهذا العذاب الشديد. . .

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يُوصِيكُمُ﴾: الوصية: أن يتقدّم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ، ويوصيكم هنا بمعنى يأمركم، ويفرض عليكم وهو أبلغ من يأمركم.

﴿أَوْلَـٰدِكُمْ﴾: أولاد الرجل: ذريته من الذكور والإناث.

﴿لِلذَّكَرِ﴾: الذكر: خلاف الأنثى.

﴿مِثْلُ﴾: المثل: الشبه والنظير.

﴿حَظِّ﴾: نصيب.

﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: مثنى أنثى: وهي خلاف الذكر.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾: للأب والأم وغلب الأب كالقمرين.

﴿دَيْنٍ﴾: قرض، وأدنتُ: أقرضتُ.

﴿نَفْعًا﴾: خيراً.

## التفسير

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ هذا تفصيل الميراث الذي أجمله فيما تقدم بقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ الآية.

وابتدأ سبحانه بميراث الأولاد لأنهم أقرب الناس إلى الآباء وأشدهم علقة بهم، وهم كالامتداد لهم وقد أوصى بميراثهم، وهذه الوصية أمر واجب وفرض لازم فكأن الله بقوله:

﴿يُوصِيكُمُ﴾ إنه يعهد إليكم ويلزمكم في شأن أولادكم أن يكون لهم الميراث على هذا التفصيل...

١ ـ **الصورة الأولى**: أن يكون للميت ذكور وإناث، فهنا ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فلو ترك الأب بعد موته ولداً وبنتان كان للولد النصف وللبنتين النصف الآخر مناصفة بينهما، ولو ترك ولداً وبنتاً واحدة كان للولد ثلثان وللبنت ثلث واحد، وهكذا.. وينبغي أن يلاحظ أن الأصل الذي يدور عليه قسمة الميراث هو الأنثى، ولذلك فرّع عليها ميراث الذكر بقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فالأنثيان أصل وميراثهما مفروغ عنه.

وذكر بعض العلماء «وما ذكره جيد» إن الله قدّم الذكر على الأنثى لبيان زيادة حظ الذكر لا نقص حظ الأنثى فإن الإشارة إلى جهة فضل الفاضل لا الإشارة أو ليست الإشارة إلى جهة نقص المفضول...

٢ ـ **الصورة الثانية**: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ إذا انفردت البنتان فما فوق في الميراث فلهن ثلثا ما ترك الميت، فالثلاث من البنات لهن الثلثان وهكذا الأربع والخمس ومهما بلغ عددهن...

هذا في أصل الفرض، ولكن - عندنا - يردّ عليهن ما تبقى من التركة لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾[١] وليس في الأرحام من هو أقرب إلى المتوفى من بناته، فلا يرث العم أو ابن العم أو غيرهما مع وجودهن[٢]...

أضف إليها تواتر الأخبار عن أئمة الهدى بذلك. يبقى أن نقول: إن الآية ذكرت حكم ما فوق الاثنتين من النساء المنفردات بالميراث، فما هو حكم الاثنتين بالخصوص؟..

قالوا: إن إجماع الأمة قائم على وحدة نصيب الاثنتين مع ما فوقهن، وإن لهما الثلثان كما للثلاث والأربع وعليه العمل في جميع الأعصار...

ومضافاً إلى الإجماع هناك تقريبات واستنتاجات ذكرها المفسرون نرى من الأولى الإعراض عنها لعدم فائدتها.

٣ - **الصورة الثالثة**: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ إن كانت الوارثة بنتاً واحدة فلها نصف التركة بالفرض ويردّ عليها الباقي لأنها أقرب الأرحام إلى الأب ولا يصل الأمر إلى التعصيب عندنا من توريث العم أو ابن العم كما تقدم.

يبقى أن نشير إلى أن أهل السنة خصّصوا عموم قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ وأخرجوا منه الأنبياء فمنعوا ميراث أبنائهم منهم وطبّقوا ذلك على «الزهراء فاطمة بنت محمد ﷺ فمنعوها من ميراث أبيها بخبر واحد نقله أبو بكر وكان وحده الراوي له، وأنا أنقل ما ذكره الرازي في تفسيره الكبير نصاً وأعلق عليه بما هو ضروري يقول:

«من تخصيصات هذه الآية - يشير إلى قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ ما هو مذهب أكثر المجتهدين أن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون، والشيعة خالفوا فيه، روي أن فاطمة عليها السلام لما طلبت الميراث ومنعوها منه احتجوا بقوله ﷺ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة».

---

(١) الأنفال/ ٧٥.

(٢) الوسائل، من أبواب ميراث الأبوين والأولاد، باب ٤، حديث ٣.

فعند هذا احتجت فاطمة عليها السلام بعموم قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ وكأنها أشارت إلى عموم القرآن لا يجوز تخصيصه بخبر الواحد.

ثم إن الشيعة قالوا: بتقدير أن يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد إلاّ أنه غير جائز هٰهنا، وبيانه من ثلاثة أوجه:

**أحدها**: أنه على خلاف قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾(٢).

قالوا: ولا يمكن حمل ذلك على وراثة العلم والدين لأن ذلك لا يكون وراثة في الحقيقة بل يكون كسباً جديداً مبتدأ، إنما التوريث لا يتحقق إلاّ في المال على سبيل الحقيقة.

**وثانيها**: أن المحتاج إلى معرفة هذه المسألة ما كان إلا فاطمة وعلي والعباس عليهم السلام وهؤلاء كانوا من أكابر الزهاد والعلماء وأهل الدين، وأما أبو بكر فإنه ما كان محتاجاً إلى معرفة هذه المسألة البتة لأنه ما كان ممن يخطر بباله أنه يرث من الرسول صلى الله عليه وسلم فكيف يليق بالرسول (عليه الصلاة والسلام) أن يبلّغ هذه المسألة إلى من لا حاجة به إليها ولا يبلغها إلى من له إلى معرفتها أشدُّ الحاجة.

**وثالثها**: يحتمل أن قوله: «ما تركناه صدقة» صلة لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا نورث» والتقدير: أن الشيء الذي ما تركناه صدقة فذلك الشيء لا يورث...

فإن قيل: فعلى هذا التقدير لا يبقى للرسول خاصية في ذلك.

قلنا: بل تبقى الخاصية لاحتمال أن الأنبياء إذا عزموا على التصدق بشيء فبمجرد العزم يخرج ذلك عن ملكهم ولا يرثه وارث عنهم، وهذا المعنى مفقود في حق غيرهم...

وأجاب «الرازي» بكلمات، وهي: إن فاطمة عليها السلام رضيت بقول أبي بكر بعد

---

(١) مريم/٦.
(٢) النمل:١٦.

هذه المناظرة وانعقد الإجماع على صحة ما ذهب إليه أبو بكر فسقط هذا السؤال والله أعلم.. انتهى...

أقول: أنظر إلى هذا الجواب ما أحمقه مع جلالة علم الرازي وقدمه الثابتة في المناقشات، ولكنني أحسن به الظن فإنه أحسن الطرق إلى الهروب من الحقائق الساطعة والأدلة اللامعة، وهو أخصر الأجوبة التي يستطيع أن يحفظ بها عقيدته ولا يثير التساؤلات في وجه هذا المنع...

إن الرازي أغفل احتجاج الزهراء عليها السلام الصارخ، وكيف أنها هي التي احتجت بالآية الناطقة بميراث أولاد الأنبياء؟ وليسوا هم الشيعة، وإذا كان لهم من احتجاج فتبعاً للصديقة واقتفاء لأثرها الطاهر المبارك، حيث خرجت وخطبت خطبتها الغراء في الاحتجاج على أبي بكر حينما عزم على منعها ميراثها من أبيها، وقد بقيت صلوات الله عليها غاضبة على أبي بكر وعمر حتى توفاها الله...

فأول الحديث أنها قد رضيت بعد المناظرة بما ذهب إليه أبو بكر من منعها ميراثها، بل الثابت أنها بقيت تطالب به والتاريخ يشهد بذلك...

وأمّا الإجماع المزعوم الذي ادعاه الرازي فلم يتم حيث خالف وجوه الصحابة وعلى الأقل العباس وعلي وفاطمة نفسها والحسن والحسين وأم أيمن وغيرهم...

ثم أنه من أعجب العجب أن ينفرد أبو بكر برواية الحديث ويحجب به ورثة النبي صلى الله عليه وآله ولا يعلم به أهله ومن يبتلون به من الورثة...

إنها قضية صعبة التصديق ووراء الأكمه ما وراءها... إنها السياسة التي تحجب الحق عن أهله وتعطيه لغيرهم جوراً وظلماً...

٤ ـ الصورة الرابعة: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾. ولأبوي الميت ـ الأب ـ والأم ـ لكل واحد منهما السدس إذا كان للميت ولد سواء كان الولد واحداً أو متعدداً ذكراً أو أنثى...

فالفرض في صورة ما لو مات الرجل وترك أبوين وأولاداً فإن الأب له السدس والأم لها السدس والباقي يوزع على الأولاد بالتساوي إن كانوا ذكوراً وإذا انضم إلى البنين بنات ـ يقسم ما تبقى بعد إخراج فرض الأب والأم ـ للذكر مثل حظ الأنثيين. . .

والأبوين هما الأب والأم غُلّب لفظ الأب كما هو الحال في القمرين ـ للشمس والقمر ـ فإن العرب تجري المختلفين مجرى المتفقين.

٥ ـ **الصورة الخامسة**: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ وهذه صورة ما لو مات الرجل وترك أبوين ـ أب وأم ـ ولم يكن له ولد ولا ولد ولد فإن الأم ترث من ولدها الثلث فرضاً، ثم لا شيء لها زيادة على ذلك والباقي يوزّع على الزوجة إن كان له زوجة فتأخذ الربع والباقي يكون للأب. . .

وبعبارة أخرى: ترث الأم ثلث ما ترك ولدها الذي لم يترك ولداً من أصل التركة.

ثم يأخذ الأب السدس فرضاً والباقي يردّ عليه. . . هذا إذا لم يكن للميت أخوة. . .

٦ ـ **الصورة السادسة**: عين الخامسة ـ ولكن للميت أخوة ـ فهنا إذا مات الرجل وليس له ولد ولكن له أخوة وأب وأم. .

فالأم تأخذ السدس لوجود الأخوة للميت فهم يحجبونها عن الثلث ـ التي كانت ترثه بدونهم ـ إلى السدس. . .

أما الأب فإنه يرث السدس ويردُّ الباقي عليه بالقرابة. . وهو نص قوله تعالى: ﴿كَانَ لَهُۥٓ ـ للميّت ـ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾.

ولم يذكر نصيب الأب لأن سهمه المفروض معلوم بالأصل ويرد عليه الباقي بعد أن حُصِر سهم الأم بالسدس. . .

بقي أن نذكر أن قوله ﴿كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ ما يقصد بالأخوة؟. . .

يقصد بالأخوة: أخوان أو أكثر، أو أختان وأخ، أو أربع أخوات. . .

كما أن المقصود بالأخوة: الأخوة من أب وأم أو من أب، فإن الأخوة من الأم لا يحجبون الأم عن الثلث لأن الوجه فيه: أن الأب ينفق عليهم فوفر نصيبه، والأب لا ينفق على الأخوة من الأم..

وفي الحديث كما في الكافي عن محمد بن مسلم[1] عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يحجب الأم عن الثلث إذا لم يكن ولد إلاّ أخوان أو أربع أخوات..

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله كما[2] في الكافي:

«إن الرجل إذا ترك أبويه فلأمه الثلث وللأب الثلثان في كتاب الله عز وجل، فإن كان له أخوة يعني للميت يعني أخوة لأب وأم، أو أخوة لأب، فلأمه السدس، وللأب خمسة أسداس، وإنما وفر للأب من أجل عياله، وأما الأخوة لأم ليسوا للأب، فإنهم لا يحجبون الأم عن الثلث ولا يرثون».

## الإرث بعد الوصية والدين

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ متعلقة بجميع ما تقدم من قسمة المواريث كلها أي هذه السهام المتقدمة التي وُزعت على الورثة تكون بعد الوصية والدَّيْن إن كانا وعلى هذا فقبل اقتسام التركة وتوزيعها على مستحقيها يجب أن نعمد إلى ديونه فنوفيها من التركة..

ثم نعمد إلى وصيته من صدقة أو هبة أو زيارة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة أو حج مستحب فنخرجها من الأصل إذا لم تزد عن الثلث وإلاّ فاحتاج الزائد عن ذلك إلى إذن الورثة فإن أجازوا نُفِّذت وإلاّ فلا ثم بعد ذلك توزع التركة.. ومن هنا يجب أن يتنبّه الورثة قبل اقتسام التركة إلى ديون الميت ووصاياه فينجزونها ثم يقتسمون ما تبقى.

---

(١) الكافي، كتاب الميراث، باب ميراث الأبوين.
(٢) الكافي، كتاب الميراث، باب ميراث الأبوين.

قيل: إنما قال سبحانه ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ ولم يقل ﴿و﴾ للدلالة على أنهما متساويان في وجوب الوفاء.

وقدّم الوصية على الدين لأنها تشبه الميراث، ولأنها شاقة على الورثة مندوب إليها.. ولأن في الديون من يطلب بها ويدعو إلى تحصيلها فلا يمكن في الغالب للورثة التهرب منها بعكس الوصية لإمكان تهربهم منها وعدم تنفيذها.

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام[1] قال: أول شيء يبدأ به من المال الكفن، ثم الدين ثم الوصية ثم الميراث.

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ إذا كنتم تحبون الخروج عن هذه القسمة في الميراث وتريدون التفاوت فيها ظناً منكم أن من تعطونه زيادة ينفعكم سواء كان أباً أو ابناً أو تنقصون من سهمه ظناً منكم أنه لا ينفعكم، فهذا منكم خطأ لأنكم لا تعرفون مَنْ يكون أقرب إليكم نفعاً، هل الذي تزيدون في سهامه أو الآخر الذي تنقصونه منها؟ فلذا يجب أن ترجعوا إلى ما قسّمه الله ووزّعه، فهو العالم بمن ينفعكم ممن يضركم...

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ توزيع السهام على ما تقدم وتقسيم التركة كما قسّمها الله، هي فريضة واجبة من الله فهو الذي تولى توزيعها ولا يجوز العدول عنها..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ هذا فيه طمأنة النفوس التي يمكن أن تشكك في هذا التوزيع، وتذكير لها بعلم الله الذي يحيط بما يصلح الإنسان وما يفسده.. إنه العليم بكل القضايا ومن جميع جهاتها وليس كغيره ممن يرى الأمور من جهة، ويغفل عن رؤيتها من الجهات الأخرى فيذهب إلى حسنها، وهي فيها كل الشر وقد يكون العكس..

وهو الحكيم الذي يضع الأمور مواضعها ويشرّع الأحكام والقضايا لمصلحة هذا الإنسان وما ينفعه ويفيده..

وعليه فيجب ردّ الأمور إليه تعالى وقبول ما يأمر به ويريده بملىء الإرادة وكمال الاختيار وبطيب نفس واطمئنانها...

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الوصايا، باب ٢٨، حديث ١.

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿كَلَٰلَةً﴾: الكلالة: كما في القاموس الإعياء، ومن لا ولد له ولا والد فكل وارث ليس بوالد للميت ولا ولد له فهو كلالة..

﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾: المضارة: هي الإضرار..

﴿حَلِيمٌ﴾: أصل الحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب، وحلم الله: أناته وعدم المعاجلة بالعقوبة.

## التفسير

الميراث بالسبب: الزواج

هذه الآية الكريمة تتعرض لميراث الزوجين ولميراث الكلالة وتبدأ بتوزيع ميراث الزوج من الزوجة فيما لو ماتت، وهذه لها صورتان..

١ ـ في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾.

فلو ماتت الزوجة ولم يكن لها ولد من زوجها ـ التي ماتت عنه ـ أو من غيره فللزوج نصف تركتها التي خلفتها.

٢ ـ في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

إذا ماتت الزوجة ولها ولد منه أو من غيره فله الربع والخطاب طبعاً للأزواج.

ومن قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ﴾ يفهم أن مجرد وجود الولد لها يكفي في حجب الزوج عن النصف إلى الربع سواء كان منه ـ أو منها من زوج آخر ـ ثم إن ظاهر لفظ الأزواج يتناول الأحرار والعبيد، والمسلمين والكفار، والنكاح الدائم والمنقطع، لكن خرج غير الأحرار وغير المسلمين بالنص والإجماع على كون الكفر والرق مانعان من الميراث.

وأمّا النكاح المنقطع فإن اشترط الميراث فيصح وإلاّ فلا ميراث بينهما...

وأيضاً يجب أن يُعلم أن إطلاق الزوج والزوجة يتناول المعقود عليها، وإن لم يحصل الدخول بها فترثه ويرثها. كما يتناول المطلّقة طلاقاً رجعياً لأنها في حكم الزوجة فترثه ويرثها ما دامت في العدة...

﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ فلا تقسّم التركة ولا يأخذ الزوج سهمه من تركة زوجته إلاّ بعد أن تُخرَج ديونها ووصاياها ثم تقسّم بعد ذلك فيأخذ زوجها سهمه النصف أو الربع كما مرّ..

## ميراث الزوجة

وإذا مات الزوج وخلّف امرأة، فأيضاً هنا صورتان:

١ ـ **الصورة الأولى**: أن يتوفى الزوج ولا يكون له ولد أبداً، لا منها ولا من غيرها، فهنا ترث الربع مما ترك، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾.

٢ ـ **الصورة الثانية**: أن يتوفى الزوج ويكون له ولد منها أو من غيرها وهنا لها الثُّمن، قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾.

﴿مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وهذا كما تقدم فتُخرَج أولاً ديون الزوج الميت ووصاياه، ثم تعطى زوجته الربع أو الثُّمن بالتفصيل الذي مرّ... وهنا أمور يجب التنبه لها...

١ ـ إن ظاهر الآية أن الزوجة ترث من جميع التركة، خرجنا عن هذا الظاهر للنصوص الصريحة التي تمنع الزوجة من ميراثها في عين الأرض ولا ضير في ذلك بعد صحة المخصص وسلامته وهو موجود فيما ورد عن المعصومين[(١)]...

٢ ـ إن المراد بالولد ليس هو فقط الولد الصلب بل ولد الولد وولد البنت، كلاهما يحجب الزوجين عن نصيبهما الأعلى...

٣ ـ إذا تعددت الزوجات ـ ولو كن أربعاً ـ يقسّم الربع أو الثُّمن المفروض لهن بالسوية...

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾.

الكلالة مصدر بمعنى الكلال: وهو الإعياء، أو من الإكليل الذي يحيط

(١) الوسائل، باب ٦ من أبواب ميراث الأزواج، حديث ٥ ـ ١٦.

بالرأس، استعملت هنا لمن لم يخلّف والداً ولا ولداً وعلى من ليس بوالد ولا ولد فهي تطلق على الوارث والموروث من جهة انتساب كل منهما إلى الآخر.

والمراد هنا ـ من الكلالة ـ هم الأخوة ممن يتقرب بالأم خاصة...

وهنا صورتان:

**الأولى**: مات أحدهم وليس له والدين ولا أولاد وله أخ واحد أو أخت واحدة ـ لأمه ـ فهنا يُعطى كل من الأخ أو الأخت السدس مما تركه الميت ويُردُّ عليه الباقي لقرابته...

**الثانية**: مات أحدهم وليس له والدان ولا أولاد وله أكثر من أخ أو أكثر من أخت أو أكثر من أخ وأخت مجتمعين معاً، فهنا لهم الثلث فريضة يشتركون فيه ويقتسمون بالسويّة، لأنهم جميعاً اتصلوا بواسطة الأم... قال تعالى: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ ويُردّ الباقي عليهم بالقرابة...

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ فهذا الموروث ـ الكلالة ـ يجب توزيع تركته على ورثته بعد إخراج ما عليه من ديون ووصايا شرط أن لا يكون ذلك مضراً بالورثة، وقد يتحقق الضرر بزيادة الوصية عن الثلث أو بالإقرار بدين ليس له حقيقة أو صحة أو غير ذلك مما يكون فيه الضرر على الورثة...

وجرى هنا التعرض للإضرار بالوصية لأن المقام مظنّة ذلك من حيث أن إرث ـ الكلالة ـ وخصوصاً ـ كلالة ـ الأم يكون ثقيلاً على الموروث...

﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ ﴿وَصِيَّةٗ﴾ مصدر مؤكد، أي أوصاكم الله بذلك وصية.

ونسبتها إلى الله ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ تأكيداً لعظيم شأنها والتحذير من مخالفتها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يطيع ممن يعصي ومن يمتثل ممن يتمرد.

﴿حَلِيمٞ﴾ يؤخر العقوبة فلا يعاجل بها لعل هناك من يتوب أو يرجع...

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿حُدُودُ﴾: جمع حدّ: وهو الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، وحدود الله: أحكامه وفرائضه المحدودة التي لا يجوز تجاوزها.

﴿ٱلْفَوْزُ﴾: الظفر بالخير مع حصول السلامة.

﴿يَتَعَدَّ﴾: يتجاوز الحق.

﴿مُّهِينٌ﴾: مذلّ.

## التفسير

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ تلك: إشارة إلى ما تقدم من أحكام المواريث وإنها أحكام وتشريعات سنّها الله ووضعها وحدّدها بحدود معيّنة لا يجوز تجاوزها أو التخطي عنها باجتهادات باطلة أو عقول قاصرة...

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا أمر عام يترتب عليه نتيجة من يطع الله فيما أمر وأراد ومنع ونهى، ومن يطع رسول الله فيما أمر وأراد ومنع ونهى، ومن إطاعتهما الالتزام بحكم المواريث كما ورد بها القرآن وبيّنه الرسول.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

من يطع الله ورسوله ويجهد ويجدّ من أجل تنفيذ مرادهما، فالله سبحانه سيعطيه أجر ذلك وثوابه جنات متعددة تجري من تحتها الأنهار، فينعم بعطاء الله الذي يسّر فيه من داخله ومن خارجه فينعكس جمال الجنات راحة نفسية ومنظراً مبهجاً جميلاً، إضافة إلى لذة الواقع ووجود ما يريده هذا الإنسان ويتمناه.

ويضاف إلى ذلك ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ فاللذة مستمرة لا يقطعها ما يقطع لذات الدنيا ومسراتها.

﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الظفر بالجنة هو الظفر العظيم الذي يصغر عنده كل فلاح آخر وفوز آخر...

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

بعد أن رغّب بإطاعة الله ورسوله ورتب سبحانه ما يلحق المطيعين من الجنات والفوز العظيم. خوّف ورهّب ـ هنا ـ من يعصي الله ورسوله ويتجاوز المرسوم له من تشريع وأحكام ـ ومنه طبعاً الميراث ـ ورتب على ذلك أن العاصي المخالف المتعدي لحدود الله يدخله الله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين على عكس المطيعين تماماً لتكون المقابلة رادعة بشكل قوي ترتجف منها أعصاب هذا الإنسان الضعيف...

إن العاقل إذا قارن بين المطيعين وبين العاصين ودرس نتيجة كل منهما وما ينتظره من عقاب أو ثواب لا بدّ وأن يلتزم جانب الطاعة ويبتعد عن المعصية.. لما في الطاعة من الأمن والراحة ولما في المعصية من العذاب والذل والهوان...

قال تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿ٱلَّـٰتِي﴾: جمع التي: وهي اسم موصول للمؤنث.

﴿يَأۡتِينَ﴾: يفعلن، وأصل الإيتاء: الإعطاء، أو من الإتيان: وهو المجيء، ويكنى به عن الفعل.

﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: اسم لكل فعل قبيح، بل لكل ما اشتد قبحه من المعاصي وهنا يراد به الزنا.

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾: من مسك، والإمساك بالشيء: التعلق به وحفظه.

﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ﴾: التوفي: الاستيفاء وهو القبض، يقال: توفيت مالي واستوفيته: إذا قبضته كاملاً وافياً، ويقصد به هنا الموت.

﴿سَبِيلٗا﴾: السبيل: الطريق.

﴿وَٱلَّذَانِ﴾: تثنية الذي، اسم موصول للمذكر.

﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾: من الأذى: وهو ما يصل من الضرر سواء كان في النفس أو الجسم أو التبعات في الدنيا أو الآخرة.

﴿تَابَا﴾: من التوبة: وهي الرجوع إلى الله عن الذنب.

﴿وَأَصْلَحَا﴾: من الصلاح الذي هو ضد الفساد.

﴿أَعْرِضُوا﴾: يقال: أعرض عنه إذا تولى عنه...

## التفسير

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ هذا بيان حكم الزنا وكيف يثبت، وجزاء الزناة من النساء... فإذا زنت المرأة فلا يثبت ذلك عليها إلاّ إذا أقيمت الشهادة عليها بأربعة رجال يشهدون رؤية العملية كما يرى الميل في المكحلة، فلا تكفي الظنون لرميها بالفاحشة، كما لا يكفي اختلاؤها بالأجنبي، بل حتى لو وجدت معه في لحاف واحد متعرية لا يكفي لثبوت الزنا واتهامها به، بل هذا القذف يعرّض القاذف إلى الجلد، وعلى ذلك إذا أقام الشهود الأربعة الشهادة على وجهها وتمّت عند الحاكم بشكل قانوني وثبت الزنا فهنا.

﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فإذا شهد عليها الشهود الأربعة بالزنا معاينة ورؤية وجب حبسها في البيت بمقتضى ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ فتبقى في بيتها حتى يأتيها الموت ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي فرجاً يخرجهن من الحبس بالبيوت، وبعضهم حمل السبيل على أنه الحدّ الذي شرعه الله فيما بعد من جلد أو رجم بحسب حالها من كونها بكراً أو ثيباً...

وبعضهم حمل السبيل على تغيير الحكم فيرتفع السابق ـ وهو الحبس ـ ولا يلحقها اللاحق لأنه تشريع متجدد فلا يطال ما تقدم عليه أو يشمله...

كما أن بعضهم حمل ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ على المتزوجات المحصنات، ولا دليل على هذا التخصيص.

وأيضاً يفهم من قوله: ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ أنه يجب أن يكون الشهود على الزنا أربعة رجال، وأن يكونوا من المسلمين ومستجمعين لشروط الشهادة من العدالة وغيرها...

وهناك من شطّ في تفسيره فحملها على السحاق، وأن الفاحشة التي تمارسها

النساء مع بعضهن هي هذه الخصلة القبيحة، ويكون حكمها الحبس في البيوت حتى يتوفين أو يجعل الله لهن سبيلاً . . .

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أغلب المفسرين إن لم نقل كلهم إلاّ من شذّ منهم حمل هذه الآية على أن من أتى الفاحشة ـ الزنا ـ من الرجل والمرأة يؤذيان! وكيفية الإيذاء لم تحدد أو تُبين فيترك لولي الأمر تحديدها، فقد يكون كلاماً قاسياً يوجّه إليهما، وقد يكون ضرباً بالنعال وقد يكون نوعاً آخر من أنواع الإيذاء الجسدي أو المعنوي . . .

وهذا الجزاء المهين من أجل رفع الفساد وتحصين المجتمع وزرع بذور العفّة . . .

وهذا الحكم مع ما تقدمه كان تشريعه في ابتداء الدعوة كحلٍّ مؤقت وعلاج سريع بانتظار تقبل المجتمع للأحكام النهائية للحدود كما حدث فيما بعد.

﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ﴾ إذا تاب الزاني والزانية مرتكبا الفاحشة، وليس التوبة التي تعني أن يقول المرء أستغفر الله وأتوب إليه، بل بالإضافة إلى ذلك، أن يظهر منهما عملياً وسلوكياً صحة هذه التوبة، وذلك أن يظهرا بمظهر العفة والاحتشام ويتركا مواضع التهمة وما يوجب سوء الظن، وهكذا . . .

فإذا تابا وأصلحا يُتركا وشأنهما بدون تعرّض لهما بإيذاء فلا يعيّرا بماضٍ ولا يُهانا بما ارتكبا، وهكذا . . .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ علة للأمر بالإعراض، وترك المذمّة، فإن الله تواباً يقبل توبة عباده باستمرار وفي كل وقت ومن كل أحد، رحمة منه لهم، وعطفاً عليهم فاقتدوا يا عباد الله بأفعال الله وتخلّقوا بأخلاقه ولا تؤذوا من أساء واقترف إذا تاب وأقلع.

يبقى أن نقول: إن بعض المفسرين ذهبوا إلى أن هذه الآية واردة في مورد اللواط اعتماداً على تذكير وتثنية ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ فكأن الفاحشة بينهما وليس ثمة إلاّ ـ اللواط ـ هذا الفعل الشنيع . . .

ولكن يمكن حمل ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ على المرأة الزانية والرجل الزاني ولكن من باب التغليب جرى التذكير للمثنى لوجود المذكر . . .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: كل ما يَغمُّ الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية، ويراد به هنا المعاصي والآثام.

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: الجهالة: مصدر جهل، والجهل: هو عدم العلم، ولكن يقصد بها هنا السفاهة.

﴿حَضَرَ﴾: شهد.

﴿أَعْتَدْنَا﴾: هيأنا.

## التفسير

باب الرحمة: من رحمة الله بعباده أنه يعود عليهم بقبول التوبة إذا تابوا ويغفر لهم ذنوبهم إن كانت توبتهم صادقة قد استجمعت شرائط قبولها...

بل إنه سبحانه يدعو عباده إليها ويحثّهم على القيام بها فيقول لهم: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾[١] وما ذلك إلا لحبه لهذا الإنسان وحبه له في إدخاله الجنة. . .

مهما تكن الذنوب كثيرة أو كبيرة في حق الله أو في حق عباده فقد فتح الله لمن ارتكب ذلك باب التوبة وقبلها منه. . . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[٢] فرحمته وعفوه أعظم من ذنوب المذنبين وأوسع وأكبر. . .

وهذه التوبة قد أوجبها سبحانه على نفسه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾.

أخذ سبحانه على نفسه أن يقبل توبة من عمل المعاصي وارتكب الآثام بطغيانِ شهوةٍ وزلةِ قدمٍ وانحرافٍ لم يقوَ على لجم جَماحه. . .

إن الجهالة هنا تعني السفاهة التي ينسى المؤمن خلالها إيمانه وعلمه ومعرفته ويتخلى في تلك اللحظات عن مقدار العقوبة على ما يرتكب. . . إنها ساعةُ غفلةٍ تطغى فيها نفس هذا الإنسان وتثور حتى تقتحم الحواجز المضروبة بينه وبين الحرام فيرتكبه ويقوم به. . .

إنها حالة الضعف التي يعيشها هذا الإنسان فتزلّ به القدم ويتقدم من الحرام ناسياً أمر الله ونهيه مرتكباً ذنباً غفل عن مقدار عقوبته. . .

إن من يرتكب مثل هذه الذنوب ـ أيٍ كانت هذه الذنوب ـ ترك الصلاة أو الحج أو ترك الزكاة أو الصيام. . . ارتكاب المحرم من شرب خمر أو زنا أو غيبة أو نميمة كلها إذا كانت عن زلة قدم أو حالة ضعف سيطرت عليها شهوة عارمة، ثم يعود هذا المذنب بالتوبة عن قريب، أي بعد ارتكاب الذنب، يستتبعه بالتوبة. .

أو عن قريب ـ أي قبل الموت ـ وظهور علاماته في حال القدرة والقوة إذا تاب قَبِل الله توبته. . .

---

(١) التحريم/٨.
(٢) الزمر: ٥٣.

إذاً فالله سبحانه أخذ على نفسه قبول التوبة إذا ارتكب هذا الإنسان الذنوب والمعاصي عن جهالة واستدركها مرتكبها بالتوبة القريبة. . .

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ فهذا وعد منه سبحانه أن يقبل توبة من عمل السوء بجهالة ثم تاب عن قريب. . .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ الله سبحانه يعلم التائب توبة صحيحة مستكملة لشروط قبولها ممن يدّعي ذلك.

وهو الحكيم الذي يعلم ما يصلح هذا الإنسان ويعلم أن هذه التوبة لمصلحة التائب ولمصلحة المجتمع لكي تبقى أبواب الإنقاذ مفتوحة أمام من أراد العودة إلى رحاب الله. . .

ثم إنه سبحانه بيّن موردين لا تُقبل بهما التوبة، ليس لبخل في ساحته حاشاه سبحانه، بل لعدم قابلية الموضوع للتوبة وللقصور في المذنبين أنفسهم عن استحقاقها. . .

الحالة الأولى هي في قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾. هذه حالة من التوبة يرفض الله قبولها لأنها لم تأت بشروطها التي شرطها الله. . . إن هذا المبتلى عاش المنكرات والفواحش طيلة حياته، لم ينقطع عن رذيلة ولم يترك معصية ولم يوفّر باطلاً إلاّ ارتكبه. . إنه بطل كل انحراف ورأس كل ضلال هكذا عاش وعلى هذه الطريقة استمر حتى حضره الموت وتقطعت به الأسباب وانسدت أمامه الأبواب. . . جاءه الموت وهو يعيش تلك الحالات البعيدة عن الله وأدرك أن الموت واقع به، عندها ارتفع صوته بالتوبة. . . لم تكن توبته عن قدرة وفي حال قوّته وإمكان الفعل واللافعل. . . إنها كانت في وقت العجز وعدم القدرة، وفي اللحظات الأخيرة من دار الدنيا. . .

إن من يتوب والحال كذلك لا يقبل الله توبته لأن من شروط التوبة المقبولة، أن تكون صادقة خارجة ممن يقدر على الفعل والترك وليس عند العجز ومعاينة الموت. . .

إن مثل هذه التوبة ـ التي تكون عن عجز في مواجهة المستقبل المحتوم الذي وصل إليه الإنسان فعلاً لا تكون مقبولة عند الله، أو مرضيّة لديه، وهذا شرط شرطه الله لقبول التوبة، فهو سبحانه الذي أنذر مَنْ كانت حالته كذلك بأن لا يقبل توبته، وعليه أن يتوب قبل وصوله إلى تلك الحالة أو الوقوع فيها، وهذا أمر ممكن للإنسان وتحت قدرته واختياره. . .

يبقى أن نشير إلى أن هناك بعض الروايات التي تقول بقبول التوبة ولو في تلك الحالة من حلول الموت «من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه ثم قال النبي ﷺ وإن السنة لكثير. . . إلى أن قال: من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه، ثم قال: إن الساعة لكثير من تاب قبل موته وقد بلغت نفسه هذه ـ وأهوى بيده إلى حلقه تاب الله عليه ـ.

وهذه الرواية وأمثالها أهملها بعض المحققين.

أولاً: لمخالفتها لهذا النص القرآني وما خالف كتاب الله فهو باطل أو هو زخرف. . .

وثانياً: حمّلها لبعض الحكام الأمويين والعباسيين الذين أسرفوا في المعاصي وقتل الناس كما أسرفوا في الانحراف فلم يستبعد وضعها لتبرير ما قاموا به. وأن الجنة لهم أيضاً كما كانت الدنيا. . .

وثالثاً: لمخالفتها للحكمة من حيث أنها تجرّىء العاصي على معصية الله وتسهّل له طرق الانحراف لأن أمامه التوبة يؤديها ويقوم بها في آخر لحظات حياته، وبهذه الطريقة يكون قد ارتكب الحرام ودخل الجنة وتكون القضية سهلة والمعصية لا تؤثر في مستقبل هذا الإنسان طالما أنه يتداركها بالتوبة في لحظاته الأخيرة. . .

وعلى كل حال. . فإن أمكن تأويل مثل هذه الرواية بما يتلاءم وظهور الآية فهو وإلاّ فإنا نذهب أيضاً إلى ما ذهب إليه هذا العَلَم، ولا نُجرّىء الناس على معصية الله والتمرد عليه، ثم نضمن للعصاة في النهاية الجنة بقولهم: «أستغفر

الله» في لحظاتهم الأخيرة في دار الدنيا بعد المجازر والمذابح التي ارتكبوها أو قاموا بها. . . ويعضد هذا آيات أخرى من كتاب الله كما في قصة فرعون. . حيث آمن في لحظاته الأخيرة وهو يغرق فلم ينفعه ذلك، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾[1] وكذلك قوله تعالى حكاية عن قوم: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾[2].

**الحالة الثانية**: التي لا تُقبل بها التوبة ما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾[3] فمن أدركه الموت وهو كافر كان من أهل النار، فموضوع التوبة مفقود لعظيم جرم الكفر، ولعل ذكر الذين يموتون وهم كفار وعدم قبول توبتهم بعد الذين يتوبون عندما يحضرهم الموت ولا تقبل توبتهم، لعل ذلك إشارة إلى أن الفساق المصرّين على المعصية جرمهم كبير كما يكون جرم الكفار كبيراً. . .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يرجع إلى جميع ما تقدَّم ممن لم يقبل الله توبتهم.

وذهب بعضهم أنه يرجع إلى الكفار فحسب لئلا يتساوى الفسّاق من المؤمنين ـ إن بقوا على قيد الإيمان ولم يتوبوا ـ وبين الكفار. . . وهذا هو الأرجح لهذا الوجه. . .

فأولئك أعد الله لهم وهيأ لهم عذاباً مؤلماً.

---

(١) يونس/ ٩٠ ـ ٩١.
(٢) غافر/ ٨٥.
(٣) النساء/ ١٨.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿لَا يَحِلُّ﴾: أصل الحل: هو حلّ العُقدة، ومنه: أستعير حلّ الشيء حِلاً: أي جاز تناوله وأبيح...

﴿تَرِثُوا۟﴾: الميراث: ما يخلفه الميت من تركته مالاً وعقاراً.

﴿كَرْهًا﴾: بفتح الكاف بمعنى الإكراه، وهو حمل الإنسان على ما يكرهه أي القهر وبالضم بمعنى المشقة.

﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: العضل: أصله التضيق، وهنا يراد به التضيق بالمنع من التزويج.

﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾: أعطيتموهن، من الإيتاء: وهو الإعطاء.

﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: الفحش والفاحشة: في الأصل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال وهنا قد يراد بها الزنا.

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾: ظاهرة واضحة.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾: من عاشر معاشرة وهي: المخالطة والصحبة، وتعاشر القوم: إذا تصاحبوا وتخالطوا...

﴿ٱلْمَعْرُوفِ﴾: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حُسنه.

## التفسير

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ ورد في سبب نزول هذه الآية روايات: منها ما روي عن أبي جعفر عليه السلام هو أن يحبس الرجل المرأة عنده لا حاجة له إليها وينتظر موتها حتى يرثها...

وروي أنه كان في الجاهلية في أول الإسلام من قبائل العرب إذا مات حميم الرجل وله امرأة ألقى الرجل ثوبه عليها فورث نكاحها بصداق حميمه، ثم لا هو يتخلى عنها ولا يتزوجها، بل يبقها حتى إذا ماتت ورثها...

وعلى كل حال.. باعتبار أن أسباب النزول في أغلبها لم تثبت صحتها، فلا يهمنا ذلك إلاّ من باب الإيناس والإطلال على ضوء يكشف بعض الحقيقة التي تتناولها الآية فحسب...

إن هذه الآية ترفع عادة جاهلية أو حالة من تلك الحالات السيئة التي كانت تُعامل بها المرأة في ظل تلك الفترة الجاهلية...

كانت المرأة تتحول إما بنفسها إلى ميراث تنتقل بعد وفاة زوجها أو وليها إلى غيره، أو كانت أموالها تنتقل إلى غيرها بالميراث كرهاً وقهراً عنها. فأبطل الإسلام ذلك ومنع منه وحرّمه على كل أحد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ لا يحلّ لكم في دين الله وشرعه أن ترثوا النساء بأنفسهم، أو ترثوا أموالهن بطريقة من الطرق الباطلة كرهاً عنهن وغصباً لأموالهن...

كما أنه سبحانه نهى الأزواج أن يمارسوا بعض الضغوطات على أزواجهن من

أجل أن يتنازلن عن بعض مهورهن.. وهذه حالة تعيش حتى اليوم في أوساط غير المتدينين، فإنهم إذا كرهوا أزواجهن خافوا إن طلقوهن أن يأخذن مهورهن فتعمد الأزواج إلى ممارسة أفعال وأعمال فيها من الشدة عليهن الشيء الكثير مما يضطرهن إلى التخلي عن مهورهن مقابل طلاقهن...

إن الزوج إذا ضيّق على زوجته ومارس معها الشدّة وأساء المعاملة ولم يراعي أصول التعامل الزوجي من أجل أن تتخلى زوجته عن مهرها أو بعضه مقابل طلاقها منه يكون هذا العمل منه محرّماً، ويدخل تحت كبرى هذه الآية التي تنهى عن مثل هذا الفعل، ولا يحلّ للزوج أن يسقط بعض مهر المرأة بفعله المحرّم...

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ لا تعاملوهن بشدّة وبغير ما يريد الله من أجل أن تسترجعوا بعض ما دفعتم إليهن من مهور...

نعم يستثنى من ذلك إذا ما ارتكبت الزوجة فاحشة... على اختلاف في تفسير الفاحشة.. هل هي كل معصية أم خصوص الزنا؟ وإن كان المعنى الأخير هو الأقرب من لفظة الفاحشة وخصوصاً أنها القدر المتيقن لجواز أكل بعض المهر فيبقى غيره بدون مجوّز على وجه اليقين...

فهذه الفاحشة إذا كانت ظاهرة بيّنة «وكأن هذا القيد مبيّنة» من أجل أنها تشوّه سمعة الرجل وتحطّ من شأنه وتؤثر على وضعه الاجتماعي، فإنه يجوز له أن يمارس عليها بعض الأمور التي تكرهها مما يجعلها تطلب الطلاق ولو بإسقاط مهرها أو جزء منه، وبهذه الطريقة لا نجمع على الزوج خسارة المال - مهرها الذي دفعه لها - وخسارة السمعة التي شوهتها هذه الزوجة المرتكبة للفاحشة خصوصاً إذا كانت الفاحشة هي الزنا...

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. وهذا أمر للأزواج أن يكونوا مع أزواجهن في مستوى المسؤولية، فليكرم الزوج زوجه وليحترم شعورها ويقدم إليها ما تحتاج ويقوم بكل ما تتطلبه الزوجية من العشرة الحسنة والمعاملة الرقيقة، إنه المعروف الذي ينعكس في نيته وفي سلوكه وعمله وحركة حياته...

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. وهـذه حالة قد يمر بها بعض الرجال... قد يحصل للرجل كره لزوجته فماذا يعمل؟!...

هل يفرغ كرهه في سباب أو شتائم أو معاملة سيئة قبيحة أو يمنعها من حقها؟! أو يبادر إلى طلاقها ويرى أنه الحل الناجع؟!.. إن القضية يجب أن لا تخضع لميزان الكراهية التي تعيش في عمق نفس الزوج، ولا ينبغي أن تكون تلك الكراهية هي الموجهة لهذا الزوج والمسيطرة عليه التي تجعله يتخذ بعض هذه الأفعال القبيحة الشنيعة...

إن الله الذي خلق النفوس والذي يعلم ما ينفع مما يضر وما هو خير لهذا الرجل مما هو شر، هو سبحانه يريد من هذا الرجل أن يردّ الأمر إليه ويصبر ولا ينفعل ولا يتحرك بمقتضى كراهيته...

إنك ربما كرهت أمراً ويكون الخير فيه، بل ربما كان فيه الخير الكثير وهذا أمر واقع ومجرّب وحوادث الدهر كثيرة في هذا المجال...

كرهت زوجتك فربما رزقك الله منها البنين والبنات... كرهتها وربما لو استبدلتها لجاءتك من هي أشدّ إساءة لك منها... وهكذا...

إن كرهت زوجتك فاصبر عليها لعل ذلك البغض يخفّ إن لم نقل قد يتحول حباً... هذه إشارة إلى عدم السير بسرعة وراء بغضك لزوجك، بل تأنّى واصبر وعسى أن يكون في ذلك الخير الكثير...

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿اسْتِبْدَالَ﴾: من بدّل، والإبدال والتبديل والتبدّل والاستبدال: جعل شيء مكان شيء آخر، وقد يقال للتغيير مطلقاً وإن لم يأت ببدله.

﴿آتَيْتُمْ﴾: أعطيتم.

﴿قِنطَارًا﴾: القنطار: المال الكثير وبعضهم حدّه بحد معين على اختلافٍ في ذلك.

﴿بُهْتَانًا﴾: البهتان: مأخوذ من البهت، وأصله التحيّر وذلك إذا قذفت إنساناً بأمرٍ قبيح هو بريء منه فإنه يتحير...

﴿الْإِثْمِ﴾: المعصية، والذنب.

﴿مُّبِينًا﴾: المبين: الواضح، المكشوف.

﴿أَفْضَىٰ﴾: من فضا، والفضاء: هو المكان الواسع، والإفضاء إلى الشيء: الوصول إليه بالملابسة له، وهنا كناية عن الجماع.

﴿مِّيثَٰقًا﴾: العهد المؤكد.

﴿غَلِيظًا﴾: الغلظة: ضد الرقة، وأصله أن يستعمل في الأجسام لكن قد يستعار للمعاني.

## التفسير

إذا ارتكبت المرأة فاحشة جاز لزوجها أن يضيّق عليها ويشدد ضغوطه عليها لتسقط مهرها أو بعضه فيطلقها ويخرجها من عصمته وهذا الأمر «إسقاط المهر» له ما يبرره من حيث ـ كما قلنا لا نريد أن نجمع على الزوج خسارة الكرامة وخسارة المال ـ وأمّا إذا أراد الزوج طلاق زوجته وبدون سبب فهل يجوز للزوج أن يمارس الضغوط على زوجته من أجل أن تُسقط مهرها أو بعضه؟... إن الآية الكريمة تنهي هذا الزوج عن أخذ شيء من المهر ـ مهر زوجته ـ إذا أراد طلاقها مهما كان المهر الذي دفعه لها كبيراً حتى لو كان قنطاراً.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ إذا أردتم أيها المؤمنون طلاق امرأة والزواج بأخرى.

﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ إذا أردتم طلاق الزوجة والزواج بأخرى وقد دفعتم لها ـ للمطلّقة ـ مالاً كثيراً مهراً لها فلا تأخذوا منه شيئاً قليلاً كان أو كثيراً.

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ استفهام إنكاري على فعلهم، وإنه كيف تأخذونه ظلماً وعدواناً وبدون مبرّر مشروع؟!. إنّ أخذه يكون بدون حقّ حيث تكرهون المرأة فتوقعونها في الحرج من أجل أن تتنازل لكم عن مهرها فتأخذونه حراماً مكشوفاً واضحاً يعني حراماً بدون شك أو شبهة وقيل إن البهتان هنا بأن ينسب إلى المرأة أنها أتت بفاحشة ليأخذ منها صداقها فكان الاستنكار لهذا الأخذ بهذه الطريقة الساقطة...

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهذا استفهام إنكاري على أخذ الزوج مهر الزوجة بهذه الطريقة واسترداده منها بهذا الوجه، كيف يأخذه الزوج والحال أنه كان بينه وبينها زوجية «استمتاع وكان تبادل لذة وانشراح» فهذه يجب أن تمنع الزوج من استرداد ما أعطاها ويتذكر الفضل بينهما وساعات الأنس والوحدة. . .

وينبغي أن يعلم أن الإفضاء هنا يحمل على الجماع كما عليه المفسرون لأن الزوجة المدخول بها هي التي تستحق المهر كله إذا أراد زوجها أن يطلّقها وكان هو الكاره لها ـ كما في هذه الصورة ـ. . .

أما إذا كانت هي الكارهة له فقد أجاز الشرع للزوج أن لا يطلّقها حتى تفتدي نفسها بمهرها أو بما يرضي الزوج. . .

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ يعني لا يصح للزوج أن يأخذ شيئاً من مهر زوجته إذا أراد طلاقها واستبدالها بأخرى، لأن الله أخذ على الأزواج ميثاقاً غليظاً أي عهداً وثيقاً مؤكداً. . .

وفسّر الميثاق الغليظ بكون الزواج على كتاب الله وسنة نبيه الحاكمان على الزوج بوجوب دفع المهر إلى الزوجة وعدم المساس به لو أراد طلاقها. . .

يبقى أن نشير إلى أن قيد «واستبدلتم» إنما قد يكون لطرد وهم قد يسبق إلى ذهن هذا الزوج وهو أنه يجوز له إذا أراد الاستبدال أن يأخذ مهر هذه ويضعه مهراً لتلك الجديدة المستبدلة فنص الله نهياً لأجل ذلك. . .

كما أنه ينبغي أن نذكر ما روي عن عمر بن الخطاب كما ينقل أهل السير وأصحاب التفاسير، وأنقل ما ذكره الزمخشري بنصه حيث[1] يقول: وعن عمر (رضي الله عنه) أنه قام خطيباً، فقال: أيها الناس لا تغالوا بصداق النساء فلو

---

(١) الكشاف خلال تفسيره لهذه الآية المباركة التي نحن بصدد تفسيرها.

كانت مكرُمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ، ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثني عشر أوقية. . .

فقامت إليه امرأة فقالت له: يا أمير المؤمنين لِم تمنعنا حقاً جعله الله لنا؟ والله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾.

فقال عمر: كل أحد أعلم من عمر.

ثم قال لأصحابه: «تسمعونني أقول مثل هذا القول فلا تنكرونه عليّ حتى تردّ عليّ امرأة ليست من أعلم النساء» انتهى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿سَلَفَ﴾: مضى.

﴿فَٰحِشَةً﴾: الفاحشة: ما عظم قبحه.

﴿مَقْتًا﴾: بغضاً، والمقت: البغض الشديد.

﴿سَآءَ﴾: بئس.

﴿سَبِيلًا﴾: طريقاً.

## التفسير

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هذا نهي تحريم يمنع الله بموجبه أن يتزوج الولد امرأة أبيه - غير أمه -. وقد كانت هذه العادة من العادات الجاهلية التي ربما تحدث عملياً وإن كانت قطعاً جائزة عندهم بحسب العادة والعرف...

ولذا يستثني الله ما تقدم من هذا الزواج فيقول: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فهذا قد

مرّ وانقضى وذهب بآثاره فيجب أن لا يعاد والإسلام يجبُ ما قبله ويجب على المسلمين بناء حياتهم الجديدة على هذا الأساس التشريعي من حرمة الزواج بزوجة الأب. . .

ولعظيم قبح مثل هذا الزواج يصفه الله سبحانه بقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ من المعاصي الكبيرة لأنه كالزواج بالأم. . .

﴿وَمَقْتًا﴾ مبغوضاً كأشد ما يكون البغض ومَن كان من الناس محترماً لم يكن ليقدم عليه أو يتعاطاه لما فيه من الإساءة إلى الأب ومبغوضية للأذواق الرفيعة النظيفة.

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ ساء طريقاً يسلكه من يريد الزواج بامرأة أبيه ويريد أن يبني أسرة منها وينجب أطفالاً سيكونون عمدة الحياة في المستقبل لأنه مع النهي والتحريم تصبح الذرية غير نظيفة ولا طاهرة بل يدخل هذا في السفاح المحرّم.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾: جمع ربيبة، والربيب: ولد المرأة من آخر، وربيبة الزوج: بنت زوجته من غيره سميت بذلك لأنها تربت عنده.

﴿حُجُورِكُم﴾: الحجور جمع الحجر بالفتح والكسر، يقال: تنشأ في حجره: أي في حفظه وستره، والمقصود هنا بالحجور هي أنهنّ تحت كنف هذا الرجل.

﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: فلا إثم.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ﴾: جمع حليلة بمعنى الزوجة سميت بذلك لأنها تحل لزوجها أو لحلولها مع الزوج.

﴿أَصْلَٰبِكُمْ﴾: الصُلْب: هو الشديد، وباعتبار الصلب والشدة سمي الظهر صُلباً.

﴿سَلَفَ﴾: مضى.

## التفسير

هذه الآية الكريمة جامعة لما حرم على الرجال أن يتزوجوا من النساء فهي تعدّد مَنْ يحرم الزواج منهنّ سواء كانت العلة نسباً أم سبباً وسواء كان السبب مصاهرة أم رضاعاً وابتدأت الآية بذكر الأمهات لقربهنّ، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ وهذا نص صريح في حرمة الزواج بالأم. . .

والأم تشمل كل أنثى ولدتك ولو بوسائط. سواء كانت من قبل الأم المباشرة أو الأب، فأم الأم وجدّة الأم وما علا كلهن يحرم نكاحهن على الولد، وكذلك الأم للأب وهي الجدّة وأمها وما علا يحرم نكاحهن. . .

والآية لو تليت على أهل اللسان لفهمها العربي بسليقته بدون تكلف، فإن المتبادر منها حرمة نكاح الأم، وهذا واضح ظاهر ولكن بعض المفسرين نسبها إلى الإجمال وأدعى أن هذا المعنى ـ من التحريم ـ لا يُفهم منها. . .

وأقول: إن هذا المفسر يشوه اللغة ويفسد على أهل اللغة لغتهم ويجردهم من فهمها، وبالتالي يسيء إلى القرآن وإلى الدين والإسلام، وقد كنت أقرأ كلامه والغصة في حلقي ولولا آداب المعرفة وحقها أن يصل القارىء إلى مراد الكاتب حتى النهاية لما أضعتُ وقتي في هذا الهذيان السخيف والهراء الباطل، ويكفي لكل عربي، بل لكل أعجمي يُحسن مبادىء المعرفة باللغة العربية أن يقرأ هذا التحريم ويفهمه بيسر وسهولة. . .

إنها المصيبة بمن يريدون أن يبرزوا قوة عارضتهم في الجدال والمماحكة الحوارية ولا يرتدُّ ذلك عليهم إلاّ سُبَّةً وصغاراً. . .

٢ ـ ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ ومحرم عليك كل بنت لك وهي كل أنثى ترجع إليك بنسب الولادة مباشرة أو بالواسطة سواء كانت من قبل أبناء الإناث أم الذكور.

٣ ـ ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ يحرم كل شقيقة لك لأمك كانت أم لأبيك أم لهما وهي كل امرأة ولدها شخص ولدك بلا واسطة.

٤ - ﴿وَعَمَّـٰتُكُمْ﴾ وتحرم عليك عماتك وهن أخوات آبائكم وأخوات أجدادكم وهكذا...

٥ - ﴿وَخَـٰلَـٰتُكُمْ﴾ وتحرم عليك خالاتك وهن أخوات أمهاتكم جرياً على ما سبق وأخوات جداتكم لهنّ، وهكذا.

٦ - ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾ وتحرم بنات الأخ وكل ما تفرع عن بنات الأخ من البنات.

٧ - ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ وتحرم بنات الأخت وكل ما تفرع عنها من بنات.

وهذه المحرمات من النساء محرمات لا يطرأ عليهن حلٌ بحال من الأحوال، إنها حرمة مؤبدة دائمة إلى يوم الدين وهذه المحرمات يطلق عليهن المحرمات النسبية وهنّ التي تجمعهن معك رحم واحدة ونسب واحد...

- أما ما يحرم بالرضاع:

١ - ﴿وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وظاهر الكلام أن مجرد أن يتحقق الإرضاع ولو مرة واحدة يثبت التحريم، ولكن ما ورد من السنّة الشريفة قيّد هذا الإطلاق وقد تبنّت مدرسة أهل البيت عليهم السلام وعليه جملة من مذاهب العامة على خلاف في بعض الشروط - إنه لكي تنتشر الحرمة بالرضاع يجب أن تتوفر عدة شروط...

أ - كون اللبن من امرأة موطوءة بعقد أو عن شبهة يرتضعه الطفل يوماً وليلة.

ب - أو ما أنبت اللحم وشدَّ العظم من الرضاع.

ج - أو يرتضع الطفل خمس عشرة رضعة وبعضهم اكتفى بعشر رضعات متوالية لم يفصل بينهما برضاع آخر من امرأة أخرى.

د - أن يكون الطفل المرتضع ضمن الحولين.

هـ - اتحاد الفحل (صاحب الحليب).

فإذا تمت هذه الشروط أصبحت المرضعة أمّاً وذو اللبن أباً له وأولادهما أخوة له وهكذا تنتشر الحرمة.

٢ ـ ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ فكل من رضع معك من النساء كانت أختك من الرضاع إذا تمت شروط الرضاع وعليه يحرم نكاحها على أخيها الرضاعي لقول النبي ﷺ «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب فكل عنوان يحصل بسبب الرضاع وهو محرّم في النسب يكون محرّماً. ثم يذكر سبحانه المحرمات بالسبب ـ فيتناول ما يحرم بالمصاهرة وهنّ:

١ ـ ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ أم زوجتك يحرم عليك نكاحها سواء دخلت بالزوجة أم لم تدخل لأن مجرد العقد على البنت يحرّم نكاح أمها عليك وكذلك جداتها من الطرفين ـ من طرف الأم والأب ـ وإن علوا...

٢ ـ ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ بنات الزوجة من غير زوجها إذا عقد الرجل على الأم ودخل بها حرّمت البنت (الربيبة) وإذا لم يدخل بالأم بل كان في البيّن مجرد العقد ثم طلقها قبل الدخول بها حلّت البنت، فإذا أراد التزويج منها عقد عليها وتزوجها... أما لو عقد على البنت فمجرد العقد ـ وإن لم يكن ثمة دخول ـ حرّمت الأم مؤبداً...

وفي تهذيب الأحكام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إذا تزوج الرجل المرأة حرّمت عليه ابنتها إذا دخل بالأم، فإذا لم يدخل بالأم فلا بأس أن يتزوج بالإبنة، وإذا تزوج الإبنة فدخل بها أو لم يدخل بها فقد حرّمت عليه الأم...

و﴿فِى حُجُورِكُم﴾ ليس قيداً احترازياً ـ عن التي لم تكن في حجره ـ بل هذا القيد جرى مجرى الغالب ولما فيه من تقوية العلة والرمز، إلى أنها بحكم الولد.

ولعل في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ إشارة إلى ذلك.. حيث علّق رفع الجناح على مجرد عدم الدخول، فيعلم أنه السبب التام.

ودخول بنات الربيبة والربيب وإن نزلن في هذا الحكم ـ وهو الحُرمة ـ يعلم من النصوص والإجماع.

٣ ـ ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ هذا ثالث المحرمات بالمصاهرة وهن زوجات الأولاد، فإنه يحرم على أب الولد أن يتزوج امرأة ابنه.

وتعبير ﴿مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ لرفض ما كان متعارفاً من حالات التبني، وإن من تبنى ولداً أخذ حكمه، فهنا يحصر الحرمة في الولد الصلبي ـ فيحرم نكاح امرأته ـ ولا يشمل امرأة الولد المتبني....

٤ ـ ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ وحرّم عليكم الجمع بين الأختين.

والتحريم هنا ليس تحريم عين، فلو فارق إحداهما بفسخ أو طلاق أو موت حلّت الأخرى، ولذلك قيّد التحريم بالجمع.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ أي ما مضى من الزواج الذي يجمع بين الأختين في أيام الجاهلية وإن كان حراماً فقد عفى الله عنه، ولن يحاسب عليه لأن البيان لم يصل إلى المكلفين فهم في عذر مما مضى، ولكن عليهم أن يعملوا بهذا التشريع الجديد كما يَنصُّ. وعليهم أن يتركوا الجمع بين الأختين إن كان في البيْن جمع بينهما ـ من أحد ـ ولا يستمروا عليها لأن الاستمرار حرام...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ فمن شأن الله المغفرة بعد المغفرة لعباده، وهو رحيم بهم يريد بهم الصلاح، ويريد لهم الكرامة والاحترام.. يشرّع لهم ما فيه مصلحتهم وخيرهم...

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿ٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: المتزوجات، والإحصان في اللغة معناه: المنع، وسميت المتزوجة محصنة لأن زوجها أحصنها ومنعها عن الفجور.

﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾: بفتح الألف وتسكين الياء، وملكت أيمانكم: أي من إمائكم المملوكات لكم وهذا التعبير أبلغ من قولهم أنه في يدي...

﴿تَبْتَغُوا۟﴾: تطلبوا.

﴿مُّحْصِنِينَ﴾: هنا الإحصان بمعنى العفة.

﴿مُسَٰفِحِينَ﴾: من السفاح: وهو الصبّ ويقصد به هنا الزنا لأن الزاني لا يحصل له بفعله إلاّ صب المني.

﴿ٱسْتَمْتَعْتُم﴾: بمعنى تمتّع، والاسم المتعة، والاستمتاع في اللغة هو: الانتفاع.

﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾: أعطوهن.

﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مهورهنّ.

﴿فَرِيضَةً﴾: واجبة.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: لا إثم عليكم.

## التفسير

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ مرفوع عطفاً على قوله: ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي وحُرِمت المحصنات، وهنا يراد بهن المتزوجات، فكل امرأة متزوجة ولها بعل حرّم نكاحها وعليه فكل امرأة من أي دين إذا كانت متزوجة طبق دينها، وبمقتضاه حُرّم على غير زوجها أن يطأها أو يتزوج بها، فإن لكل قوم نكاح كما أنها تشمل المرأة المتزوجة من العبد، وأيضاً تشمل ذات العدّة الرجعية لأنها في حكم الزوجة ما دامت فيها، ومن ثَمّ وجبت نفقتها وحرم عليه تزويج أختها...

يبقى أن نذكر فائدة وهي: أن الإحصان في القرآن جاء على أربعة معانٍ:

١ - بمعنى: المرأة المزوجة كما في آيتنا المباركة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

٢ - بمعنى: العفة كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي أعفته.

٣ - بمعنى الحرية: كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾.

٤ - بمعنى الإسلام: كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ هذا استثناء من اللاتي أُحصنّ، فإن الأمة إذا كانت متزوجة من عبد يحق لسيدها أن يرفع هذا الزواج ثم تعتدّ عدّتها ويدخل بها سيدها...

كما أنها لو كانت مزوّجة ثم بيعت يحق لمن اشتراها أن يطأها بعد أن تضع حملها، أو تعتدّ بعد انتهاء عدتها، له أن يطأها.

وفي (الكافي) كما في صحيح محمد بن مسلم: سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1] قال عليه السلام: هو أن يأمر الرجل عبده وتحته أمته، فيقول له: «اعتزل امرأتك ولا تقربها ثم يحبسها عنه حتى تحيض ثم يمسّها..».

وكذلك يشمل اللاتي سُبين في معركة وقعت بين المسلمين وبين الكفّار، فإن وقوع النساء المتزوجات أسيرات في أيدي المسلمين يبطل نكاحهن من أزواجهن القدامى فيعتدّن بعد الأسر ثم يحق للمسلمين وطأهن وهذه صغرى من كبرى حدّدتها الآية الكريمة...

﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ مصدر مؤكد: أي كتب الله عليكم تحريم المذكورات كتاباً، بمعنى: أن هذا فرض فرضه الله وأوجبه عليكم.

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ بعد أن ذكر سبحانه محرمات النكاح من النساء وعدّدهنّ... أشار إلى حِلّية ما عدا مَنْ تقدّم منهن، وأن للرجال إذا طلبوا النساء فليكن ذلك لإحصان أنفسهم أو لأنفس النساء بالحلال، وذلك بمهر يجري عليه العقد ويكون الزواج مشروعاً ولا ينكح أحد امرأة بالزنا أو الحرام...

يبقى أن نقول أن السنّة الشريفة أخرجت من هذا الحلّ ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾. بعض الصور كما هو الحال في حرمة زواج المرأة على عمتها أو على خالتها بغير إذنها، ففي (الكافي) عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:

لا تزوّج ابنة الأخ ولا ابنة الأخت على العمّة ولا على الخالة إلا بإذنهما وتزوج العمّة والخالة على ابنة الأخ وابنة الأخت بغير إذنهما...

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾. حمل بعض الناس هذه الآية

---

(١) النساء/ الآية ٢٤.

على الزواج الدائم، وأن من تلذذ بجماع أو تقبيل بعد العقد على النساء فليدفع لهن أجرة مفروضة عليه من الله...

واعترض على هذا القول بأمور:

١ - إن ﴿اسْتَمْتَعْتُم﴾ بمعنى تمتعتم، والاسم المتعة وهي اسم لزواج المتعة - المنقطع -.

٢ - إنه سبحانه عبّر بالأجرة، وهذا خلاف ما تعارف عليه من المهر في العقد الدائم وهو يدلّ على أن الأجرة لعقد يختلف عن العقد الدائم...

٣ - إن قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ فإذا لم يستمتع الرجل بالمرأة في العقد الدائم هل يعطي للمرأة شيئاً إذا أراد طلاقها أم لا؟

مقتضى الآية أنه لا يجب عليه أن يدفع شيئاً لأن الأجرة مرهونة بالاستمتاع فطالما ليس هناك استمتاع فلا أجرة، وهذا لا يقول به أحد، فإن من عقد على امرأة وأراد طلاقها حتى لو لم يرها يجب عليه أن يدفع لها نصف المهر لأن طلاقها وقع بعد العقد وقبل الدخول...

٤ - إن جماعة من الصحابة كابن عباس وابن جبير وأُبّي بن كعب وابن مسعود وغيرهم، كانوا يقرأون الآية ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ - إلى أجلٍ مسمى - فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾...

وذلك صريح في إرادة المتعة.

٥ - إن ما ورد عن أهل البيت بشكل قطعي لا يقبل الشك - وأهل البيت أدرى بالذي فيه - إنّ هذه الآية وردت في متعة النساء.

والمتعة أن يعقد الرجل على امرأة خليّةً كما يعقد عليها بالعقد الدائم، إلاّ أنه يذكر المدة للنكاح والمهر، ولا يكون بينهما توارث ولا تحتاج إلى طلاق بعد انتهاء المدة المعيّنة ولا يجب على الزوج أن ينفق عليها هذه المدة...

قال الرازي في تفسيره: اتفقوا على أنها كانت مباحة في ابتداء الإسلام... واختلفوا في أنها هل نسخت أم لا؟

فذهب السواد الأعظم من الأمة إلى أنها صارت منسوخة.

وقال السواد منهم: أنها بقيت مباحة كما كانت، وهذا القول مروي عن ابن عباس وعمران بن الحصين. . .

والخلاصة التي أريد أن أخرج بها هي: أن كلام أهل السنة مضطرب في بقائها على الحلّية ولكن الجمع بين رواياتهم يخرج منها الحكم العدل ببقاء حلّيتها وأنها شرعة دائمة لم تحرّم أبداً وقد بينا ذلك في كتابنا (شبهات حول الشيعة) كما تعرّض لهذه المسألة علماؤنا وأثبتوا من كتب المخالفين مشروعية هذا النكاح واستمرارية حلّيته بدون تحريم لاحق له. .

وأما على مذهب أهل البيت عليهم السلام فقد قام الإجماع واتفقت الكلمة على مشروعية المتعة واستمرارية هذه المشروعية إلى يوم الدين.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ لا إثم عليكم ولا حرام إذا توافقتم بعد إجراء العقد على الأجرة المعينة أن تُسقطوا بعضها أو كلها. . لأن ذلك إليكما وأنتما تملكان حق ذلك وكونه فريضة ـ أجرة ـ أو مهراً لا يمنع من إسقاطه ولا ينبغي أن يتوهم ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[1].

ويمكن أن يراد بقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا إثم عليكم في الشروط التي تعقب العقد إذا كانت مشروعة كما لو توافقا على تحديد المدة بمهر معيّن جديد فإنهما يجددان العقد ويستمران في الزوجية ولا تحتاج المرأة إلى عِدّة حتى يعود فيعقد عليها لأنها زوجته وفي عدّتها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ إن الله كان ولا يزال وسيبقى سبحانه عليماً بما يصلح العباد وينفعهم فهو يشرّع لهم المتعة لرفع العنت عنهم أو لمنع الزنا والفجور أو لتحصين النفوس من الرذيلة والانحراف، وهو الحكيم الذي يضع الأمور مواضعها ويكون فيها الصلاح والنجاح وراحة هذا الإنسان في الدنيا وسعادته في الآخرة. . .

---

(١) النساء/ الآية ٤.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يَسْتَطِعْ﴾: يقدر.

﴿طَوْلًا﴾: الطول: بفتح الطاء وتسكين الواو السعة والغنى وأصله الفضل والزيادة.

﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾: الحرائر.

﴿فَتَيَاتِكُمُ﴾: إمائكم والعرب تقول للأمة فتاة وللعبد فتى.

﴿بِإِذْنِ﴾: الإذن في الشيء: إعلام بإجازته والرخصة فيه.

﴿وَآتُوهُنَّ﴾: أُعطوهن.

﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مهورهنّ.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: المعروف، هنا يقصد به اليسر والسهولة.

﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: زانيات، من السفاح الذي أصله صب الماء.

﴿مُتَّخِذَٰتِ﴾: الإتخاذ: افتعال يجري مجرى الجعل.

﴿أَخْدَانٍ﴾: جمع خِدْن: وهو الصديق للمرأة يزني بها سراً. والخدين: الصديق والخليل يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع.

﴿أُحْصِنَّ﴾: تزوجن، والإحصان: هنا يقصد به الزواج.

﴿بِفَٰحِشَةٍ﴾: أصل الفاحشة: الكبيرة الشديدة القبح - وهنا يراد بها الزنا.

﴿خَشِيَ﴾: خاف.

﴿ٱلْعَنَتَ﴾: الجهد والمشقة.

## التفسير

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ من لم يقدر منكم لعدم غناه وقدرته على أن يتزوج الحرائر المؤمنات فعليه أن يتزوج الإماء من المؤمنات...

فهذا بدل اضطراري حين العجز وعدم القدرة...

إن الحر كفوء الحرة من جميع الجهات إذا كانت مؤمنة، ولكن هذا الرجل قد يكون قليل المال لا يقدر على مهر من يريد نكاحها أو لا يقدر على نفقتها وإعالتها، فهنا أباح الإسلام له أن يتزوج أمةً مؤمنة، وبذلك يقضي حاجته ويبني بيتاً بحدوده الأدنى باعتبار أنها مملوكة بحكم ظروفها وهو يعلم بذلك وقد أقدم على الزواج منها وفي ذلك رفع لشأنها وشدّ لأزرها وبيان أنها مؤهلة لتكون سيدة محترمة لو قدّرت لها الظروف أن تخرج من الحالة التي هي فيها..

وباعتبار أن مرتبتها أقل من مرتبة الحرة بحكم واقعها! فقد طيّب الله خاطر هذا الزوج الذي يقدم على مثل هذا الزواج بقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ فيه بيان أن التفاضل بالإيمان وبما يحمل الإنسان من عقيدة، فربَّ أمَة هي خير من حرّة فلا يستنكف من الزواج منها طالما أنها مؤمنة ملتزمة ولا عبرة بالأنساب والأحساب والألوان فإن تلك كلها عوارض، والإنسان أخ الإنسان والناس كلهم لآدم وإليه يرجعون فلا يتفاضلون إلاّ بهذا الإيمان.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ فتزوجوهن بموافقة أسيادهن المالكين لهنّ، ومن هنا يكون كل زواج من الأمة بغير إذن مالكها حرام.

نسب الأماء إلى مواليهن وسمّاهم أهلهنّ لبيان أنهنّ من أفراد الأهل تطيُّباً لخواطرهن ولرفع الحزازة التي يمكن أن يشعر بها الرجل من زواجه بهن...

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ ادفعوا مهورهنّ التي تراضيتم بها معهنّ بدون غبن أو ظلم أو مطل بل بطيب نفس وسهولة ويسر ولا تقولوا إنهنّ إماء... ثم يبدو أن الزنا كان فاشياً بين الإماء تارة ظاهراً وأخرى سراً، فلذا اشترط أن يكنّ ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ عفيفات غير مجاهرات بالزنا.

﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ وليس لهن أصدقاء يزنون بهنّ في السر - وهم أخلّاء السّر لهذه الفعلة الشنيعة...

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾ هذا بيان ما ينال الأمة - العبدة - من العقوبة فيما إذا تزوّجت - أحصنت - هذه الأمة - ثم ارتكبت الفاحشة - الزنا - فباعتبار صفتها - كونها أمة - فقد أوجب الله عليها نصف الحدّ التي تناله المرأة الحُرّة المزوجة إذا زنت، وهذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

طبعاً التنصيف من جهة الجلد باعتبار أن الزانية إذا كانت حرة فعليها مائة

جلدة فينتصف هذا العدد للإماء، أما الرجم فلا يمكن تنصيفه ـ فلا يقع عليها ـ ولأنهن أموال لمواليهنّ فلا يجوز الإضرار بهم بذنب غيرهم، وهن الإماء الزانيات إذا رجمن، ولذا لا رجم على الأمة إذا زنت...

في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا[1] زنى العبد والأمة وهما محصنان فليس عليهما الرجم إنما عليهما الضرب خمسين ـ نصف الحد...

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي إباحة الزواج من الإماء، إنما هو لمن خاف الوقوع في المشقة الشديدة والعسر الأكيد لجهة أنه لا يتحمّل العزوبة وضبط النفس إلا بصعوبة..

وبعضهم فسّر ﴿ٱلْعَنَتَ﴾ بالزنا أي ذلك لمن خشي الزنا وبعضهم فسره بمطلق الإثم...

﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وصبركم عن نكاح الإماء خير لكم، ووجه الخيرية لجهة أنها أحطّ رتبة من الحرائر، ولذلك لا يرجع إليهن عند التمكن من زواج الحرائر، ومن جهة أنها مملوكة يمكن أن تخرج عن ملكية مالكها بالبيع إلى غيره، فيبطل النكاح ويذهب المهر هدراً، وغيرها من الوجوه الأخرى وليس منه كون الولد يرجع رقاً لأن الولد يتبع أشرف الأبوين والحر أشرف فلو تزوج من أمة، جاء ولد الحر حراً...

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الله غفور لمن يخالف هذه التعاليم الإرشادية ويتجاوزها ثم يتوب. ورحيمٌ بهم من حيث يرشدهم إلى ما يصلحهم ويهديهم إلى ما ينفعهم ويفيدهم..

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحدود، باب ١.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿لِيُبَيِّنَ﴾: ليكشف ويُظهر.

﴿سُنَنَ﴾: جمع سُنّة: وهي الطريقة.

﴿يَتُوبَ﴾: من التوبة: وهي الرجوع.

﴿يَتَّبِعُونَ﴾: يقتفون أثرهم.

﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: أصل الشهوة: نزوع النفس إلى ما تريده، وهنا يراد بها ميل النفس إلى ما ترغب به النفس من الباطل.

﴿تَمِيلُوا۟﴾: الميل: العدول عن الوسط إلى أحد الجانبين ويستعمل في الجور.

﴿يُخَفِّفَ﴾: الخفيف بإزاء الثقيل، وهنا يراد بالتخفيف: التسهيل والتيسير.

﴿وَخُلِقَ﴾: الخلق: أصله التقدير المستقيم، وهنا يراد به إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء.

﴿ضَعِيفًا﴾: الضعف: خلاف القوة وقد يكون في البدن وفي النفس والحال.

## التفسير

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بيّن سبحانه فيما تقدم الحلال والحرام في النكاح وفصّل ذلك بحيث انكشفت الرؤية أمام الناس وتوضحت الحقيقة لأصحاب العقول السليمة.

إنه سبحانه يريد أن يبيّن ويوضّح ذلك من أجل مصالحنا ومنافعنا وما فيه خيرنا وسعادتنا لأن الوصول إلى الحقيقة وبالتالي إلى السعادة مرهون بالطريق الموصل إليها، وسعادة هذا الإنسان ونظم أمره والوصول به إلى مراقي الكمال إنما يكون بوضوح الأحكام أمامه ووصولها إليه حتى يقوم بالواجب منها ويترك الحرام وبذلك يصل إلى مبتغاه ويحقق مناه...

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يرشدكم إلى الطرق الخيّرة الهادية التي وضعها الله للذين من قبلكم من الأمم فاهتدوا بها واسترشدوا بأحكامها وفازوا برضى الله من خلال قيامهم بها...

إن هذه السنن الماضية في الأمم الخالية وضعها الله من أجل صلاحهم وشرّعها من أجل فلاحهم، وكذلك أنتم شرّع لكم هذا الإسلام وبيّن لكم هذه الأحكام لصلاحكم وفلاحكم.. وينبغي أن نشير إلى أن مقتضى هذا الشطر من الآية إنما كان ثابتاً من السنن في الأمم الماضية عرّفه الله لهذه الأمة وبيّنه لها في كتابه أو على لسان المعصوم لكي تتواصل الأمم وتشعر بوحدة المشرّع ووحدة السنن النافعة في كل وقت وزمان...

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يقبل توبتكم من ذنوبكم التي سلفت أيام الجاهلية وعاداتها وتقاليدها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليم بما يصلحكم ويرشدكم ويسدّد خطاكم في

الطريق الصحيح، وحكيم في تشريعه وكل ما جاء به لأنه الخبير بنفوس الناس وما يصلحهم فيصف لهم الدواء الناجع بقدر الحاجة وفي الوقت المناسب. . .

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾﴾.

كرّر سبحانه إرادة التوبة للتأكيد عليها والمبالغة في طلبها، وقيل: كرّرها للمقابلة بإرادة الذين يتّبعون الشهوات. . .

الله سبحانه يحب للناس أن يتبعوا منهاجه وما شرّعه لهم ويلتزموا بأمره ونهيه، وذلك كله لصالحهم ومنافعهم وما فيه خيرهم، بينما الذين يتبعون الشهوات أصحاب الميول والأهواء والبدع، أهل الدنيا الذين يلهثون وراء لذاتهم يحبون لكم أن تكونوا معهم في باطلهم بعيدين عن حكم الشرع والعقل والمنطق السليم. . .

إن أهل الشهوات يحبون للناس أن يكونوا معهم في انحرافهم لأن ذلك يريحهم لكثرة البطّالين الفاسدين الذين يشتركون معهم في باطلهم فيغطي عليهم مفاسدهم وقد يخفف من الحملة عليهم عندما يكثر أتباعهم وأنصارهم، ولذا تجد كيف كان للباطل أئمة ودعاة ومبشرون وحملة من أجل إغراء الناس في باطلهم وإغراقهم في ظلامهم وجهلهم. . .

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ لا يريد الله أن يرهقكم بتكاليفه وتشريعاته، بل أراد اليسر في التكاليف ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ فهي شريعة سمحة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾[1] وكل حكم فيه عسر أو حرج أو اضطر الإنسان لمخالفته فهو مرفوع ومخفّف لا يجب القيام به.

﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ وضعف هذا الإنسان من جهة ما رُكّب فيه من نوازع الشهوات ومختلف الميول والأهواء بحيث تشدّه إلى الأرض وإلى

(١) الحج/ ٧٨.

الانحراف والرذيلة ولا يستطيع أن يتغلّب عليها أو أن يهزمها إلاّ بترويض هذه النفس وإلزامها برنامجاً من التقوى والخوف من الله والمعرفة الصحيحة التي تقوده إلى الطاعة وترك المعصية... وحمل الضعف في خلق الإنسان على ما حملناه عليه أولى من حمله على الضعف البدني لأنه المناسب لقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ في بيان التكاليف والأحكام.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

## اللغة

﴿ٱلْبَـٰطِلَ﴾: نقيض الحق وهو ما لا ثبات له عند الفحص، وهنا يراد به الحرام..

﴿تِجَـٰرَةً﴾: التجارة: هي التصرف في رأس المال طلباً للربح وليس في كلام العرب كلمة فيها تاء بعدها جيم غير هذه اللفظة «المفردات».

﴿تَرَاضٍ﴾: بأن يرضى ويقبل كل واحد من الآخر وتطيب نفسه به.

﴿عُدْوَٰنًا﴾: من عدا، والعَدْو: هو التجاوز ومنافاة الالتئام، فإذا كان إخلالاً بالعدالة يسمى عدواناً.

﴿ظُلْمًا﴾: الظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة: الجور...

﴿نُصْلِيهِ﴾: ندخله.

﴿يَسِيرًا﴾: سهلاً.

## التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الخطاب للمؤمنين لأنهم المنتفعون منه وإن كان يشمل الناس جميعاً وهو ينهي عن أن يأكل بعض الناس أموال بعضهم بغير حق الذي هو عنوان عام يعبّر عنه «الأكل بالباطل» وهو يشمل مصاديق كثيرة من أكل الربا والسحت والغش وأكل مال الحرام ظلماً وزوراً وغصباً وغيرها مما لم يأذن به الله ولم يبحه الدين والشرع. . .

يبقى أن نشير إلى أنه سبحانه عبّر بالأكل ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟﴾ مع أن المراد قطعاً لا ينحصر بالأكل وإنما في كل معاملة محرّمة وغير مشروعة، والتعبير بالأكل لأنه المقصد الأعظم من المعاملات والتصرفات. . .

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ أباح سبحانه المال المأخوذ عن طريق المعاملة التجارية ـ بل كل معاملة مشروعة ـ إذا كانت عن تراضٍ من الطرفين البائع والمشتري. . .

وأُخِذَتْ التجارة كعنوان لكل معاملة أباحها الشرع الشريف لأنها الأغلب في طرق الكسب. . .

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ إمّا أن يحمل النهي على الحقيقة وأنه يحرم على الإنسان أن يقتل نفسه كما في موارد الانتحار أو في كل مورد يقصّر فيه عن حفظ نفسه من الهلكة. وأمّا أن يحمل على أن لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يسفك بعضكم دم بعض، واستعمل التعبير بقتل النفس للمبالغة في الزجر فكأن المسلمين نفس واحدة وبعض المفسرين حمل النهي عن القتل ـ النهي عن ارتكاب الحرام المؤدي إلى هلاك النفس في الآخرة وهو أعظم من هلاك الدنيا. وأستقرب هذا المعنى لقرينة السياق حيث تقدم على هذه الآية النهي عن أكل المال ـ ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو حرام وهذا يناسب هلاك النفس في الآخرة فيكون النهي عن ذلك الهلاك الأُخروي. . .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ إنه سبحانه لرحمته بكم حرّم عليكم قتل أنفسكم وأمركم بما يصلحكم ونهاكم عما يضركم.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ من يأكل أموال الناس بالباطل ويقتل النفس بغير حق ظلماً واعتداءاً وبدون مراعاة لحكم الله وشرعه فمثل هذا يمثّل فعله اعتداء على أمر الله، ولهذا يدخله الله يوم القيامة ناراً عظيمة أعدها الله للعصاة والمتمردين الظالمين..

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ إدخال النار لمن ارتكب المنهي عنه سهل على الله وما أيسره عليه لأن قدرته مطلقة في العباد والبلاد وفي الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿تَجْتَنِبُوا۟﴾: الاجتناب: الترك، وقيل: إنه أبلغ من الترك.

﴿كَبَآئِرَ﴾: جمع كبيرة: وهي متعارفة في كل ذنب تعظم عقوبته.

﴿تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: نهاه عنه: زجر عنه، وتنتهون عنه: تتركونه ولا تفعلونه.

﴿نُكَفِّرْ﴾: التكفير: ستر الشيء وتغطيته، والذنب يصير بمنزلة ما لم يُعمل.

﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: السيئة: الفعلة القبيحة، وهي ضد الحسنة وهنا يراد بها المعاصي الصغيرة.

﴿مُّدْخَلًا﴾: المُدْخَل بضم الميم وفتح الخاء: اسم مكان، وهو من دخل الذي هو نقيض خرج.

## التفسير

قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

إن تتركوا كبائر الذنوب جانباً ولا تقترفوها نعفو عن الصغائر التي وقعتم بها وارتكبتموها ثم ندخلكم مدخلاً كريماً، وهي الجنة مع الكرامة والاحترام ورفيع المقام...

وهذه الآية فيها لطف إلهي ظاهر ينال عباده المؤمنين الذين اجتنبوا كبائر الذنوب فكافأهم الله ولطف بهم بمحو صغائر الذنوب التي ارتكبوها...

وهذه الآية واضحة الدلالة في تقسيمها الذنوب إلى قسمين، كبائر وصغائر، وأطلق على الصغائر من السيئات كما في الآية وأطلق عليها اللّمم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[1] وميزان الكبائر والصغائر مختلف فيه وتبعاً له اختُلِف في عددها..

وقد عُدَّ من الكبائر، بل أكبر الكبائر - الشرك بالله، ثم يأتي بعده غيره، منها: الزنا، اللواط، السحر، أكل مال اليتيم ظلماً، قذف المحصنة، الفرار من الزحف، عقوق الوالدين، الرّبا، شهادة الزور، كتمان الشهادة، شرب الخمر، ترك الصلاة، منع الزكاة، إفطار شهر رمضان، نقض العهد، قطيعة الرحم، السرقة، أكل الميتة، وشرب الخمر والمسكر، البخس في المكيال والميزان، معونة الظالمين والركون إليهم، الغيبة، البهتان على المؤمن، وسبّه وإهانته وإذلاله، الغش، الرياء وغير ذلك مما هو موجود في السنة النبوية التي ذكرت المصاديق في أحاديث متفرقة ونقلها صاحب الكافي في الجزء الثاني من كتاب (الإيمان والكفر) باب الكبائر حيث نقل أربع وعشرون حديثاً يعدّد فيها تلك الكبائر...

(١) النجم/ ٣٢.

قـال تـعـالـى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾: تمنّي الشيء: أراده.

﴿فَضَّلَ﴾: من الفضل: بمعنى زيادة أحد الشيئين على الآخر بأمر ما واختصاصه به.

﴿نَصِيبٌ﴾: النصيب: الحظ والسهم.

﴿اكْتَسَبُوا﴾: الاكتساب: يستعمل فيما استفاده الإنسان لنفسه، والكسب أعم وقد يكون الأصل في معنى الكسب هو الجمع...

﴿وَاسْأَلُوا﴾: من سأل، والسؤال: استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة واستدعاء مال أو ما يؤدي إلى المال.

﴿فَضْلِهِ﴾: الفضل: كل عطية لا تلزم من يعطي، وفضل الله: ما أعطاه لعباده من مال وجاه وغيرها..

﴿مَوَٰلِيَ﴾: أصل المولى: من ولي الشيء يليه ولاية، وهو اتصال الشيء بالشيء من غير فاصل واستعمل في معان متعددة، والمراد هنا هو الوارث.

﴿مِمَّا تَرَكَ﴾: يراد به الميراث.

﴿عَقَدَتْ﴾: من العقد: وهو مقابل الحِل.

﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾: الإيمان: جمع يمين، وهي اليد، وقيل: جمع يمين: وهو الحلف.

﴿فَـَٔاتُوهُمْ﴾: أعطوهم.

﴿نَصِيبَهُمْ﴾: النصيب: السهم والحصة.

﴿شَهِيدًا﴾: الشهيد: هو الرقيب الذي يعرف خفايا الأمور.

## التفسير

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ نهى سبحانه المؤمنين أن يتمنوا ما أعطاه الله إلى بعض الناس وحرمهم منه كأن تجد ذا نعمة موفورة فتتمناها لنفسك، أو تجد عمارة فخمة فتتمنى أن تكون لك، وهكذا دواليك...

إن هذا التمني إذا بقي محصوراً في حدود النفس والذات ولم يستتبعه عمل محرّم من مدّ يد إلى أموال الآخرين أو غصب ما عندهم أو الاستيلاء عنوة وغيلة على ممتلكاتهم، فإنه لا يضر إلا نفس المتمني من حيث ينغص له حياته ويحوّلها إلى حالة قلقة مضطربة غير مستقرة، لأن من يعيش هذه الحالة فإنها تضغط على أعصابه ولا يهنأ في حياته ولا يرتاح أبداً مع ما في ذلك - في العمق والدقة - من أن هذا التمني احتجاج على حكمة الله وعدله لأنه سبحانه هو الذي أعطى المال وأعطى الجمال ووفّر الصحة وكمال العقل وغير ذلك، فإنها كلها من إفضاله وإنعامه خصّ بها بعضهم دون بعض لحكمة اقتضتها الحياة وعمارتها وسعادة أهلها، فإذا تمنيتها فقد جعلت نفسك أعلم من الله، واعتبرتها أكثر خبرة ومعرفة

بالمصالح والمفاسد التي على أساسها كان هذا التفاضل فيما بين الناس. . .

إن على الإنسان أن يرضى بقسم الله وما أعطاه، فلرُبَّ أمنية كانت تحمل معها منيّة، ولربَّ نعمة تتصورها لنفسك حملت معها نقمة. وفي قصة قارون ما يكشف عن قصور الإمكان البشري وكيف أن بعضهم تمنى أن يكون له مال قارون، وقال: كما ينقل الله كلامهم ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾[1] فلما خسف الله به وبداره الأرض انطلقوا يحمدون الله وعرفوا نعمه عليهم، ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾[2].

وليس معنى ذلك أن يكفّ الإنسان عن الحركة والنشاط، أو أن يقتل الطموح فيه، فإن ذلك أمر لا يحبه الله ولا يرغب فيه لعباده المؤمنين، بل هو الذي أمر بالعمل والجد فيه وجعله جهاداً يؤجر عليه المرء كما يؤجر المجاهد في سبيل الله. . .

إن معنى أن لا تتمنى ذلك الأمر أن لا تعيش بداية انحراف في نفسك يستتبعه حسد قاتل يضر بك وبالمحسود. . .

نعم يبقى أن تحب لنفسك مثل ما عند غيرك فهو الغبطة ولا كراهة في ذلك ـ كما وردت بها الأحاديث ـ. . .

والإمام الصادق عليه السلام يكشف عن هذا المعنى ـ وهو أن هذا التمني المُنهى عنه هو تمني ما عند الغير المؤدي إلى الحسد أو هو الحسد نفسه ـ ففي تفسير العياشي عن الصادق عن قول الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

قال: لا يتمنى الرجل امرأة الرجل ولا ابنته، ولكن يتمنى مثلهما. . .

---

(١) القصص/٧٩.

(٢) القصص/٨٢.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ للرجال نتيجة جهدهم وتعبهم لأنهم بذلوا وسعهم في سبيل تحصيل المال أو الجاه أو غير ذلك، وكذلك للنساء نتيجة أتعابهنّ وجهادهنّ وما بذلنه في سبيل غناهنّ ورفعتهنّ وسمو منازلهنّ ولا يحصل ذلك بالتمني وإنما بالسعي، ولا يصح لأحد أن يحوّل ثمرة أتعاب الآخرين إليه وإلى منافعه وملذاته.. إن كل عمل ستعود نتيجته على فاعله وله...

وبعضهم حمل قوله: ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ ﴿ٱكْتَسَبْنَ﴾ إلى الثواب والعقاب، وأن كل عامل إن عمل خيراً أثيب عليه وإن عمل شراً عوقب عليه...

وبعضهم الآخر حمل ذلك على الميراث، وأن للرجال نصيبهم المفروض لهم وللنساء نصيبهنّ المفروض لهن وقرينة ذلك ما تقدم من الآيات وما تأخر...

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ توجيهٌ لهذا الإنسان وجهته الصحيحة ودلالة له على الباب الذي منه يكون الفضل والخير وكل النعم والإفاضات...

إن التمني إذا لم يضرّ فلا ينفع ولكن السؤال ممن بيده الفضل فهو الأمر الصحيح...

إن الله بيده الأمور كلها ومنه كل هذا الوجود وما فيه من موجود.. خلق الإنسان والكون والحياة وميّز بين واحد وآخر وحرم بعضاً وأعطى بعضاً آخر، وهكذا... فما أحسن التوجه إلى من يملك كل ذلك بالسؤال والدعاء والطلب والنجدة... إنك بهذا التوجه تدخل البيوت من أبوابها وتطلب الخير من مالكه ومصدره وأساسه..

إن الله سبحانه هو الذي يأمر هذا العبد أن يسأله ويتوجه إليه بالمسألة ولن يخيب سائل الله والمتوجه إليه، شرط أن يكون في ـ علم الله ـ ما يطلبه هذا الإنسان فيه المصلحة والخير ويكون قد استكمل شروط السؤال والطلب...

١ ـ في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لو[١] أن عبداً سد فاه ولم يسأل! لم يعط شيئاً فسل تعطى..

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، باب الدعاء.

٢ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من[١] لم يسأل الله عز وجل من فضله افتقر.

٣ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سل[٢] حاجتك وألحّ في الطلب فإن الله يحب إلحاح الملحّين من عباده المؤمنين...

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ ولكل واحد من صنفي الرجال والنساء جعلنا ورّاثاً يرثونهم لأنهم الأولى بهم بحسب القرابة والرحم. فإذا مات الوالدان والأقربون ورثهم هؤلاء الموالي ـ الورّاث ـ كل بحسب قربه من الميت...

وبعبارة موجزة: لكل واحد جعلنا وراثاً مما تركه الوالدان والأقربون بحسب الرحمية والقرب، فالأولى بالميت هو المقدّم.

فالآية إجمال للتفصيل المتقدّم حيث كان سبحانه قد وزّع الميراث بحسب المراتب والدرجات، فالموالي هنا هم الأولى بالميراث تأكيداً لمدلول قوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[٣].

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: إنما عنى بذلك أولي الأرحام في المواريث ولم يعن أولياء النعمة فأولاهم بالميت أقربهم إليه من الرحم التي تجره إليها.

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ واختلف في المراد، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فقيل: هم الحلفاء الذين كانوا يتعاقدون فيما بينهم ـ وقد كان ذلك قبل الإسلام ـ فيقول الرجل لصاحبه دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي، وأطلب بك، وتعقل عني، وأعقل عنك، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف، وقالوا: إن ذلك نسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، باب الدعاء.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الأحزاب/٦.

أقول: وهذا يسمى ضمان الجريرة وهو ثابت عندنا وله شروط وحدود... ومنه يُعلم عدم نسخ الآية...

قال بعضهم: إن المعاقدة: هنا هي المصاهرة، فيكون إشارة إلى إرث الزوجين ـ وردَّ بعضهم ذلك ـ بقوله: إنه عدول عن الظاهر وعن قول الأكثر.

وقال بعضهم: إن المراد بالمعاقدة هنا هم الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، وكانوا يتوارثون فيما بينهم ونسخ ذلك فيما بعد بآية الميراث ـ وقيل غير ذلك...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا﴾ إنه سبحانه مطّلع على كل شيء سواء كان ظاهراً جلياً أو باطناً خفياً، يعلم ما يصلح الناس فيعطيهم من فضله بقدر ما يصلحهم... وفيه تهديد لمن يخون نصيب من كتب الله لهم نصيبهم...

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿قَوَّٰمُونَ﴾: جمع قوّام مبالغة من القيام على الأمر: بمعنى حفظه ورعايته، أي يقومون عليهنّ قيام الولاة على الرّعية.

﴿فَضَّلَ﴾: الفضل: زيادة أحد الشيئين على الآخر وهو تارة يكون فضل جنس على جنس وفضل من حيث النوع وفضل من حيث الذات.

﴿أَنفِقُوا﴾: من أنفق المال: إذا صرفه وأنفذه.

﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾: مطيعات، وأصل القنوت: دوام الطاعة.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾: كالغياب، والغيبة: مصدر خلاف الشهود.

﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: أصل النشوز: الارتفاع، ومنه نشزت المرأة: إذا ترفّعت على زوجها وعصته.

﴿تَعِظُوهُنَّ﴾: الوعظ: زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل: تذكير بالخير فيما يرق له القلب.

﴿وَاهْجُرُوهُنَّ﴾: من هجر، والهجر والهجران: مفارقة الإنسان غيره إما بالبدن أو باللسان أو بالقلب.

﴿الْمَضَاجِعِ﴾: جمع مضجع وهو مكان النوم، واضجع: نام، وقيل: استلقى ووضع جنبه على الأرض.

﴿أَطَعْنَكُمْ﴾: من الطاعة: ومعناها الانقياد.

﴿فَلَا تَبْغُوا﴾: لا تطلبوا.

﴿سَبِيلًا﴾: السبيل: الطريق.

## التفسير

قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أعطى الله في هذه الآية للرجال حق رعاية المرأة وضبط وضعها وتيسير أمرها والقيام بشؤونها... إنها كرعاية الولاة على الرعية في تدبير شؤونها وتهيئة ما يصلحها وما يعود عليها بالنفع والخير...

وهذه المهمة للرجل طبعاً فيما يعود إليه من علاقة بينه وبين زوجته وفي داخل بيته حيث أن هذا البيت يشكّل دولة صغيرة لا بدَّ لها من رئيس ترجع إليه الأمور وتكون كلمته هي كلمة الفصل في نهاية الأمور - مع الأخذ بعين الاعتبار - بأن هذا الحاكم ليس مستبداً أو ظالماً أو غشيماً ليس له معرفة بمصلحة العائلة وما ينفعها.

إن وضع أمور الزوجة بيد الزوج هي أمر طبيعي بحسب المنطق ودواعي المصلحة، وذلك لأن هذه المؤسسة الصغيرة في حجمها الكبيرة في أثرها ومدلولها إمّا أن تبقى بدون رأس وهنا تعمّ الفوضى ويختل النظام ويسود الظلم،

وبالتالي تخرب على أهلها وتقفل أبوابها وهذا أمر لا يرتضيه العقلاء ولم يقدم عليه الشركاء عندما أقدموا على الزواج والعيش معاً...

وإمّا أن تُسلم الأمور إلى النساء ـ الزوجات ـ وهذا الأمر له مضاعفات خطيرة نتيجة وضع المرأة النفسي والعاطفي وما تتعرض له من حالات الحمل والوضع والتربية وما تحمله من عاطفة قويّة، وهكذا...

يضاف إلى كل ذلك أن المنطق يقول: أن الترجيح بدون مرجح لا معنى له وهنا ترجيح المرأة على الرجل في ـ القوامة ـ لا يأخذ به العقلاء لأنه إذا لم يكن الرجل أقوى على تحمل المسؤولية فلن تكون المرأة إلاّ مثله إن لم نقل أقل منه قدرة فلا يمكن أن تُقدّم عليه...

وهنا يبقى الشق الثالث ـ وهو أن يكون الرجل هو القائم بالأمر والمدبِّر لشؤون هذه المؤسسة بما فيها المرأة ـ في الأمور المشتركة العائدة لهما معاً والتي تمسهما معاً ـ وهذا أمر طبيعي يلتقي مع الفطرة والقدرة، وقد أثبت الرجل خلال تاريخه الطويل قدرته على ذلك ونجاحه فيه...

إن قلت: لماذا لا نجعل الأمر شورى فيما بينهما؟ نقول: وماذا تعمل في حالات الاختلاف؟ ولمن يكون الرأي الفيصل فيه؟ وهنا نعود إلى نقطة الصفر ونلقي بأزمتنا في أحضان الرجال...

ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن قيمومة الرجل على المرأة ليست قيمومة تسلّط وظلم وقهر واستبداد، بل هي قيمومة مصلحة ومنفعة وتحرّي ما فيه خيرها وخيره، وصلاحها وصلاحه خالية عن التعسف والامتهان، وما فيه احتقار أو ازدراء، ولذا نجد في الجوانب الأخرى كيف تنعكس هذه العلاقة حباً بينهما وطهراً ورحمة، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1] فالعلاقة الزوجية مودة ورحمة لا بغض ولا انتقام،

(١) الروم/ ٢١.

ولكن في مقام المصلحة وما ينفع الأطراف جميعاً تعطى الأمور بيد مَن يعرف المصلحة ويوفرها للجميع. . .

وأنا في حديثي هذا المتقدم أردت تقريب المعنى إلى الذهن وإلاّ فالكلام هذا كله ـ وأمثاله ـ هراء وتعب أمام هذا الجعل الإلهي ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فهو سبحانه العالم بالمصلحة والمحيط بالأمور من جميع جوانبها. . شرع ذلك وأعطى زمام الأمور بيد الرجل فلا بدَّ من تقبل ذلك والرضا به والعمل بمضمونه، وصلت أذهاننا إلى عمق هذا التشريع أم لم تصل، فالله سبحانه ليس خاضعاً في تشريعه لآراء البشر القاصرة وأفكارها العاجزة ومنطقها الأعوج. . . . إنه سبحانه العالم المطلق بما ينفع هذا الإنسان ويضره وبحكمته يضع الأمور مواضعها، قد يهتدي إليها الناس وقد لا يهتدون، ولكن في نهاية المطاف ستعود عليهم بالنفع والخير. . .

ثم إنه سبحانه بيّن سبب القيمومة هذه بأمرين قال تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟﴾ سببان أساسيان أحدهما ذاتي والآخر اكتسابي. . .

الأولى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بتكوين الرجل المتفوق بطبعه على المرأة من حيث العقل والوعي وعدم الزحف خلف العاطفة والهوى. . .

ومهما تفلسف المتفلسفون وراحوا في حواراتهم العرجاء فلن يرجعوا بعد ذلك إلاّ إلى القول أن الرجل بيده الأمور وهو الأقدر على تيسيرها وضبطها وتوازنها وأصدق شاهد هذا التاريخ البشري منذ فجره الأول وإلى اليوم، وكيف كان الرجل هو المتسلم للقيادة والريادة بالرغم من أكثرية عدد النساء وزيادتهن على عدد الرجال. . .

وأيضاً استقصاء سريع لكل الأعمال والحرف والمهن بما فيها تلك التي يقال إنها من مختصات المرأة وخصوصياتها نجد تفوّق الرجال وتقدمهم عليها، لا أريد أن أقول قيادة الجيوش، وفتح البلدان، وسد الثغور، ورد العدو، أريد أن أقول عالم فن الخياطة النسائية والمطبخ والتجميل وغيرها، فنجد أن المرأة تابعة

والرجل متبوع ونجد براعة الرجل متقدمة بدرجات ومراحل عن المرأة. . .

إن ظاهرة التفوق عند الرجل موهبة إلهية ليكون القيم على المرأة وتدبير شؤونها. . .

ثم إنه لا يخفى علينا أن نبوغ بعض النساء استثناء وهذا الاستثناء لا يشكّل قاعدة عامة يجب أن توضع القوانين على أساسها. . .

إن بعض النساء بدون شك أفضل من الرجال وأكثر وعياً وإدراكاً وفهماً، وقد تكون المرأة في بعض الأحيان امرأة حديدية في مواقفها وصرامتها وقوة عارضتها، ولكنها تبقى استثناءً لا توضع القوانين على أساسها ومن أجلها. . .

وأخيراً لا أريد أن أخوض في موضوع المرأة والرجل والفوارق بينهما ـ فإن طبيعة كل منهما ـ الجسدية والوظيفية تختلف عن الآخر، وكل منهما يتمم الآخر ويكمّله، ولا يستطيع أحدهما أن يستغني عن الآخر أو يسقطه من حسابه فيسقط نفسه ويسقط هو الآخر في النهاية، وتتعطل دورة الحياة وتشل الحركة فيها، بل تموت ويقضى عليها. . . أقول: لا أريد أن أخوض في موضوع المرأة والرجل بالتفصيل، فذلك يستحق كتاباً مستقلاً تدرس فيه كل الجهات والخصائص ولسنا هنا بهذا الصدد أو في منظوره. . .

الثاني: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ وهذا هو السبب الآخر لقيمومة الرجل على المرأة وهو سبب اكتسابي، فإن إنفاق الرجل على المرأة ابتداءً من المهر المقدّم لها وقت الزواج إلى مصاريفها كلها من المسكن والملبس والمأكل وجميع حوائجها ومستلزماتها من طبابة وعلاج وغيرها، كل ذلك يتحمله الرجل ويجب عليه أداءه إليها بدون تأخير أو تسويف أو مماطلة، بل واجب عليه بحكم الشرع لا يجوز له التخلف عنه أو مخالفته، ومن كان عليه كل ذلك ينبغي أن ينوّه به ويُعطى بعض الصلاحيات الزائدة تكريماً له، وهي مسؤولية تكليف أكثر منها تشريف. . . إنها تكاليف ملقاة على عاتقه سيحاسبه الله عليها ويوقفه للسؤال عنها، فلذا يجب عليه أن يُحسن الدراية ويتقن ما كُلّف به وإلاّ سقط في العذاب الأليم. . .

إن واجب الرجل أن يقوم بالنفقة عليه وعلى زوجه وعلى أولاده وعائلته، وهذا يؤهله لترتيب أمورهم وعليهم في مقابله الاستماع لكلامه والائتمار بأمره من أجل المصلحة العامة...

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ بعد أن شرّع سبحانه قيمومة الرجل على المرأة وأن عليها أن تطيعه وتلتزم أمره بيّن سبحانه هنا حالة المطيعات للأزواج الحافظات لما يجب حفظه عليهن في حال حضور أو غياب الأزواج...

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ تعبير يقارب ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾[1] أن تكون المرأة صالحة يعني أن تكون في خط الله ملتزمة لأمره ونهيه لا تعصيه ولا تتمرد على إرادته.

ويتمثل صلاحها في طاعتها لزوجها ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ إطاعته في كل أمر ليس فيه معصية لله... أن توافقه في شؤونه وتكون معه في سرّائه وضرّائه وفي بؤسه ونعمائه وقانتات مفهوم عام تعني خضوعهن الدائم وطاعتهن المستمرة لله ومن هذه الطاعة لله ودوام الاستمرار عليها يتفرع عنها طاعة الزوجة لزوجها وموافقته في أموره.

ثم تحفظ نفسها في غيبة زوجها كما أمر الله، تقوم بحفظ النفس والمال وصون العرض والأسرار التي بينها وبينه.

روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما استفاد امرءٍ مسلم بعد[2] الإسلام أفضل من زوجة تسرّه إذا نظر إليها وتطيعه إذا أمرها وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله.

وفي الصحيح عن الإمام الرضا عليه السلام قال: ما أفاد[3] عبد فائدة خيراً من زوجة صالحة إذا رآها سرّته وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله.

(١) النور/٢٦.
(٢) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، باب ٩، حديث ١٠ ـ ٦.
(٣) نفس المصدر.

قال النبي ﷺ: «من سعادة المرء[1] الزوجة الصالحة».

وقال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: إذا أردت أن أجمع[2] للمسلم خير الدنيا وخير الآخرة جعلت له قلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً وجسداً على البلاء صابراً وزوجة مؤمنة تسرُّه إذا نظر إليها وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله.

وهناك أحاديث كثيرة مدحت المرأة الصالحة وأثنت عليها ورفعت مقامها حتى بعضها جعلت حُسن تبعلّها جهاداً لها وفي بعضها أنها نعمة من الله على الرجل، وهكذا...

وحاصل المعنى من الآية: أن الصالحات حافظات للعهد الذي أخذه الله عليهنّ من الطاعة، واجتناب المعصية لله والطاعة للأزواج طلباً للجزاء الذي رتبه الله على ذلك..

وفي الحديث أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ما حق الزوج على المرأة؟

فقال: أن تطيعه ولا تعصيه ولا تتصدق من بيته إلاّ بإذنه، ولا تصوم تطوعاً إلاّ بإذنه، ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب، ولا تخرج من بيتها إلاّ بإذنه، وإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها.

بقي أن نطل على معنى قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[3] فالله قد حفظ حقوق النساء حينما شرّع لهنّ شرائع توافق وضعهن وتركيبة أبدانهنّ وأنفسهن، فجعل للمرأة حقاً في الميراث، وحقاً في تقرير مصيرها ممن تتزوج، وحقاً في التملك وتنمية الثروة، جعل الله للمرأة حقاً في العمل والتعلم وإدارة الشركات والقيام بالوظائف اللائقة بها، وهكذا. وهذا الحفظ للمرأة من قبل الله

(١) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، باب ٩، حديث ٦/١٢.
(٢) نفس المصدر
(٣) النساء/ ٣٤.

يجب أن تقابله المرأة بحفظ حقوق الله كلها ومن ضمنها حقوق الزوج، وباعتبار أن الخيانة وعدم حفظ الحقوق أكثر ما يكون في غياب العيون وبعيداً عن الناس، لذا نص على الغيب، وأن على المرأة أن تحفظ الله وتحفظ زوجها في حالة الغيب والغياب فتشعر حضور الله وترعى حقوقه، وكذلك ترعى حقوق الزوج في غيبته... وملازمة التقوى والطاعة في الغياب يكشف عن عمق الإيمان وثباته...

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ وهـذا هـو القسم الثاني من النساء أنهنّ الناشزات المترفعات على أزواجهن المتمردات العاصيات...

والرجل إذا علم أو ظن - وهو المعبّر عنه - ﴿تَخَافُونَ﴾ بنشوز المرأة جاز له أن يردعها عن تمردها وعصيانها ويردّها إلى الطاعة والالتزام، وأمامه وسائل رخّص الله له فيها من أجل المصلحة العامة وليس انتقاماً أو تعذيباً، وهي بحسب الترتيب العقلاني الإصلاحي على ثلاثة مراحل وهي:

**الأولى:** ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ والموعظة هي التذكير بالله وما أعدّه للمطيعات وما أعدّه للعاصيات وما أثر النشوز على الأسرة وعلى وحدتها وائتلافها وجمع كلمتها... بل الموعظة تعني كل ما يقربها من الله والتزام أمره، وكل ما يبعدها عن الله وترك ما نهى عنه فيأمرها بالأول وينهاها عن الآخر على نحو يكون هذا الوعظ بحسب الترتيب والتعاقب من الأدنى إلى الأعلى وبعطف ورقّة ومن الحسن إلى الأحسن، وهكذا...

فإذا عجزت الكلمة وسقط أثرها وتعطّل مفعولها فهناك طريق آخر مفتوح أمام الرجل وهو عملي وسلوكي وفيه نوع من السلبية نحوها.

**الثانية:** ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ هذه هي المرحلة الثانية والخطوة التالية للأولى... - الهجر في المضاجع - وقد اختلفوا في هجر الزوج لزوجته في المضاجع على أقوال:

١ ـ منها: أن الهجر في المضاجع عدم مجامعتها.

٢ ـ منها: أن يعطيها ظهره معرباً بذلك عن غضبه عليها وعدم رضاه عنها.

٣ ـ منها: أن لا يبيت معها في الفراش بل يتخذ فراشاً ينفرد به.

٤ ـ وقيل: أن لا يبيت معها في بيت واحد، وقيل غير ذلك.

والأقرب هو المعنى الثاني الذي يأخذ سلوكاً سلبياً نحوها مع حفظ خط الرجعة لأن ذلك على بساطته يؤذي شعورها من حيث ـ إذا كانت عاقلة ـ تشعر بخطئها فترجع عنه وهو مروي عن أبي جعفر عليه السلام كما في مجمع البيان، وإليه ذهب بعض أعاظم علمائنا الكبار... ثم إذا لم تُجد هذه الخطوة أو تنفع فعلى الزوج أن يصعّد احتجاجه على نشوزها باستعمال أسلوب قد لا يحبه ولا يرتضيه ولكن قد يكون فيه النفع والفائدة كمن يتناول حبة دواء لعلاج مرضه، فإن لم تنفع يستعمل غيرها حتى يصل به الأمر إلى عملية جراحية يوطّن نفسه عليها ليقتلع من خلالها مرضه ويرتاح في حياته. وهكذا الرجل إذا نشزت امرأته قد يضطر إلى استعمال أسلوب الضرب.

الثالثة: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ والضرب يمثل الحل الأخير في ردعها عن المعصية وردها إلى رحاب الطاعة.

إن قلت! كيف يصحّ أن تضرب المرأة إذا نشزت؟ قلت: إن الزوج بمثابة الحاكم في إدارة أمور رعيته، فإذا كان بعضهم لا ينفعه إلاّ السجن سجنه، وبعضهم الآخر يُكتفى معه بالتعزير، وبعضهم الآخر كالمجرمين والقتلة قد يُمارس في حقهم القتل... مضافاً إلى أن هذا الضرب لا يقصد به الانتقام والتشفي وإنما هو تأديب لها يقتصر منه على ما يؤمل معه حصول الغرض المطلوب شرط أن لا يكون مبرحاً ولا مدمياً بل بعضهم عيّنه بالضرب بالسواك «عود الآراك الذي يستعمل لتنظيف الأسنان» وبعضهم عيّنه بالضرب بمنديل ملفوف...

وبالجملة فالعقل يحكم بوجوب ممارسة هذا النوع من التأديب للتوصل به إلى إصلاح المرأة فيجب أن يراعى فيه هذا الغرض كمّاً وكيفاً...

وعلى ضوء ما تقدم إذا تيقن الرجل وأصبح لديه قناعة أن المرأة لا ينفعها الضرب - يسقط الضرب - لأنه إنما شرّع لفوائده، فإذا تيقّن الزوج بعدم ترتيب الفوائد فلا داعي للقيام به إذ لم يشرّع للتشفي والانتقام وإنما للإصلاح والعلاج. . .

يبقى أن نشير إلى أنه سبحانه ذكر الأمور الثلاثة ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ متعاطفة بالواو، وهل معنى ذلك أن الرجل مخير بينها أو يجوز له الجمع بينها أو الترتيب من الأخف إلى الأثقل.

الأظهر أنها مترتبة من الثقيل إلى الأثقل لا من جهة اللفظ لأن الواو لا تفيد الترتيب، بل من حيث المعنى، كما يفهم ذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا المقام من مصاديق ذلك الحكم العام فيندرج تحته ويأخذ حكمه. . .

وقال بعضهم: إن ظهرت إمارات النشوز ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ وإن ظهر النشوز فعلاً ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ﴾ وإذا استمر نشوزهن ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ وهذا رأي لا دليل عليه وإن كان لطيفاً. . .

وهناك اجتهادات أخرى وآراء للفقهاء لسنا بحاجة إلى ذكرها أو استعراضها. . .

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ إن رجعن عن النشوز إلى الطاعة فلا تتعرضوا لهن بشيء من الأذى لزوال سببه، ومن تاب من الذنب كان كمن لا ذنب له، فلا يُعيّر بما كان منه أو يوبّخ عليه أو يُؤذى به. . .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فيه نوع من تهديد للرجال إن تجاوزوا حدودهم وصلاحياتهم المعطاة لهم على نسائهم، وإن الله أقدر عليهم من قدرتهم عليهن فليحفظوا حدوده. . . أو أنه مع علو الله وعظمته يعفو عمن يتوب ويعود فيجب على الرجال أن يقبلوا توبة النساء ولا يلاحقوهن بما صدر منهن. . .

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿شِقَاقَ﴾: الخلاف والعداوة، مأخوذ من الشق: بمعنى الجانب لأن كلاً من المتشاقَّين يكون في شق غير شق صاحبه.

﴿فَٱبْعَثُوا۟﴾: أرسلوا.

﴿حَكَمًا﴾: الحكم: هو الذي يحكم بين الناس، أي يفصل بينهم ويقطع الخصام.

﴿يُوَفِّقِ﴾: من وفق، والوفق: المطابقة بين الشيئين.

﴿خَبِيرًا﴾: الخبير: هو العالم ببواطن الأمور.

## التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ هذه الصورة هي صورة استحكام العداوة بين الزوجين وعدم نفع الوسائل المتاحة المتقدمة التي كانت سلاحاً بيد الرجل... إنها صورة تُظهر الرجل

والمرأة وكل واحد منهما قد اتخذ جانباً يخالف الآخر ينصب له من خلاله العداوة والبغضاء.

وهنا يجب أن يتوفر حكمان يقومان بالإصلاح ورأب الصدع وإعادة اللحمة إلى ما كانت... حَكَم من أهله باعتبار أنه الأعلم بمصلحته وأخلاقه ومراده ومتطلباته وسره وجهره وما يجمع ويوحّد، وأيضاً حَكَم من أهلها لمعرفته بمصلحتها وأخلاقها ومرادها ومتطلباتها وسرها وجهرها وما يجمع ويوحّد...

- وإن لم نحمل توفير الحكمين على نحو الوجوب أن يكونا من أهليهما فلا أقل من استحباب ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ إن الزوجين إن أحبَّا الإصلاح وكانت نيتهما طيبة يجعل الله التوفيق بينهما ويكون الحكمان واسطة خير على أيديهما وترجع الأمور إلى طبيعتها وتعاد الأمور إلى نصابها...

## فوائد

١ - إن قوله ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ يقصد بالخوف هنا العلم.

٢ - ﴿فَٱبۡعَثُواْ﴾ الأمر متوجّه إلى الحكّام وأولياء الأمر الذين تداعى الزوجان عندهم، وقيل: يرجع «الأمر» إلى أهل الزوجين.

٣ - هل بعثهما تحكيم أم توكيل؟ ذهب الأكثر على أنه تحكيم. وهل يجوز أن يكونا من غير الأهل؟ قالوا إنه يجوز لأن الغرض حصول الصلاح وتقيد الآية - بالأهل - للأغلبية...

٤ - يشترط في الحَكَمَين العقل والبلوغ والعدالة والذكورة والحرية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ إن الله كان وما يزال عليماً بأحوال عباده خبيراً بهم وبشؤونهم وما يصلحهم وينفعهم، يعلم سبحانه الأسرار والبواطن، ويعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق...

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿إِحْسَانًا﴾: قال الراغب: الإحسان: فوق العدل، وذاك أن العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل.

﴿ذِي الْقُرْبَى﴾: ذي الرحم - الأقارب.

﴿الْيَتَامَى﴾: جمع يتيم: من فقد أباه من الإنسان، وفقد أمه من غيره من الحيوانات.

﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: هم الفقراء مع ضعف يرثى به لحالهم.

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾: الجار الرحم، وقد قيل: القربى: هي القرابة مختصة بالقرب في الرحم.

﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾: الجار الأجنبي - ليس برحم.

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾: الجنب بفتح الجيم وسكون النون: هو شق الإنسان

وغيره كما في القاموس، والصاحب بالجنب: قيل: الرفيق في السفر، وقيل: المرأة للرجل.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: المسافر المنقطع عن أهله وماله.

﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾: عبيدكم وإمائكم.

﴿مُخۡتَالٗا﴾: مختالاً: المختال المتكبر المعجب بنفسه.

﴿فَخُورًا﴾: هو الذي يعد مناقبه كبراً وتطاولاً.

## التفسير

هذه عشرة وصايا إيمانية وأخلاقية واجتماعية لو قام بها المجتمع وأقامها لرأيت كيف يتغيّر نمط الحياة والسلوك العام...

إنها أخلاقيات عالية يجب على المسلم أن يتمتع بها ويعيشها ويزرعها في قلوب الناس...

١ - ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾.

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ عبادة الله تعني الخضوع له والخشوع أمامه بامتثال التكاليف المتوجهة منه على ألسنة رسله من خلال ما أنزله سبحانه عليهم ومن خلال سنتهم...

أن تعبد الله معناه أن تتوجّه إليه في صلاتك وصيامك وحجك وزكاتك... تعبده بخدمة عباده من المحتاجين، ورفع الظلم عن المظلومين، وتحقيق العدالة بين الناس أجمعين...

أن تعبده صادقاً - دون شريك - أن يكون موقفك منسجماً مع إرادته، وكلامك متطابقاً مع مراده.

وفي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام قال[1]: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده،

(١) الكافي، ج٦، ص٤٣٤، حديث ٢٤ باب الغناء.

فإن كان الناطق يؤدي عن الله عزّ وجل فقد عبد الله، وإن كان النّاطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان ـ

إنه الإخلاص المأمور به في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1].

عبادة الله تتنافى مع الرياء والعُجب واتباع الهوى والانقياد للشيطان.

إن الخلل في الإخلاص يحرف الإنسان لتكون العبادة عبادة للشيطان (اللعين) كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[2] وفي الآية الأخرى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[3] وفي الآية الثالثة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4] قال الراوي وهو يسأل الإمام ما رأيناهم عبدوهم؟...

قال: حللوا لهم الحرام وحرّموا لهم الحلال... فالانحراف عبادة للشيطان، وخروج عن الإخلاص لله والطاعة له...

ولا يخفى أن قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ تفسير وتبيين لمضمون قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فإن عبادة الله لا تستقيم على حقيقتها مع الشرك به...

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وحدة العبادة ووحدة المعبود، ومنهما تنطلق المسيرة الصحيحة للتكامل وبلوغ الإنسان غاية السعادة في الدنيا والآخرة...

٢ ـ ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أحسنوا بالوالدين إحساناً ـ ذكرهما بعد ـ ذكر اسمه والأمر بعبادته مخلصين له ـ لأنهما السبب المباشر في وجود الأبناء، فحق لهما الشكر والإحسان وكل إكرام واحترام...

---

(١) البيّنة/ ٥.

(٢) يس/ ٦٠ ـ ٦١.

(٣) الفرقان/ ٤٣.

(٤) التوبة/ ٣١.

والتعبير ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فيه تأكيد وإغراء بالإحسان إليهما وإن هذا الإحسان يجب أن يبقى ويستمر، وهو كما قيل أبلغ من - أحسن إليه - لإمكان انقطاع الإحسان بعد وقوعه بعكس النص القرآني هنا... والإحسان إلى الوالدين يتمثل بطاعتهما وامتثال أمرهما والقيام بشؤونهما والعطف والحنو عليهما، وكل ما من شأنه أن يُعدّ إحساناً كما في العرف والشرع، هذا هو الإحسان في حياتهما...

أما بعد وفاتهما فالإحسان إليهما بالصلاة عنهما والصيام والحج والزيارة والتصدق عن روحهما وقراءة القرآن، وغيرها من الأعمال الصالحة التي يعود أجرها وثوابها إليهما...

٣ - ﴿وَذِى الْقُرْبَىٰ﴾ وهم الأرحام الذين تجمعهم معك رحم واحدة وقرابة قريبة كالأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات، فهذه العلاقة لها حقوق عليك ومن حقها أن تحسن إليها بما تقدر عليه وتطيقه، بزيارتهم والتصدق عليهم وإعانتهم، وسد عوزهم، ورفع الحاجة عنهم وتعليمهم وتهذيبهم وتأديبهم، وهكذا دواليك...

٤ - ﴿وَالْيَتَٰمَىٰ﴾ وهم الذين فقدوا العطف والحنان الأبوي كما فقدوا المعيل والمنفق عليهم... إنهم بحاجة إلى الإحسان ومدّ يد العون إليهم، ولقصورهم قدمهم الله على المساكين وجعل الإحسان إليهم قبلهم..

٥ - ﴿وَالْمَسَٰكِينِ﴾ وهم الفقراء الذين لم تسعفهم الأيام لكي يجدوا قوتهم وقوت عيالهم فهم بحاجة إلى من يحنو ويعطف عليهم ومن يمد يد المساعدة والعطاء... إن هؤلاء المساكين بحاجة إلى قلب رحيم ينعكس عليهم عطاءاً وصدقة ومعونة وغذاءاً وإحساناً يشمل كل حاجاتهم ويغطي كل فقرهم وعوزهم...

٦ - ﴿وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ﴾ هو الجار الذي توصلك معه رحم وقرابة قريبة، فهذا له حق الجوار وحق القرابة، فيتأكد الإحسان في حقه ليشعر بقيمة الرحم

فيتداعى لنجدتها عندما تدعو الحاجة، وأيضاً يرفع يديه إلى الله فيدعو لك عندما تمتد يديك نحوه بالعطاء.

٧ ـ ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ بضم الجيم والنون، وهو الأجنبي أي الغريب عنك الذي لا تتصل معه برحم أو قرابة، فهذا لجواره له حق عليك، وهو وجوب الإحسان إليه بما يُعدّ إحساناً، فإن كان محتاجاً أعنته، وإن كان مظلوماً أعنته لرفع ظلامته، وإن كانت عنده مناسبة شاركته فيها فرحاً كانت أم ترحاً، وهكذا. . .

وأين هذا من المدنية التي نعيشها ونكتوي بنارها حيث الأبواب في وجوه بعضها في البناية المتعددة الطوابق، ولا يفصل الجار عن جاره إلا الجدار، ومقدار خطوة من الباب إلى الباب، ويكاد الجار لا يعرف اسم جاره فضلاً عن الزيارة والتعارف واللقاء الذي لم يعرف له أثر، فكيف يكون الإحسان إليه والسؤال عن أحواله ومدّ يد العون إليه؟. . .

شتان بين إسلام يدعو للإحسان إلى الجيران وإن كانوا غرباء وكفاراً، وبين مدنيّة قائمة تنكر كل ذلك وتتنكر له وتبحث فقط عما يجرّ إليها نفعاً واضحاً، أو يدفع عنها ضرراً حاصلاً. . .

ولا يخفى أن إطلاق الجار الجنُب يشمل المسلم وغير المسلم، فكأن النظر إلى نفس الجوار، وإن هذا الجار لجواره يستحق الإحسان بقطع النظر عن هويته وانتمائه الديني أو السياسي أو غيرها من العناوين. . .

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنبِ﴾ بفتح الجيم وسكون النون، وهو الرفيق لك في سفر أو عمل أو درس أو مُصاحبك إلى الجماعة، فإن عليك أن تراعيه وتحسن إليه، وسمي بذلك لأنه يقف إلى جانبك مادياً ومعنوياً. . .

٩ ـ ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر الذي انقطع عن أهله وماله ولا يقدر أن يصل إليهم، وقد يكون مثل هذا المسافر عزيزاً في بلده، غنياً في نفسه وماله، فهذا يستحق الإحسان إليه فيعطى بقدر ما يوصله إلى بلده معزّزاً مكرّماً إن لم

يكن من الزكاة والحقوق الشرعية فيجب أن يعطى حفظاً لكرامته... وسمي ابن السبيل أي ابن الطريق لأنه ليس له بيت يأوي إليه فهو ملازم للطريق ملازمة الابن لأبيه فأطلق عليه ابن السبيل...

وبعضهم فسّر ابن السبيل بالضيف وهو ليس بصحيح، ابن السبيل كان في القديم حيث انعدام سرعة التواصل، فقد كانت المواصلات على الإبل والبغال والحمير وهي لا تقطع المسافات البعيدة بسهولة فكان المنقطع المحتاج يتعرض للحاجة فجاءت الوصية به...

ويمكن هذا الموضع - ابن السبيل - يشمل في زماننا هذا - المهجرين من بلادهم نتيجةً لحروب أهلية، أو غزو خارجي أو غيرها، فينزح هؤلاء عن أوطانهم ولا يقدرون على حمل شيء من أموالهم، فأمر الإسلام أن يعطوا بمقدار يرفع الحاجة والعوز...

١٠ - ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ الإحسان إلى العبيد المملوكين يكون بالتخفيف عنهم في الخدمة، ويكون بالنفقة عليهم ويكون بعدم إهانتهم أو شتمهم، وأحسن وجوه الإحسان بل الإحسان كل الإحسان إليهم عتقهم وتحرير رقابهم.. وهذا الفرد قد انتفى موضوعاً، فالحديث عنه فقط في حدود العلم والمعرفة فحسب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ هذا تنديد بمن يتكبر ويتجبر ويعتز بنفسه وماله على هؤلاء الذين أمر الله بالإحسان إليهم والإعانة لهم...

إن من يأنف على أهله وأقاربه وجيرانه وأهل الفقر والعوز، فهو مبغوض من الله ممقوت عنده، وكفى بذلك استهانة به وإذلالاً له...

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يَبۡخَلُونَ﴾: البخل: الإمساك والمنع، وهو ضد السخاء والكرم.

﴿يَكۡتُمُونَ﴾: يسترون.

﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾: أعطاهم.

﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: هيأنا.

﴿مُّهِينٗا﴾: مذلاً.

﴿رِئَآءَ﴾: مصدر هو التظاهر بخير دون حقيقة، المتظاهر بشيء خلاف باطنه..

## التفسير

بعد أن ذكر سبحانه بغضه لمن كان مختالاً فخوراً، عطف عليه هنا مَنْ يبغضهم وعدّ منهم البخيل.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ البخل صفة ذميمة قبيحة، والبخيل يسيء الظن بالله فيمتنع عن العطاء، إنه يجمع المال ويضمه ويدّخره.. يبخل به على نفسه وعلى عياله وعلى مجتمعه حتى إذا أدركه الموت وقف أمام الله ليحاسبه عن كل ما جمعه وبخل به...

البخل حالة نفسية يعيشها البخيل يحتاج لكي يخرج منها إلى ترويض النفس وتعويدها حتى يعود كالناس في سلوكه وإنفاقه ونفسيته.

ثم لا يكتفي البخيل بما يحمل من نفسية مريضة بالبخل، بل يحاول أن يحوّل غيره إلى صفّه، فلذا يأمر الناس بالبخل.. إنه يريد منهم أن يبخلوا بما في أيديهم وما يملكون من جاه وسلطان... إنه للؤمه لا يكتفي أنه لا يتعاطى الخير فحسب، بل يحاول أن يمنع غيره عن القيام به...

وثالثة الأثافي تأتي ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ إنها رذيلة تجر رذائل، ومعصية يتولّد منها معاصي... إنهم يبخلون ثم يأمرون الناس بالبخل، وأخيراً يبخلون بالجهر بنعم الله فيكتمون نعمه عليهم ولا يقرّون بها أو يعترفون... إنهم يدّعون الفقر والحاجة والعوز، وإنه ليس بين أيديهم صفراء أو بيضاء أو شيء من نعم السماء... إنهم بدل أن يتحدثوا بنعم الله كما أمر الله ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[(١)] يجحدون نعمه ويكتمونها حتى لا تظهر للناس لئلا يطالبون منها بشيء وهذا مظهر فاقع من مظاهر البخل...

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ هيّأنا للكافرين بنعم الله عذاباً مذلاً وخزياً، وذلك جزاء فعلهم حيث أهانوا النعمة بسترها بعد البخل بها.

---

(١) الضحى/ ١١.

وبدل أن يقول سبحانه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ عدّل إلى ذكرهم صريحاً ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ إشعاراً إلى أن مَنْ شأنه ذلك فهو كافر ويلحقه الذل والهوان...

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هـذا عطف على الذين يبخلون «وهم معهم وفي صفهم» من حيث بُغض الله وكراهته لهم...

إنهم قوم يخرجون أموالهم ويتصدقون بها على الناس.. إنهم ينفقونها ولكن كيف يخرجونها؟

إن إخراجها لم يكن لوجه الله وتقرباً منه ولم يكن عن نفس تحمل في داخلها العطف والحنان أو يكون فيها شعور بصلة الإنسانية ووحدة التلاحم فيما بينها..

إنهم قوم ينفقون أموالهم رئاء الناس، مراءاة لهم من أجل الشهرة والسمعة ومن أجل أنفسهم.. إنهم يشتركون مع البخلاء في معصية الله، ذاك يمنع حق الله ويبخل على الناس بمال الله، وهذا ينفق مال الله ولكن في غير مرضاته ورضاه فلذا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر لأن من يؤمن بهما يجعل الإنفاق لوجه الله ومن أجل الثواب المرتقب يوم القيامة...

قيل: إن الآية نزلت في مشركي مكة.

وقيل: في المنافقين.

ولسانها عام في كل من اتصف بذلك فيأخذ حكمه وإن كان سبب نزولها قوماً مخصوصين...

﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ من كان الشيطان صاحبا له وخليلا يأتمر بأمره ويعمل بحكمه فيا بئس القرين من حيث يغوي ويضل وينحرف بهذا الإنسان عن مستقيم الطريق إلى الهاوية.

هذا تنبيه على أن الشيطان قرينهم وصاحبهم والشيطان له أعوان وأدوات يحركهم في الاتجاهات كلها من أجل إضلال الإنسان، فالشهوات والأهواء

أدوات داخلية وشياطين الإنس - وما أكثرهم - بإغراءاتهم ومفاسدهم يلوون البسطاء والمغفّلين وينحرفون بهم إلى مهاوي الضلال والهلاك...

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ هذا استفهام يراد به توبيخهم وذمهم لجهلهم بوجوه المنفعة والمصلحة وتحريض لهم على أن يفكروا في أثر الإيمان بالله واليوم الآخر وقيمة الإنفاق من رزق الله...

كما أن من حق مَنْ دُعي إلى أمر لا ضرر فيه أن يستجاب له، فكيف إذا كان فيه المنافع والفوائد؟!... وهناك من قال أن الاستفهام للتحسر والتأسف أو للتعجب وما ذكرناه أولاً هو الصحيح...

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ خبر يكشف عن سوء نواياهم وما انطوت عليه قلوبهم وإنه سبحانه يعلم كل ذلك وسيحاسبهم عليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿لَا يَظۡلِمُ﴾: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو زيادة أو بعدول عن وقته ومكانه.

﴿مِثۡقَالَ﴾: المثقال: مفعال من الثقل وهو مقدّر بأربع وعشرين قيراطاً، ويقصد به هنا المقدار والوزن.

﴿ذَرَّةٍ﴾: الذرة: قيل هي الصغير من النمل الأحمر، أو الواحدة من الهباء المبثوث الذي لا يكاد يرى...

﴿حَسَنَةٗ﴾: الحسنة: يعبّر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله.

﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾: المضاعفة: هي زيادة على الشيء بمثله في المقدار.

﴿وَيُؤۡتِ﴾: يعطي.

﴿لَّدُنۡهُ﴾: عنده، ولدن كما قيل: أقوى في الدلالة على القرب من عند.

﴿أَجۡرًا﴾: ثواباً.

## التفسير

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ المقصود بهذه الآية نفي الظلم عن الله قلّ هذا الظلم أو كثر، لأن الظلم يشكل اعتداءً على الحق وهو وليد الجهل أو الانتقام أو جبر النقص وسدّ الخلة أو غيرها من الأمور التي يُنزّه عنها الله سبحانه وتعالى، فهو الغني المطلق من كل الجهات، والقادر المطلق من كل الجوانب، فلذا لا يكون منه ظلم مهما كان صغيراً أو حقيراً، والله سبحانه هنا ينفي ذلك.

والتعبير ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ لتقريب نفي الظلم إلى أذهان البشر.. حيث أن أقصى ما يتصورونه في الصغر هو هذا الحجم الحقير، وأقل القليل الذي يدخل في وهمهم ولذا كان التعبير به...

وطبعاً إذا نفي الصغير الحقير فيكون قد نُفي الكبير بطريق أولى... وإذا كان سبحانه ينفي الظلم ولو بمقدار الذرة عن نفسه، وهي مقدار النملة الصغيرة أو الهباء المنبعث من كوة النور، فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً في أعمالهم وأجرهم وثوابهم وما يقومون به أو يفعلونه...

وفي الدعاء «إنما يحتاج إلى الظلم الضعيف».

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ وهذا من كرم الله وجوده ومن الفيض الإلهي الذي يكرم به عباده الصالحين...

إن قام الإنسان بفعل الخير سواء كان صلاة أم صياماً أم إعانة فقير أم صدقة على محتاج أم رفع ظلم، وهكذا مما يدخل ضمن الأفعال الحسنة التي أمر الله بها فهذه الحسنات كل حسنة منها يضاعفها الله، وكم يضاعفها إنها مطلقة في حدود الكم والكيف ومفتوحة على جود الله الذي لا يحدّه بشر، قد تكون أضعافاً مضاعفة، وقد تصل إلى درجة تُدخل المرء الجنة... يبقى أن نشير أن فعل ﴿تَكُ﴾ أصله ﴿تَكُونَ﴾ حذفت الضمة للجزم والواو لسكونها وسكون النون، فأما سقوط النون فلكثرة الاستعمال...

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعطي سبحانه من عنده تفضلاً وكرماً، ﴿أَجْرًا﴾: ثواباً كبيراً لعامل الحسنة مهما كانت صغيرة.

وإذا كان المعطي للأجر هو أكرم الأكرمين والكريم بالإطلاق، وإذا كان وصفه بالعظيم، فكيف يمكن للعقول القاصرة أن تدركه على حقيقته أو تحيط به في واقعه؟!...

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿أُمَّةٍ﴾: الأُمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما، إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد.

﴿بِشَهِيدٍ﴾: الشهيد: يقال للشاهد والمشاهد للشيء، والشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة، والشهادة: قول صادر عن علم حصل بالمشاهدة.

﴿يَوَدُّ﴾: يحب.

﴿عَصَوُا﴾: عصى عصياناً إذا خرج عن الطاعة، وأصله أن يتمنّع بعصاه.

﴿تُسَوَّىٰ﴾: سوّى الشيء: جعله سويّاً، وسويت عليه الأرض: إذا هلك ودُفن فيها.

﴿يَكْتُمُونَ﴾: يسترون ويخفون.

## التفسير

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴿٤١﴾﴾ استفهام يراد به توبيخ مشركي قريش وقبلهم كل المعاندين لأنبيائهم، وصيغة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا﴾ الآية تستعمل في لسان العرب لتوقُّع حدوث أمر عظيم، وأنه كيف يكون حال هؤلاء المشركين من العذاب.

والعقاب إذا ﴿جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ وهو نبيّها يشهد عليها إيماناً وكفراً استقامة وانحرافاً، عملاً وإهمالاً، ولا بُدّ وأن شهادة النبي مقبولة ويحكم على من يشهد عليه النبي كما يحكم على من يشهد له النبي...

ثم يؤكد الأمر بعظيم شهادة النبي محمد ﷺ وأنه سيشهد على المشركين ممن عاصرهم أو عليهم وعلى المؤمنين، وشهادته ستكون نافذة وسيحكم بمقتضاها، وخصّ هؤلاء - المشركين - أو هم مع المؤمنين لأن المعجزات بين أيديهم والآيات تتلى عليهم، وخوارق العادات تجري أمام أنظارهم، فحقهم أن يؤمنوا ويعملوا بمقتضى الأوامر الإلهية دون عصيان أو مخالفة...

تدل الآية على عظمة الشهداء وكمالهم وعلوّ مقامهم وأن الشهادة لا تكون إلاّ ممن اجتمعت فيه شروط الشهادة من الإطلاع التفصيلي على كل أعمال الأُمة، وبجميع أفرادها والخصوصيات المحيطة بها، وأيضاً يكون الشاهد معصوماً لم يرتكب ذنباً لتكون شهادته مقبولة فلا يشهد مذنب على مذنب. ومن هنا نفهم أن الشهداء هنا هم الأنبياء والأوصياء والأئمة المعصومين عليهم السلام...

وفي الكافي بإسناده عن سماعة عن الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴿٤١﴾﴾ نزلت في أمة محمد خاصة في كل قرن منهم إمام منّا شاهد عليهم ومحمد ﷺ في كل قرن شاهد علينا.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ

حَدِيثًا﴿٤٢﴾ عندما تقوم الشهادة من قبل الأنبياء على أممهم يمتاز المؤمن عن الكافر، فالمؤمن يلتحق بركب الصالحين فيدخل الجنة.

ولكن المصيبة تقع على من وقع في العذاب... إنها شهادة كشفت حقيقته وأظهرته كما هو في واقعه، ويومئذٍ يتمنى الذين كفروا وعصوا الرسول لو لم يخلقوا ويأتوا إلى الحياة وهذا على حدٍّ ما ينقله سبحانه عن الكافر في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾[1] وهذا معنى أن يدفنوا في الأرض تسوّى عليهم فلا يبين منهم شيئاً وتكون حالهم معها كجزء منها في عدم الإحساس وفقدانه وبالتالي بدون حساب يجري لهم وعذاب يلحق بهم...

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ كلام مستأنف وبيان لحقيقة أمرهم وأنهم سيقولون الحقيقة يوم القيامة فلا زيف أو كذب أو غش، فهم مضطرون لقول الحق والصدق وهذا معنى ظاهر من الآية.

---

(١) النبأ/ ٤٠.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿لَا تَقۡرَبُواْ﴾: القرب: ضد البُعد، إذا قيل: لا تقرب بفتح الراء كان معناه لا تَلبس بالفعل، وإذا كان بضم الراء كان معناه: لا تدنُ منه.

﴿سُكَٰرَىٰ﴾: جمع سكران، والسكر نقيض الصحو، فالسكران قد انقطع عما كان عليه من العقل.

﴿جُنُبًا﴾: الجُنب: لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع والأصل البعد كأن الجُنب بَعُد بخروج المني منه عن الصلاة.

﴿عَابِرِي﴾: من عبر، والعبور للطريق: قطعه واجتيازه من جانب إلى آخر.

﴿سَبِيلٍ﴾: السبيل: هو الطريق.

﴿تَغۡتَسِلُواْ﴾: غسلت الشيء غسلاً: أسلت عليه الماء فأزلت درنه، والغُسْل: الاسم.

﴿مَّرْضَىٰٓ﴾: جمع مريض، والمرض: هو خروج البدن عن حد الاعتدال.

﴿سَفَرٍ﴾: السفر: هو قطع مسافة معينة شرعاً.

﴿ٱلْغَآئِطِ﴾: الحدث، وأصله ما انخفض من الأرض، وكانت العرب تقصد تلك الأماكن لقضاء حاجتها تستراً عن أعين الناس، فسمي الحدث الخارج من الإنسان غائطاً للمقارنة.

﴿لَٰمَسْتُمُ﴾: اللمس: إدراك بظاهر البشرة ويكنى به عن الجماع.

﴿تَيَمَّمُوا﴾: التيمم لغةً: هو القصد إلى الشيء، وشرعاً الطهارة الترابية المعروفة.

﴿صَعِيدًا﴾: الصعيد: وجه الأرض.

﴿طَيِّبًا﴾: الطيب: يقصد به هنا الطاهر.

﴿فَٱمْسَحُوا﴾: المسح: إمرار اليد على الشيء وإزالة الأثر عنه.

﴿عَفُوًّا﴾: العفو: ما يسهل قصده وتناوله.

﴿غَفُورًا﴾: الغَفْر: إلباس ما يصونه من الدنس، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب.

## التفسير

ذكر سبحانه فيما تقدّم أمراً واضحاً بعبادته وعدم الإشراك فيه ذاتاً وعبادة، وأن على العبد أن يلتزم جانب العبودية لله فيوحّده ويعبده، وهنا أراد سبحانه أن يبيّن أوضح المصاديق إلى عبادته فذكر الصلاة وبعض شروطها ومقدماتها...

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب إلى المؤمنين لأنهم المنتفعون بهذا الخطاب العاملون به أو لأنهم أهل الخطاب فخاطبهم الله وإلاّ فإن التكاليف تشمل جميع المكلفين من الناس...

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ النهي في: ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ أقوى من أي تعبير آخر يدل على المنع، لأن مجرد القرب منهي عنه فكيف غيره، والمراد بالقيام إلى الصلاة التوجه إليها وإرادتها...

واختلف المفسرون بالمراد من ﴿الصَّلَوٰةَ﴾ كما اختلفوا في المراد من كلمة ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ وتبعاً لاختلاف المراد منهما اختلف معنى الآية واختلفت الأحكام المترتبة عليها والمستفادة منها...

قالوا: إن ﴿الصَّلَوٰةَ﴾ هنا يراد بها الصلاة المعروفة ذات الأركان المخصوصة والأجزاء والشروط.

٢ ـ أن يراد بالصلاة مواضعها ـ وهي المساجد ـ فيكون الكلام مبني على حذف المضاف لا تقربوا مواضع الصلاة، وهذا كثير في اللغة وله شواهد كما أن قوله تعالى﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ أريد به ذلك...

٣ ـ قيل: إنه سبحانه أراد به كلا المعنيين معاً...

وأما المراد بالسكارى فأحد معنيين..

١ ـ أن يراد بالسكر هنا ما يكون من شرب الخمر، والمسكر الذي يفقد الإنسان من خلال تناوله عقله وتوازنه...

٢ ـ أن يراد بالسكر هنا سكر النوم، وقد قال به جملة من المفسرين ووردت به الروايات.

وأما قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ فهو المسافر، والعبور: هو الاجتياز وقطع الطريق..

فعلى المعنى الأول من تفسير الصلاة وتفسير السكر يصبح المعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾.. ولا جنباً إلاً مسافرين سفراً يقع فيه التيمم فتصلُّون كذلك...».

وعلى المعنى الثاني يصبح المعنى الثاني «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد» أي لا تدخلوها وأنتم في حالة السكر من النوم أو الشراب... ولا جنباً إلاّ مجتازين فيها من غير استقرار حتى تغتسلوا...

وهذا الحكم ـ جواز المرور في المساجد من دون لبث وفيها حكم عام ـ باستثناء المسجدين المباركين المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ فإنه يحرم المرور بهما والاجتياز لهما بأي صورة من الصور، وهذا الاستثناء استفيد من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام...

يبقى أن نذكر هنا أمراً يخصّ مولى المتقين الإمام علي (حيث ذَكرَ) من يغتصب نفسه اغتصاباً عند ذكره منقبة لأهل البيت عليهم السلام.

قال القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) وهو يفسر هذه الآية، ما نصّه:

«وقد روي عن النبي ﷺ: أنه لم يكن أَذِنَ لأحد أن يمر في المسجد أو يجلس فيه إلاّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ورواه عطيّة العوفي عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لمسلم ولا يصلح أن يُجنِب في المسجد إلا أنا وعلي».

قال علماؤنا: هذا ويجوز أن يكون ذلك لأن بيت علي عليه السلام كان في المسجد، كما كان بيت النبي ﷺ في المسجد، وإن كان البيتان لم يكونا في المسجد ولكن كانا متصلين بالمسجد وأبوابهما كانت في المسجد فجعلهما رسول الله ﷺ من المسجد، فقال: ما ينبغي...

والذي يدل على أن بيت علي كان في المسجد ما رواه ابن شهاب عن سالم بن عبد الله.

قال: سأل رجل أبي عن علي وعثمان (رضي الله عنهما) أيهما كان خيراً؟

فقال له عبد الله بن عمر: هذا بيت رسول الله ﷺ وأشار إلى بيت علي إلى جنبه لم يكن في المسجد غيرهما.

وذكر الحديث فلم يكونا يجنبان في المسجد، وإنما كانا يجنبان في بيوتهما وبيوتهما من المسجد إذ كان أبوابهما فيه فكانا يستطرقانه في حال الجنابة إذا خرجا من بيوتهما، ويجوز أن يكون ذلك تخصيصاً لهما، وقد كان النبي ﷺ خُصّ بأشياء فيكون هذا مما خُصّ به، ثم خصّ النبي ﷺ علياً عليه السلام فرخّص له في ما لم يرخّص فيه لغيره، وإن كانت أبواب بيوتهم في المسجد، فإن كان في المسجد أبواب بيوت غير بيتيهما حتى أمر النبي ﷺ بسدها إلاّ باب علي.

وروى عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: سُدّوا الأبواب إلا باب علي فخصه عليه السلام بأن ترك بابه في المسجد، وكان يجنب في بيته وبيته في المسجد. انتهى كلامه»...

أقول: إن هذا الكلام اعتراف بالحقيقة، ولا أدري كيف أنطق الله به هذا الرجل الذي يحاول أن يحرّف كل منقبة لعلي عليه السلام ويحوّلها عنه... نعم إرادة الله شاءت أن تقهر أعداء علي عليه السلام على ذكر مناقبه لتقام الحجة عليهم من أنفسهم ومن كلامهم...

وهذه المنقبة تجعل علياً كالنبي ﷺ وتستطيع أن تقرأ من خلالها الوحدة الرسالية وامتدادها في علي بعد النبي ﷺ وبالتالي فهي واحدة من مئات، بل آلاف من أمثالها من المناقب المختصة بالإمام علي عليه السلام ولا تخفى دلالتها الناطقة على أهمية هذا الرجل وعظمته.

ونرجع إلى الآية فنقول أن قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ يكون المستثنى هو عدم العبور في المساجد وعدم الاستقرار فيها، ويكون المعنى: لا تقربوا الصلاة جنباً في المساجد وغيرها، ولا يجوز دخول الجنب المساجد إلاّ عابر السبيل.

قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ تكرار النهي لبيان أن الجنابة برأسها مانعة من الصلاة حتى يغتسل المجنب.. أي لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب حتى تغتسلوا إلاّ أن تكونوا مسافرين ولم تجدوا ماء فتيمموا.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ هذه الآية تسمى آية التيمم وفيها يشرّع الله للمسلمين البدل عن الغسل والوضوء - إذا تعذّر كل منهما - وهي المعبّر عنها بالطهارة الترابية وقد أباحها الله لعدة حالات:

١ - المرضى ومفرده: المريض.

والمرض حالة طارئة على الإنسان تصيبه فتغيّر توازنه واستقراره، وهي تختلف شدة وضعفاً، فتارة تقعده عن الحركة وأخرى تفقده استقراره، والآية الكريمة تطلق المرض ولا تقيده، فمن صدق عليه مثل ذلك حلّ له التيمم وسقط عنه فرض الوضوء بالماء.

ولكن الفقهاء اشترطوا لسقوط الوضوء أو الغسل ووجوب التيمم أن يكون في الوضوء أو الغسل حدوث المرض أو زيادته أو تأخر الشفاء، فإذا لم يحدث شيء من ذلك يبقى عليه أن يستعمل الوضوء والغسل...

في الصحيح عن الرضا عليه السلام: في الرجل تصيبه الجنابة وبه قرح أو جرح أو يخاف على نفسه البرد؟

قال: لا يغتسل.. يتيمم..

٢ - ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أو كنتم على سفر لا يحصل لكم فيه الماء كما يرشد إليه تنكير ﴿سَفَرٍ﴾ وهذا من الجري على الغالب من أن فقد الماء يكون في السفر في البراري والصحاري، فإذا فقد المسافر الماء وجب عليه التيمم.

٣ - ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ والغائط في اللغة: المنخفض من الأرض كان يُقصد لقضاء الحاجة لأنه يستر الإنسان عن أعين الناس، سمّي الحدث به تسمية للحال باسم المحل....

حمل بعضهم ﴿أَوْ﴾ على معنى الواو ولكن الصحيح أن ﴿أَوْ﴾ تبقى على

معناها وتكون للتقسيم والتنويع، والمعنى: «إن كنتم مرضى أو كنتم صحاحاً مسافرين أو صحاحاً حاضرين وحصل لكم الغائط. . . فتيمموا. . .».

وعلى كل حال. . فقد بيّنت السنة أن الغائط يفسد الطهارة، ويجب على من أرادها أن يتيمم إذا عجز عن استعمال الماء لعذر. . .

٤ ـ ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ اختلفوا في المراد من كلمة ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾ فبعضهم حملها على مطلق المس وإن كان باليد أو غيرها من أجزاء البدن.

وحملها البعض الآخر على خصوص الجماع، وبهذا وردت السنة وعيّنت المراد من هذه الكلمة.

فقد ورد عن الصادق عليه السلام ـ في الصحيح ـ عن[1] حماد بن عثمان قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قال: هو الجماع، ولكن الله ستّير يحب السّتر فلم يسمّ كما تسمون.

ومثله أحاديث كثيرة نقطع من خلالها: أن مجرد اللمس لا يكفي بل لا بد من الجماع. . .

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فهؤلاء إذا لم يجدوا الماء أو كان وجوده كعدمه إمّا لقلته أو لعدم إمكان استعماله لمرض أو غيره، فيجب أن يقصدوا وجه الأرض الطاهر ويتيمموا به. . .

والتيمم وإن كان معناه لغة القصد، ولكنه يقصد به هنا الطهارة الترابية.

كما أن الصعيد يطلق على مطلق وجه الأرض، وهو يعمّ التراب والحجر والمدر والرمل وغيرها دون ما أنبتت الأرض.

وأمّا الطيّب فهو الطاهر، وإن قال بعضهم الحلال وقال آخرون أنه التراب المنبت. . .

(١) الكافي، كتاب النكاح، ج٥، باب النوادر، ص٥٥، حديث ٥.

ثم بيّن سبحانه كيفية التيمم، فقال:

﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ هذا بيان لكيفية التيمم.. وأنه إذا قصدتم وجه الأرض وضربتم بأيديكم عليها ـ المفهوم من التيمم ـ فامسحوا بأيديكم بعض وجوهكم وأيديكم.

وقد حدّدتْ السنة الشريفة عدد الضرب بالأيدي على الصعيد كما حدّدت ما يمسح من الوجه واليدين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي يقبل السهل ويقبل اليسر من عباده لئلا يقعوا في الحرج، كما أنه يغفر لهم ذنوبهم ويسترها عليهم فلا يؤاخذهم بها.

وقد وضع العلاّمة «المقداد السيوري» في كتابه «كنز العرفان في فقه القرآن» عناوين كلية تعطيها هذه الآية الكريمة، وإن كان بعضها قابل للمناقشة فيه، وهي بمجملها لطيفة، نذكرها كما هي:

١ ـ تحريم السكر لكونه منافياً للواجب.

٢ ـ نقضه الوضوء.

٣ ـ إبطاله الصلاة.

٤ ـ وجوب قضاء صلاة وقعت حالة السكر.

٥ ـ كون عدم التعقل مبطلاً للطهارة فيدخل فيه النوم والإغماء والجنون.

٦ ـ كون ذلك مبطلاً للصلاة.

٧ ـ كون الجنابة ناقضة للوضوء.

٨ ـ كونها مبطلة للصلاة.

٩ ـ كونها موجبة للغسل.

١٠ ـ كون التيمم لا يرفع حدث الجنابة بل يبيح معها الصلاة.

١١ ـ احترام المساجد.

١٢ ـ منع السكران وشبيهه من دخولها.

١٣ ـ منع الجنب من الاستقرار فيها.

١٤ ـ تسويغ الجواز فيها.

١٥ ـ كون الغسل رافعاً لحكم الجنابة.

١٦ ـ عدم افتقار الغسل إلى الوضوء لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ وإلاّ لكان بعض الغاية غاية وهو باطل.

١٧ ـ تسويغ التيمم.

١٨ ـ كونه يقع بدلاً من كل واحد من الوضوء والغسل.

١٩ ـ إباحته حال المرض المتضرر باستعمال الماء.

٢٠ ـ كونه مباحاً إمّا للعجز عن الماء بالضرر باستعماله والغسل.

٢١ ـ كون وجود الماء ناقضاً للتيمم.

٢٢ ـ كون الغائط ناقضاً للوضوء موجباً له.

٢٣ ـ كون الجنابة تقع بمجرد الوطىء من غير إنزال.

٢٤ ـ كون وجوب التيمم بالتراب.

٢٥ ـ جوازه بالحجر الصلب لصدق اسم الصعيد عليه.

٢٦ ـ وجوب كون الصعيد طاهراً.

٢٧ ـ وجوب كونه مباحاً.

٢٨ ـ وجوب مسح الوجه واليدين.

٢٩ ـ كون الوجه يراد به بعضه لمكان الباء عند القائل بذلك وكذلك اليد لعطفها على الوجه.

٣٠ ـ وجوب الابتداء بمسح الوجه لفاء التعقيب.

٣١ ـ وجوب الموالاة إن قلنا الأمر للفور.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

## اللغة

﴿أُوتُوا۟﴾: أُعطوا.

﴿نَصِيبًا﴾: حظاً، سهماً.

﴿يَشْتَرُونَ﴾: يستبدلون.

﴿ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: الطريق.

﴿بِأَعْدَآئِكُمْ﴾: الأعداء جمع عدو، وجمع الجمع: أعادي، والعدو: هو الخصم وهو ضد الصديق والولي.

﴿كَفَىٰ﴾: الكفاية: ما فيه سد الخلة وبلوغ المراد في الأمر.

﴿وَلِيًّا﴾: ناصراً، والولي: الذي يتولى شؤون غيره ويقوم بها.

﴿نَصِيرًا﴾: النصر والنصرة: العون.

## التفسير

يوجه الله في هذا الاستفهام نظر نبيه، وبصيغة التعجيب إلى الجرم العظيم الذي قام به وفعله أهل الكتاب ـ اليهود ـ الذين أعطوا حظاً قليلاً من علم التوراة وما فيها، ثم انحرفوا عنها وعن العمل بما فيها ويريدون أيضاً مع انحرافهم أن يحرّفوا المؤمنين عما هم عليه من الحق والهدى...

والخطاب وإن توجّه إلى النبي ﷺ فإنه يشمل أتباعه لكي ينظروا أيضاً ويفكروا في هؤلاء القوم الأشرار.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ألم تنظر يا محمد! نظر اعتبار وتفكّر في هؤلاء القوم الذين أعطوا بعض ما في التوراة وعلموا ما فيها... إنه يأخذ نبيه في هذا الاستفهام إلى التعجيب من اليهود الذين أخذوا نصيباً ـ حظاً قليلاً ـ من الكتاب وهو التوراة حيث وقفوا على نبوة موسى وبعض معجزاته ثم اقتصروا على ذلك ولم تتسع نفوسهم للإيمان بالأنبياء بعده...

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ هذا موضع التعجيب ومحله إنهم قوم يتركون الإيمان ويتبعون الكفر من حيث أن الأدلة قامت على نبوة النبي محمد ﷺ ووقعت المعجزات عن يديه وهي تدل على صدق ما جاء به، ومع ذلك يتركون الإيمان به ويصرّون على مواقفهم المعاندة له ولما حمله إليهم من الهدى والخير...

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ لا يكفيهم ما هم فيه من كفر وانحراف وإصرار على العناد حتى أنهم يريدون للمسلمين أن ينحرفوا عما هم عليه من الهدى، وما آمنوا به وذهبوا إليه، إنها النفوس المريضة تسعى جاهدة ما استطاعت أن تحرّف المؤمنين إلى مواقع الانحراف والفساد... إنها نفوس فاسدة وتريد أن تفسد الآخرين.

﴿وَيَشْتَرُونَ﴾ و﴿يُرِيدُونَ﴾ كلٌ منهما صيغة مضارع تفيد التجدد والاستمرار، فهم باقون على نفس الطريقة لم ينقطعوا أو يتوقفوا إلى اليوم وسيبقون هكذا طالما بقي منهم يهودي...

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ﴾ الله سبحانه أعلم بأعدائكم منكم أيها المؤمنون، ومن أعدائكم هؤلاء اليهود فاحذروهم كما حذّركم الله منهم واتركوا موالاتهم فإنهم لا يريدون بكم خيراً...

تجافى سبحانه عن ذكرهم بالاسم ترفعاً عنهم وأدخلهم في العام...

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ اتركوا موالاة هؤلاء القوم واقتصروا على ولاية الله، فولايته لكم تكفيكم وتغنيكم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ في نصر الله لكم ومعونته كفاية ولا تحتاجون معها إلى نصير أو معين...

وأعاد ذكر الكفاية، وذكر الله تأكيداً ومبالغة...

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿هَادُوا۟﴾: أصل الهود: الرجوع، ويطلق على اليهود، وهادى فلان: إذا تهوّد.

﴿يُحَرِّفُونَ﴾: حرْف الشيء: طرفه، وتحريف الشيء: إمالته، وتحريف الكلام: أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين.

﴿ٱلْكَلِمَ﴾: جمع كلمة، والكلام: هو اللفظ الذي له معنى.

﴿مَّوَاضِعِهِۦ﴾: أماكنه.

﴿رَٰعِنَا﴾: مراعاة الإنسان للأمر: مراقبته، انظرنا نكلمك.

﴿لَيًّۢا﴾: أصل اللي: الفتل.

﴿أَلْسِنَتِهِمْ﴾: جمع لسان: وهو حاسة الكلام، والعضو المخصوص، ويطلق على اللغة.

﴿وَطَعْنًا﴾: الطعن: الضرب بالرمح وبالقرن وما يجري مجراهما، واستعير للوقيعة...

﴿ٱنظُرۡنَا﴾: قيل: إن معناه انتظرنا وأمهلنا، وقيل: من النظر الذي فيه عناية ولطف.

﴿أَقۡوَمَ﴾: أعدل وأصوب.

## التفسير

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ هذه بعض أفعال أهل الكتاب ـ من اليهود ـ وهذه طريقتهم الدائمة.

فإن كانت ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ بيانية للذين أوتوا الكتاب فيكون هذا دأبهم وديدنهم جميعاً ولا يستبعد ذلك عنهم أو يستغرب منهم وهذه طريقة مجتمعهم في كل عصر ومصر.

وإن كانت ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ خبر مقدّم والمبتدأ محذوف فيصبح المعنى «ومن الذين هادوا قوم يحرفون...» فتصبح القضية في حدود الجزئية التي يتولاها الرؤساء والزُّعماء وأصحاب النفوذ فيهم...

وعلى كل حال.. هؤلاء اليهود ـ أو بعضهم ـ يحرّفون الكلم عن مواضعه ـ يتأولون الألفاظ الواردة في التوراة.

إنها طريقة صرف اللفظ عن معناه الظاهر والأخذ به إلى معانٍ بعيدة لا تراد منه وهذه من أسوأ الانحرافات وأشدها ضرراً حيث.. يخرج المعنى الأصيل ويهمل، ثم يعتمد المعنى الغريب ويعتمد، وإذا تبدّل المعنى تبدّل العمل والمضمون وبالتالي يفسد كل ما يترتب عليه...

وأيضاً هناك صلف يهودي وغرور وتكبر، حيث ينقل الله عنهم قولهم في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾.

إنهم يقولون: ﴿سَمِعۡنَا﴾ يا محمد! كلامك ولكنهم يردون عليه بصلف وقلة حياء:

﴿وَعَصَيْنَا﴾ إنهم متمردون مستهزءون لا يراعون آداباً ولا يحترمون أعرافاً ولا يقيمون للقيم وزناً. . .

وأيضاً يقولون: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ واسمع منا ما نقول لا سمعت، فهم يطلبون منه أن يستمع ويدعون عليه. . .

وكلمة ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ تحتمل الخير والشر فلها وجهان: وأصلها للخير أي لا سمعت مكروهاً، ولكنهم لخبثهم ومكرهم وكيدهم كانوا يقصدون بها الدعاء على الرسول، أي لا أسمعك الله وهو دعاء بالصمم أو بالموت.

وكلمة ﴿مُسْمَعٍ﴾ بفتح الميم الثانية.

﴿وَرَٰعِنَا﴾ وهذه كلمة كان يستعملها المؤمنون ويقصدون بها. . أن ينتظر النبيﷺ عليهم حتى يستوعبوا ما يقوله ويفهموا ما يتكلم به، ولكن اليهود كانوا يقصدون بها سبّه وإهانته فيقصدون بها الرعونة. . وهي الحمق، فكانت منهم كلمة شتيمة ولذا قال تعالى في البقرة ناهياً المؤمنين عن استعمالها حتى لا يبقى لليهود ذريعة يستعملونها في سبّ النبي ﷺ وشتمه، فقال سبحانه: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾[1].

وأيضاً قال سبحانه هنا: ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾[2] مما يوحي أنهم كانوا يستعملونها محرِّفين لها. . حيث يخرجون بها من الحق إلى الباطل وقادحين من خلالها في الإسلام والدين، لأنهم كانوا يستهزءون من خلالها بالنبي ﷺ وهذا يحط من شأنه وبالتالي يفقد قوله القبول، وهذا أعظم الطعون وأشدها على الدين. . .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ هذا بيان لطريق الحق وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجب أن يقولوه. . . ولو أنهم قالوا سمعنا

---

(١) البقرة/ ١٠٤.
(٢) النساء/ ٤٦.

وأطعنا بدل أن يقولوا سمعنا وعصينا... لأن مقتضى مَنْ يستمع.. أن يطيع ويلتزم ويطبّق.. وكذلك لو قالوا: ﴿وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾ بدل قولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ لأن اسمع وانظرنا لا تحتمل غشاً ولا تهمة ولا استهزاءً بل تحمل العطف، وأن ينظر إليهم النبي ﷺ بعين الرعاية واللطف حتى يستوعبوا منه ما يريد أن يقوله لهم ويفهموا عنه ما يخاطبهم به...

لو أخذوا بما أمرهم الله به لكان خيراً لهم، لأنه الحق والصدق.. ولأنهم باستجابتهم لرسول الله يحققون سعادتهم وما فيه عزتهم وكرامتهم...

﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي أعدل وأصوب وأقرب إلى الحق...

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم وإصرارهم على الكفر طردهم الله من رحمته وسيذيقهم حرّ ناره وما أعدّه للكافرين...

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلا يؤمن منهم إلاَّ قلة قليلة وهم أصحاب البصائر والضمائر الذين انصاعوا للحق والمنطق وآثروا ما جاءهم من البينات على الأهواء والميول والشهوات...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿نَّطْمِسَ﴾: الطمس: محو الشيء وإزالة آثاره.

﴿وُجُوهًا﴾: الوجوه: جمع وجه، وهو ما يستقبلك من الشيء ويظهر منه، ووجه الإنسان المقدم: الظاهر من الرأس وما يستقبلك منه.

﴿فَنَرُدَّهَا﴾: ردّ الشيء: أرجعه.

﴿أَدْبَارِهَآ﴾: الإدبار: جمع الدُّبر: وهو القفا.

﴿نَلْعَنَهُمْ﴾: اللعن: الطرد والإبعاد.

﴿ٱلسَّبْتِ﴾: يوم من أيام الأسبوع يقع بين الجمعة والأحد، وأصحاب السبت: قوم من اليهود مسخهم الله قردة وخنازير.

﴿مَفْعُولًا﴾: نافذاً واقعاً.

## التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذا الخطاب متوجّه إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى، وذكّرهم بوصف عظيم لعلهم من خلاله يعودون إلى أنفسهم وتشدهم هذه الصفة للعودة عمّا هم عليه من الضلال إلى اتباع الحق والإيمان والقيام بمتطلباتهما...

وقيل: إن المقصود بأهل الكتاب هنا هم خصوص اليهود...

﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ دعوة إلى الإيمان بالقرآن الذي نزل على النبي محمد ﷺ حال كونه مصدِّقاً لما معهم من التوراة وما فيها من البشائر بالنبي ﷺ وبيان الصفات العامة لله...

إنه خطاب شديد اللهجة يحمل معه التهديد والوعيد لهؤلاء القوم - اليهود - الذين قامت لديهم الحجج والبراهين على صدق النبي ﷺ وأنه مرسل من عند الله، وأن القرآن كلام الله الذي يحمل معه تصديق التوراة ويأمرهم باتباع الرسول واقتفاء أثره..

إن هؤلاء القوم - اليهود - بعد أن قامت الحجة عليهم بنبوة النبي محمد ﷺ وصدق ما جاء به من عند الله، إن هؤلاء القوم إذا رفضوه وكفروا به وعاندوه ولم يؤمنوا به كانوا أمام إحدى عقوبتين شديدتين لا يُقدم عليهما إلا شقي سيء الحظ...

١ - إمّا أن يؤمنوا أو يطمس الله وجوههم ويردها على أدبارها...

إنها عقوبة رفض الحق وعدم الانصياع للحجج والبراهين القاطعة...

وقد اختلف في كيفية الطمس للوجوه وردِّها على أدبارها.

فقيل: إنه أمر مادي صوري حيث تمحى صور الوجوه وأشكالها وما فيها من

محاسن لتتحول بدون عيون وأنوف وحواجب وملامح، وتردّ هذه إلى القفا لتكون أشد إيلاماً وقساوة. . .

وقيل: إن هذا الطمس والرد على الأدبار أمر معنوي يُسَلبُ من خلاله هؤلاء القوم كل توفيق وتسديد فيتخلى الله عنهم فلا يعودون يسيرون نحو الهدى والحق والإيمان، بل كلما أرادوا ذلك حيل بينهم وبينه وفقدوا بذلك القابلية التي بها يربحون السعادة والتوفيق. . .

وهذه العقوبة متجانسة مع الجرم الذي أقدموا عليه من حيث أقدموا على تحريف الكلم عن مواضعه وغيّروه عن مواقعه، فكان هذا الطمس والرّد للوجوه على الأدبار متجانساً معه ومشاكلاً له. . .

وأما العقوبة الثانية، فهي:

٢ ـ ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ هذه هي العقوبة الثانية المترتبة على عدم الإيمان بالنبي ﷺ وما جاء به، إنها عقوبة المسخ كما مسخ أصحاب السبت حيث مسخهم الله لمخالفتهم أوامره ونواهيه ـ قردة وخنازير. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾[1].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ما أراده الله كان أمراً نافذاً وواقعاً لا محالة، وما قضاه وحكم به كائن بدون شك. . .

(١) البقرة/ ٦٥.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿لَا يَغۡفِرُ﴾: الغفر: إلباس ما يصونه من الدنس، والغفران والمغفرة من الله: هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب.

﴿يُشۡرَكَ﴾: الشرك بالله: أن يثبت شريكاً مع الله.

﴿ٱفۡتَرَىٰٓ﴾: أصله من الفري: وهو القطع، ويستعمل في اختلاق الشيء وفي الكذب...

﴿إِثۡمًا﴾: الإثم: فعل ما لا يحل، الخطيئة.

## التفسير

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ هذه الآية الكريمة تتضمن الوعيد مع الوعد وترسم لهذا الإنسان خطاً إذا تجاوزه أبطل كل أعماله وهوى في النار خالداً فيها وبئس المصير.

أخذ سبحانه على نفسه أنه لا يغفر لمن يشرك به، لأن الشرك بالله ـ عقيدة ـ على مستوى السُم للبدن، فيما لو تناوله الإنسان يقتل البدن وينهي الحياة، ولا تعود تنفع معه الأدوية والعقاقير، وكذلك الشرك بالله يقتل العقيدة ويفسد مدلولها ويعطل أثرها لأنه يقطع العلاقة مع الله من جميع وجوهها وجوانبها ويسدّ كل منافذ النور أن تصل إلى هذه الروح. . .

الشرك بالله له ألوان وصور. . فهناك شرك في الذات كمن يجعل مع الله إلهاً آخر وهو أبشع أنواع الشرك وأشدّه إسفافاً وسقوطاً لمخالفته لبديهيات العقل وضرورياته ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١].

وهناك شرك في الصفات كمن يجعل لغير الله صفات الله فيجعل لكائن سماوي أو أرضي جنيٍّ أو إنسيّ صفة الخلق والرزق والإحياء والإماتة بقطع النظر عن الله وإذنه في هذه الأشياء.

وهناك شرك في العبادة، فيتوجه إلى غير الله بالعبادة كما يتوجه إليه بالعبادة، وهكذا دواليك إلى آخر أنواع الشرك، وكلها تنطوي وتنضوي تحت عنوان الشرك بالله، والله سبحانه لا يغفر لمن يعتقد ذلك ويفعله. . .

وينبغي أن يلاحظ أن التعبير بالمضارع ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ يدل على أن الشرك إذا بقي مستمراً إلى الموت، فإن الله لا يغفره لصاحبه. . .

وكذلك ينبغي أن يلاحظ أن عدم المغفرة لمن يشرك ليس لعجز في قدرة الله، وإنما لعدم قبول المحل للمغفرة، حيث أن المشرك أفسد الفطرة وأوجد المانع عن المغفرة. . .

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهذا وعد يبلسم الأرواح فتشرئب لرحمته وتتطلع لعفوه ومغفرته. .

الذنوب جميعها ـ ما عدا الشرك ـ صغير الذنوب وكبيرها قليلها وكثيرها

---

(١) الأنبياء/ ٢٢.

تدخل تحت هذه الآية وتنطوي في طياتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[1] «ما عدا الشرك بالله» ولكن لله المشيئة، هو الذي إن شاء غفر وإن شاء لم يغفر بحسب ما تقتضيه الحكمة...

والتعليق على مشيئة الله من حيث أن الله بيده الأمور، وكلها تحت سلطانه، تخضع لإرادته، لم يُسلب القدرة والاختيار، وأيضاً لئلا يغترّ الناس فيدب الطمع في نفوسهم برحمة الله فيتركوا العمل اتكالاً على عفو الله...

وفي كتاب (التوحيد) للصدوق عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: ما في القرآن آية أحب إليّ من قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ يكشف سبحانه عن الجرم العظيم الذي يقدم عليه ويرتكبه من يشرك بالله، حيث يقدم على تزوير أجلى حقيقة واضحة في الفطرة البشرية يعيشها العقل والضمير والوجدان في كل ذرة من ذرات هذا الكون الكبير...

من يشرك بالله فقد جاء بأعظم افتراء على الذات الإلهية يصغر أمامه كل افتراء، كما أن إثم هذا الافتراء من أعظم الآثام، حيث يحكم على صاحبه بأشد العذاب وأقسى العقاب فيدخله الله النار خالداً فيها...

---

(١) الزمر/٥٣.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يُزَكُّونَ﴾: الزكاة: في الأصل النمو، ومنه زكا الزرع: إذا نما، وتزكية النفس: تطهيرها من الرذائل والآثام.

﴿فَتِيلًا﴾: الخيط في شق النواة.

﴿انظُرْ﴾: النظر: إقبال على الشيء بالبصر، ومنه النظر بالقلب لأنه إقبال به.

﴿يَفْتَرُونَ﴾: الافتراء: الاختلاق والكذب.

﴿كَفَىٰ﴾: الكفاية ما فيه سد الخلة وبلوغ المراد في الأمر.

﴿إِثْمًا﴾: الإثم: فعل ما لا يحل، الخطيئة.

﴿مُّبِينًا﴾: ظاهراً منكشفاً.

## التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ الخطاب إلى رسول الله ﷺ وفيه تعجيب

من حال اليهود الذين أخذوا في تزكية أنفسهم فقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[1] وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[2] وغيرها من الدعاوي الباطلة التي انتفخوا من جرّائها فراحوا زوراً وضلالاً يمتدحون أنفسهم ويعلون بها على الناس. . .

إنهم يريدون تعظيم أنفسهم فيدّعون لها من الصفات الكريمة ما ليس فيها. . . إنها عادة جرت في اليهود والنصارى ويمكن أن تجري في كل قوم أو فرد يأخذ بهذه الطريقة وينهج هذا النهج السخيف. . .

وصيغة ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ استفهام يراد به التعجب والإنكار كما أن فيه تنبيه على رداءة ما ذهبوا إليه وارتأوه. . .

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ هذا نفي لما قام به اليهود من تزكية أنفسهم وإثبات أن التزكية الحقيقية تكون من الله، فهو سبحانه الذي يعلم النفوس الطيبة والقلوب الخيّرة والأعمال الصالحة فيمتدح الأنبياء والأئمة والأولياء والأوصياء وأهل التقوى والإيمان. . .

إنه سبحانه الذي يعلم القلوب والنوايا فيزكي الأخيار والأبرار، وأما اليهود والنصارى فلا تنفع تزكيتهم لأنفسهم لأنهم خونة متمردون يعيشون الإثم والمعصية.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يرجع إلى الذين يزكون أنفسهم وأن الله يحاسبهم بالعدل فيعطيهم جزاء فعلهم دون ظلم لهم أبداً. . والتعبير بالفتيل الذي هو الخيط في شق نواة التمر تعبير يراد به عدم الظلم أبداً مهما كان صغيراً ويضرب به المثل للشيء التافه الحقير. . .

وقيل: أن ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ يرجع إلى الذين زكّاهم الله وأن ثوابهم يرجع إليهم بدون أن ينقص منه شيئاً. . .

---

(١) المائدة/ ١٨.

(٢) البقرة/ ١١١.

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يلفت الله نظر النبي ﷺ إلى افتراء هؤلاء القوم من حيث يكذبون على الله في ادعائهم أنهم أقرب الناس إليه وأحبهم لديه... إنهم يختلقون ما ليس له حقيقة وينسبونه إلى الله فيدّعون كذباً وزوراً ما ليس لهم بحق...

﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ أي كفى بهذا الكذب على الله والافتراء عليه زوراً ظاهراً وإثماً بيّناً مكشوفاً...

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿أُوتُوا﴾: أعطوا.

﴿نَصِيبًا﴾: حظاً وسهماً.

﴿بِالْجِبْتِ﴾: الجبت: ما لا خير فيه، اسم الصنم، كل ما يُعبد من دون الله.

﴿الطَّاغُوتُ﴾: مصدر في الأصل من الطغيان، قيل: كل معبود من دون الله.

﴿سَبِيلًا﴾: السبيل: الطريق.

﴿لَعَنَهُمُ﴾: من اللعن: وهو الطرد والإبعاد.

﴿نَصِيرًا﴾: النصير: المعين.

## التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ

﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ٥١﴾ ذكروا في سبب نزول هذه الآية المباركة.. أن جماعة من اليهود ـ بعد وقعة أحد ـ خرجوا من المدينة إلى مكة ليحالفوا قريشاً ضد النبي ﷺ فطلب منهم المشركون أن يسجدوا لأصنامهم فسجدوا، ثم قال أبو سفيان لكعب بن الأشرف رأس اليهود «إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أُمّيون لا نعلم فأيّنا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق نحن أم محمد؟

فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد فأنزل الله تعالى هذه الآيات...

وسواء صح سبب النزول أم لم يصح فالآية تنطق بهذا المعنى، وهي تحكي قصة اليهود مع النبي ﷺ والمسلمين، ويحكي الله مقولتهم الفاسدة الباطلة، وكيف خالفوا الحق والعدل وطمسوا كل خير من أجل الوصول إلى اتفاق مع قريش لحرب النبي ﷺ، وهكذا كانت طريقتهم ولا تزال حتى الآن وستبقى إلى آخر يوم في الدنيا وإن بقي فيها ولو يهودي واحد.

اليهود قوم يعبدون الشيطان ويشوهون الحق والعدل والصدق من أجل الوصول إلى أهدافهم الدنيئة...

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الخطاب إلى النبي ﷺ يعجّبه من طريقة اليهود وأسلوبهم الملتوي...

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إنهم يحملون بقايا التوراة وما فيها من تعاليم، وكان من حقهم أن يرعوا هذه البقية الباقية التي توصلهم بالأنبياء، ويلتقون من خلالها بالله الذي يجمعهم وجميع الأديان... ولكنهم خالفوا ذلك، إنهم قوم كشف عن قلوبهم الله في قوله تعالى:

﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ إنهم يؤمنون بالأصنام والأوثان وكل ما عُبد من دون الله... إنها طريقة اليهود باستمرار حيث يتخطون عقيدتهم ويتلبّسون بعقائد الآخرين سواء كانت عقيدة وثنية أو ملحدة أو كافرة أو لا عقيدة من أجل الوصول إلى غايتهم وما يريدون تحقيقه والوصول إليه...

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني يقول اليهود إلى مشركي مكة والعرب ويقولون للملحدين اليوم ولأهل الكفر ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ المشركون والكفار ـ المشركون الوثنيون ـ ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أي إن دين الكفر ـ إن صح أن للكفر دين ـ وطريقه وما يعتقده أهل الكفر والشرك ويؤمنوا به أفضل وأقرب إلى الحق من طريق المؤمنين وما هم عليه من دين وعقيدة. . .

إنهم يقفون في صف الكفر عقيدة وعملاً وقولاً ضد المؤمنين بالله ورسوله يمنعهم إيمانهم أن يؤمنوا بالجبت والطاغوت ولا يمنعهم إيمانهم أن يشهدوا زوراً وبهتاناً بأن ما عليه المشركون أحق وأهدى من الذي عليه المؤمنون. . .

إنها سياسة يهودية سار عليها السلف ويسير عليها الخلف من بعدهم وستبقى سيرتهم على امتداد الزمن. . .

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أولئك الذين يقولون هذه المقولة من اليهود، طردهم الله من رحمته وأبعدهم عن ساحة كرمه وجزاهم النار.

﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ من يُخرجه الله من رحمته ويبعده عن ساحته فليس هناك من أحد يعينه أو يرفع عنه العذاب الأليم. . . أمام إرادة الله تسقط الإرادات وتتعطل وتنفذ المشيئة الإلهية دون سواها. . .

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

## اللغة

﴿نَصِيبٌ﴾: حظ ونصيب.

﴿الْمُلْكِ﴾: من ملك، والمَلِكُ: هو المتصرف بالأمر والنهي، والمُلك: جمع أملاك، وملوك: ما يملكه الإنسان ويتصرف فيه.

﴿لَّا يُؤْتُونَ﴾: لا يعطون.

﴿نَقِيرًا﴾: النقير: النقطة التي على ظهر نواة التمر.

﴿يَحْسُدُونَ﴾: الحسد: تمنّي زوال نعمة من مستحق لها، وربما كان مع ذلك سعي في إزالتها.

﴿الْحِكْمَةَ﴾: إصابة الحق بالعلم والعقل، والحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام.

﴿صَدَّ﴾: الصدّ: المنع، والصرف: أعرض عن الشيء.

﴿جَهَنَّمُ﴾: اسم لنار الله الموقدة، قيل: أصلها فارسي معرّب.

﴿سَعِيرًا﴾: السّعر: التهاب النار.

## التفسير

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ذكر سبحانه وتعالى فيما تقدم بعض أفعال اليهود القبيحة من تحريفهم الكلم عن مواضعه، وقولهم ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾[١] وقولهم بتزكية أنفسهم زوراً، وإيمانهم بالجبت والطاغوت، وقولهم للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، بعد هذا كله ذكر سبحانه هنا أيضاً بعض قبائحهم ومساوئهم، وهي أنهم ليس لهم حظ من الملك، بل إنهم سوقة لم يعطهم الله ملكاً ولا سلطة ولم يعطهم معاش الناس وقوتهم...

ولو أنهم ملكوا وتسلّطوا لبخلوا أشد البخل وامتنعوا عن إعطاء الناس شيئاً، وقوله: ﴿لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ تعبير عن شدة بخلهم.

وكأن هذا يشير إلى أن الملك يستدعي الكرم والعطاء وهم خلو من ذلك، فلا يستحقون الملك وليس بأهل له... قلنا في معنى - النقير - في اللغة أنه اسم للنقطة التي على ظهر نواة التمر.

وهناك من قال أن النقير بمعنى المنقور، مثل قتيل: بمعنى المقتول. ويكون النقير هنا: هو المقدار اليسير الذي يأخذه الطير من الأرض بمنقاره.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ هذه خصلة أخرى قبيحة مستهجنة تتنافى وطبيعة الإيمان التي تفترض عدالة الله في التوزيع وحكمته في العطاء...

إن هؤلاء اليهود يحسدون الناس «محمداً وآله» على ما آتاهم الله وأعطاهم من النبوة والشرف والكرامة...

﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى: «بل» فهم يتمنون زوال هذه النعمة الإلهية التي خصّ الله

(١) النساء/٤٦.

بها نبيه وآله، إنهم يعيشون الحقد ويرون إكرام الله لهؤلاء الناس منغّصة لعيشهم مكدّرة لحالهم فيتمنون زوالها عنهم...

إن الحسد رذيلة منشأُها سوء الظن بالله واتهامه في عدله وحكمته، وهذا يزعزع أصل الإيمان وينسف جذوره ويقضي عليه، ولذا كانت الغبطة ـ أن يتمنى الإنسان وصول ما عند الغير من الخير إليه دون أن يزول عنه ـ محمودة دون الحسد ـ الذي يعني زوال النعمة عن الغير دون أن تصل إلى الحاسد ـ...

وقد وردت الروايات عن أهل البيت عليهم السلام أنهم هم المحسودون وأن أعداءهم هم الحاسدون وذلك من باب تطبيق هذه الكبرى عليهم، لأنهم أظهر الأفراد الذين حُسدوا على مقاماتهم الإلهية الرفيعة التي وضعهم الله فيها...

في أصول الكافي عن أبي الصباح الكناني، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: نحن قوم فرض الله (عز وجل) طاعتنا، لنا ﴿ٱلْأَنفَالُ﴾ ولنا صفو المال ونحن الراسخون في العلم ونحن المحسودون الذين قال الله ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ هذا تذكير لليهود بأن الله أعطى آل إبراهيم الكتاب ـ وهم أولاده من الأنبياء، أعطاهم الكتاب المنزل من الله، وأعطاهم الفهم والقضاء والملك العظيم على الناس فلماذا لم يحسد اليهود أولئك، فيجب أن لا يحسدوا محمداً وآله على ما أعطى آل إبراهيم، فالعطاء واحد اختُلف زمانه وأشخاصه، فيجب أن يجري على المتأخر ما جرى على المتقدم...

إن موقف اليهود من آل إبراهيم من حيث أعطاهم الله النبوة والحكمة والملك العظيم موقف القبول والرضى، فيجب أن يكون نفس هذا الموقف هو بعينه يجري في حق محمد وآله، ويجب عليهم أن يتقبلوه ويقبلوا به بدون حسد أو عداوة أو مواقف باطلة...

والملك العظيم - قيل: هو النبوة والرسالة - وما أولاهم الله من المقامات العالية والكلمة النافذة والسلطة القاهرة...

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴿٥٥﴾﴾ فمن آل إبراهيم من آمن لمن أعطاه الله الكتاب والحكمة وآتاه الملك العظيم، ومنهم من أعرض ولم يؤمن، وهذا الانقسام لم يوهن عزيمة من أعطاهم الله، ولم يفتّ في عضدهم، فهو تقوية للنبي ﷺ وتسلية له...

وقيل: إن من اليهود من آمن بمحمد ﷺ ومنهم من كفر به وأعرض عن الإيمان به...

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ هذا وعيد وتهديد لليهود الذين سعّروا الفتنة ضد النبي ﷺ وجمعوا جملة من الخصال القبيحة، فمن أعرض عن الإيمان بالنبي ﷺ وبما يدعو إليه ولم يؤمن به يكفيه النار الموقدة التي اشتد أوارها ولم يخمد لهبها...

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿كَفَرُوا﴾: الكفر: الجحود.

﴿بِآيَاتِنَا﴾: آيات الله: كلامه المنزل على رسوله، أو المعجزات الدالة على الله ووحدانيته وصدق رسله.

﴿نُصْلِيهِمْ﴾: ندخلهم، وأصل الصَّلي لإيقاد النار، وصليت الشاة: شويتها فهي مصليّة...

﴿نَضِجَتْ﴾: احترقت، وأصله من نضج الثمر: إذا أدرك وطاب.

﴿جُلُودُهُم﴾: الجلود: مفردها الجلد قشر البدن الظاهر.

﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾: من بدّل والإبدال والتبديل والاستبدال: جعل شيء مكان آخر.

﴿لِيَذُوقُوا﴾: الذوق: أصله وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقل تناوله، واختير في القرآن لفظ الذوق أيضاً للكثير.

﴿أَزْوَٰجٌ﴾: جمع زوج، ويطلق على كل من القرينين الرجل والمرأة.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: من الطهارة: وهي النظافة، والطهارة ضربان طهارة جسم وطهارة نفس، وحملت الآيات عليهما..

﴿ظِلًّا﴾: الظل: ضد الضّح وهو أعم من الفيء، ويقال: لكل موضع لم تصل إليه الشمس.

## التفسير

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ الذين كفروا صيغة عامة تشمل كل من كفر بآيات الله، والدلالات الدالة على وجوده أو وحدانيته أو صفاته أو شيء من أنبيائه وكتبه وضروريات دينه..

الذين كفروا بآيات الله بعد أن قامت البراهين والأدلة على صحة تلك الآيات وأحقيتها، ووجوب اتباعها سوف يأتيهم يوم القيامة عذاب شديد.. إنهم سيصلون النار يشوون فيها وليس لمرة واحدة أو في زمان واحد، بل سيستمر ذلك العذاب، وكلما احترقت جلودهم أعيدت من جديد بنفسها وأعيد احتراقها ليذوقوا العذاب الأليم.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ إنها الجلود نفسها التي تحترق تعاد ليعاد احتراقها وعذابها.

وفي الحديث أن ابن أبي العوجاء كان ملحداً سأل الإمام الصادق عليه السلام فقال: ما تقول في هذه الآية ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؟ هب هذه الجلود عصت فعذبت فما بال الغير؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويحك هي هي وهي غيرها؟

قال: أعقلني هذا القول، فقال له: أرأيت لو أن رجلاً عمد إلى لبنة فكسرها ثم صب عليها الماء وجبلها وردّها إلى هيئتها الأولى: ألم تكن هي هي وهي غيرها؟! فقال: بلى أمتع الله بك...

﴿لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ﴾ أي ليستمر العذاب عليهم ويدوم جزاء كفرهم وعنادهم ورفضهم للحق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ إن الله كان ولم يزل ولا يزال عزيزاً لا يغلبه شيء أو يقهره شيء. وحكيماً في أعماله يضع الأمور في مواقعها ومحلها فلا يظلم أحداً ولا يعذّب من لا يستحق العذاب...

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

قدّم سبحانه سابقاً ذكر أهل النار من الكفار، لأن الحديث عنهم واضح الدلالة، وعقّبه هنا بذكر أهل الإيمان لتكتمل المسرّة ويرغب الناس في الإيمان ومستلزماته من العمل الصالح...

تكشف الآية أن الإيمان، والعمل الصالح، متلازمان، ولكي يترتب الأجر والثواب الموعود، يجب على الإنسان أن يتصف بالإيمان والعمل الصالح ولا يكتفي بواحد منهما. الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه وما جاء من عنده ثم عملوا بمقتضى هذا الإيمان ومتطلباته هؤلاء سيدخلهم الله جنات تجري من تحتها الأنهار. ثم إنهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يتحولون عنها بموت أو فناء ولا تشبع أنفسهم وأعينهم من منظرها وما فيها... إنه الخلود الدائم في النعيم...

وأيضاً لتكتمل مسرّتهم وتتم فرحتهم ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي زوجات كثيرات منزهات عن كل ما يشين خلقهن وخُلُقهن.

وفي كتاب (من لا يحضره الفقيه) سئل الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾؟ قال: الأزواج المطهرة اللاتي لا يحضن ولا يحدثن.. ولعله عليه السلام ذكر أكبر القذارات الملازمة لنوع النساء، وإلاّ فالمطهرات هنّ الخاليات من كل ما تنفر منه الطباع ولا تستسيغه الأذواق وإن كانت أموراً صغيرة جداً...

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ الظل: هو الفيء الذي يحجب حرارة الشمس وأذيتها.

وظليلاً: تأكيد لظل، وقد يراد به أنه ليس كظلال الدنيا التي يدخلها التعفن أو الحرّ والسموم، أو غيرها مما لا تتم المتعة فيها.

وحمل بعضهم قوله: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ على النعمة الدائمة من حيث أن البدوي كان غاية أمنيته في تلك الصحراء المحرقة أن يجد ظلاً يقيه حر الشمس، فكان يجد الراحة والمتعة في ذلك الظل الذي يتوفر له فخاطبه الله هنا بما يتمنى، وأن راحته ستستمر وتدوم، فكان هذا التعبير لذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿تُؤَدُّواْ﴾: الأداء: دفع الحق دُفعة وتوفيته، وأدّى الشيء: أوصله.

﴿ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾: مفردها الأمانة: الوديعة، والأمين: هو الثقة، وأداء الأمانة: إرجاعها إلى صاحبها.

﴿أَهۡلِهَآ﴾: أصحابها.

﴿حَكَمۡتُم﴾: من حكم، يقال: حكم بالأمر، وللرجل أو عليه أو بينهم: إذا قضى وفصل.

﴿نِعِمَّا﴾: أصلها نعم ما، أي نعم الشيء يعظكم به.

﴿يَعِظُكُم﴾: الوعظ: زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرقّ له القلب، والموعظة: الاسم.

## التفسير

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ تقدم أن اليهود خانوا العهود

والأمانات التي أودعها الله لديهم، من حيث حرّفوا التوراة وطمسوا الآيات الدّالة على صفات النبي ﷺ ونعوته، ثم لمّا جاروا في الحكم وظلموا فيه من حيث حكموا بأن دين الشرك والوثنية أهدى من دين الإسلام وأفضل لمّا كان كل ذلك جرى ويجري على أيدي اليهود، نبّه الله المسلمين وأمرهم بما فيه مصلحتهم وما فيه نفعهم...

الأمر من الله أن يؤدي كل من اؤتمن بأمانة، أن يؤديها إلى أصحابها...

وهذه الأمانة وإن كان ينسبق منها إلى الذهن أنها الأمور المادية المودعة لدى الآخرين! ولكن للأمانة مساحة واسعة تشمل الأمور المعنوية بكل أنواعها ومختلف مصاديقها، فكل تكاليف الله التي ألقاها الله على الإنسان وأوجبها عليه هي من مصاديق الأمانة...

وكل ما كُلف به الإنسان من حكم وإدارة ورعاية لأولاده وزوجه ومن تحت يده يدخل ضمن الأمانة...

وكذلك ما عند الإنسان من علم وأسرار وخفايا تلقّاها، يجب عليه أن يحفظها ويؤديها إلى أهلها، وهكذا دواليك. يتوسع موضوع الأمانة ويمتد ليشمل علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بمجتمعه، وما يدخل تحت كلٍ من هذه الأصناف يكون من موضوع الأمانة ومصاديقها...

وفي الكافي قال أبو عبد الله عليه السلام[1] في وصية له: إعلم أن ضارب علي عليه السلام بالسيف وقاتله، لو ائتمنني واستنصحني واستشارني ثم قبلت ذلك منه! لأديت إليه الأمانة.

وفي كتاب معاني الأخبار أن علي بن الحسين عليه السلام قال لأصحابه: «عليكم بأداء الأمانة فلو أن قاتل الحسين بن علي عليه السلام ائتمنني على السيف الذي قتله به لأديته إليه.

---

(١) الكافي، ج٥، ص١٣٣، باب أداء الأمانة، حديث ٥.

بل جعل الإمام الصادق عليه السلام ميزان التدين والالتزام، أداء الأمانة، وليس الصلاة والصوم.

ففي الكافي قال أبو عبد الله عليه السلام: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك شيء اعتاده، فلو تركه استوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته...

فالأمانة يجب أن تؤدى إلى البرّ والفاجر والمسلم والكافر فإنها حق من حقوق الإنسانية يجب مراعاتها وتحرم خيانتها لكل أحد...

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ قلنا إن اليهود حكموا لأبي سفيان بأحقية ما هو عليه، وأنه أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، وقد ظلموا في حكمهم هذا وجاروا، وردّ الله عليهم وأوعدهم بالعذاب.

وهنا أراد من المسلمين أن يتجافوا عن طريقة اليهود ويبتعدوا عنها، فأمرهم الحكم بالعدل بين الناس إذا حكموا.

والخطاب يتوجه إلى كل مسلم له صلاحية الحكم سواء كان على مستوى الولاة أو القضاة أو الأمراء أو الرؤساء أو عامة الناس - فيما لهم فيه خبرة ودراية - حتى الزوج في بيته والمرأة في بيتها.

وقد يتبادر إلى الذهن - القضاة والولاة - وما ذلك إلاّ لأنه أظهر المصاديق وأكثرها ابتلاء بفصل الخصومات وتوزيع العطيّات...

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ إن الله نعم الشيء الذي يعظكم به، وبعبارة أخرى.. نعم الموعظة التي يعظكم الله بها فخذوها وتمسكوا بها وشدوا بالنواجذ عليها لأن فيها مصالحكم وخيركم في الدنيا والآخرة...

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ إن الله كان ولا يزال سامعاً لأقوالكم بصيراً بأعمالكم وسيحاسبكم عليها ويعطيكم جزاءها..

وفي هذا وعد ووعيد، وعد للمؤمنين بالأجر والثواب لطاعتهم، ووعيد بالعذاب والعقاب لمن تمرد عليه وعصاه...

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿أَطِيعُوا﴾: الطاعة: الانقياد وامتثال الأمر.

﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾: أولي جمع: بمعنى ذوو، أي أصحاب واحده ذو: بمعنى صاحب، وأولي الأمر: أصحاب الشأن، أو الأمر: بمعنى طلب الفعل.

﴿تَنَازَعْتُمْ﴾: تخاصمتم وتجادلتم.

﴿فَرُدُّوهُ﴾: من ردّ، والردّ: صرف الشيء بذاته أو بحاله، والرّد كالرجع ومنه الارتداد والردة.

﴿تَأْوِيلًا﴾: مآلاً وعاقبة من الأوْل: أي الرجوع إلى الأصل، ومنه الموئل للموضع الذي يُرجع إليه. وقوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ قيل: أحسن معنى وترجمة، وقيل: أحسن ثواباً في الآخرة.

## التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ هذا الخطاب متوجه إلى المؤمنين أن يطيعوا الله ويمتثلوا أمره وطاعة الله واجبة بالذات والأصالة، باعتبار أنه سبحانه الخالق المبدع المبدىء المحيي المميت الذي بيده الأمور، والمالك لهذا الكون وما فيه وطاعته تدرك بالعقل فكيف إذا صدر الأمر بها منه تعالى.

وأمّا طاعة الرسول فهي فرع عن طاعة الله، ومنها كانت وعنها انبثق ولئلا يتوهم عدم طاعته أفرده بالذكر، ونص على طاعته لرفع هذا التوهم والاحتمال...

وطاعة الرسول تكون بامتثال ما صدر عنه من سُنّته ـ قولاً أو فعلاً أو تقريراً ـ فهو صلوات الله عليه الشارح للقرآن المبيّن لمجملاته، فما كان مذكوراً بإجماله وبصيغته العامة كـ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فبيّن النبيّ ﷺ شروطها وموانعها وأجزاءها وما يتعلق بها، فيجب إطاعته في كل ذلك والأخذ بما جاء عنه، وهكذا دواليك في الطهارة والزكاة والصوم والحج والمعاملات والإيقاعات وغيرها من التكاليف والواجبات.. وطاعة الرسول ترجع إلى طاعة الله. قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾(١).

﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ وأطيعوا أصحاب الشأن الذي لهم سلطة دينية ودنيوية عليكم ـ وهذا المعنى هو المفهوم من الآية ـ حيث أمر الله بطاعتهم مع طاعة النبي ﷺ وقرن الطاعتين في أمر واحد ﴿أَطِيعُواْ﴾ وأطلق وجوب الطاعة ولم يقيدها بقيد، ونحن نعرف أن طاعة الرسول تجب في كل الأحوال والظروف والمقامات لأنه معصوم، فيجب أن يكون أولو الأمر بنفس الدرجة من هذه الملكة لإطلاق الأمر بالطاعة ويبقى أن نشير إلى خلاف وقع في تفسير ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ مَنْ هم؟

(١) النساء/ ٨٠.

أما الشيعة الإمامية فقد اتفقوا قولاً واحداً على أنهم أهل البيت عليهم السلام علي عليه السلام والأئمة من بعده وهم: الحسن ثم الحسين وعلي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى بن جعفر وعلي بن موسى الرضا ومحمد الجواد وعلي الهادي والحسن العسكري والمهدي المنتظر محمد بن الحسن العسكري صلوات الله عليهم.

وقد وردت رواياتهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحدّدهم بمواصفاتهم وأسمائهم كما كان كل إمام ينص على من بعده.

ففي كتاب كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾.

قال: الأئمة من ولد علي وفاطمة عليهما السلام إلى أن تقوم الساعة...

وعن جابر الأنصاري قال: لما أنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ قلت يا رسول الله: عرفنا الله ورسوله، فمن أولي الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعته؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: هم خلفائي يا جابر وأئمة المسلمين من بعدي أولهم علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي المعروف بالتوراة بالباقر وستدركه يا جابر! فإذا لقيته فأقرئه مني السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد ثم موسى بن جعفر ثم علي بن موسى ثم محمد بن علي ثم علي بن محمد ثم الحسن بن علي ثم سمّي محمد وكنيتي حجة الله في أرضه وبقيّته في عباده ابن الحسن بن علي ذاك الذي يفتح الله - تعالى ذكره - على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذلك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان.

قال جابر: فقلت له: يا رسول الله فهل لشيعته الانتفاع به في غيبته؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: والذي بعثني بالنبوة أنهم يستضيئون بنوره وينتفعون بولايته في

غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلاّها سحاب. يا جابرا هذا من مكنون سرّ الله ومخزون علم الله فاكتمه إلاّ عن أهله. . .

وأما أهل السنّة فقد اختلفوا في تفسير ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ على أقوال، كان أبرزها أربعة هي التي تستحق الوقوف عندها قالوا:

١ ـ إن ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ هم الخلفاء الراشدون.

٢ ـ أمراء السرايا بل الأمراء والحكام وكل متغلب على الأمة.

٣ ـ العلماء.

٤ ـ إنه الإجماع ـ إجماع الأمة ـ.

أمّا الثلاثة الأُولى فتسقط بالتنبه إلى نفس الآية ـ كما يسقط أيضاً القول الرابع، وذلك أن الآية الكريمة أمرت بامتثال ما يصدر عن ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ وجعلتهم في حالة لا يصدر منهم خطأ أو سهو. وذلك عندما عطفت وجوب طاعتهم على طاعة رسول الله ﷺ فكما أن طاعته واجبة مطلقاً بدون شرط أو قيد، فكذلك ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ يجب إطاعتهم بدون قيد أو شرط، وذلك يعني عصمتهم التي تمنع من ارتكاب الخطأ في أي أمر يصدر عنهم، وهذا المعنى قد فهمه الرازي كبير علماء المفسرين عند السنة وذهب إليه، ولكنه خالف في تعيين من يكونون. . .

قال الرازي في تفسيره وهو في صدد تفسير هذه الآية مستدلاً على حجته إجماع الأمة بقوله:

والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومَنْ أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بدّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهي عنه فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد

بالاعتبار الواحد، وأنه محال فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة ﴿أُوْلِي الْأَمْرِ﴾ على سبيل الجزم وثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم، وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ. فثبت قطعاً أن ﴿أُوْلِي الْأَمْرِ﴾ المذكور في هذه الآية لا بدّ وأن يكون معصوماً...».

وهذا القول من الرازي على مقتضى الأصول ومما توافق عليه العقول وهو ينسف جميع الأقوال بعددها الأربعة وغيرها مما يشابهها، لأن كل من يدّعيها لا يدعي العصمة لأهلها سواء كانوا علماء أو أمراء أو سلاطين وحتى الخلفاء الراشدين، وكذلك ينسف ما استدل به الرازي في تعيين «أولي الأمر» وقوله أنه - الإجماع - لأن إجماع الأمة يتكوّن من أفرادها، وكل فرد ليس معصوماً فمجموعهم لا يولّد معصوماً ولا عصمة، نعم ربما يكون إجماعهم أقرب إلى الصواب، ولكنه لا ينفي الخطأ على وجه القطع بحيث يصل إلى العصمة التي يمتنع معها الخطأ...

وعليه فالصحيح ما يقوله الشيعة وما يذهبون إليه من أن ﴿أُوْلِي الْأَمْرِ﴾ هم الأئمة الاثني عشر...

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فإن اختلفتم أيها المؤمنون في أمر فارجعوا في حلّه إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ.

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ لأن من يؤمن بالله لا بدّ وأن يقبل قوله ويطيعه ومن يؤمن باليوم الآخر يُعدّ له العدة حيث الجزاء، وجزاء المطيع السامع الجنة، وجزاء العاصي المتمرد النار.

وفرع قبول كلام الله أن يقبل ويطيع الرسول و﴿أُوْلِي الْأَمْرِ﴾ الذين فرض الله طاعتهم.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أي الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه خير لكم وأصلح في الآخرة عندما ترجعون إلى الله وتعودون لنيل أجوركم...

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يَزْعُمُونَ﴾: الزعم: في الأصل القول حقاً كان أو باطلاً ثم استعمل فيما يشك فيه ولا يعلم صحته.

﴿يَتَحَاكَمُوا﴾: يترافعوا ليفصل بينهم الحاكم، والحاكم هو الذي يفصل بين الناس في الخصومات وغيرها...

﴿الطَّاغُوتُ﴾: مصدر في الأصل من الطغيان، قيل: هو كل معبود من دون الله.

﴿يُضِلَّهُمْ﴾: من ضلّ، والضلال: العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

﴿تَعَالَوْا﴾: هلمّوا.

﴿يَصُدُّونَ﴾: الصدود: الإعراض.

## التفسير

### سبب النزول

قالوا في سبب نزولها أن رجلاً من المنافقين اختلف مع يهودي، فقال اليهودي: أحاكمك إلى محمد ـ لعلمه أنه يعدل في الحكم ولا يقبل الرشوة.

قال المنافق ـ بل أحاكمك إلى كعب بن الأشرف اليهودي ـ وكان شديد الرغبة في الرشوة، واليهودي كان محقاً، والمنافق كان مبطلاً، ولهذا كان اليهودي يريد التحاكم إلى النبي ﷺ بينما المسلم المنافق يريد التحاكم إلى كعب اليهودي فأنزل الله الآية. . .

وعلى كل حال. . فلسانها واضح ظاهر تحكي قصة إنسان يثير تصرفه ومنطقه العجب والغرابة.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام للتعجب والإنكار على من يدّعي الإيمان، ثم يتنكر له ولا يعمل بمقتضاه. . ألم تنظر وينته علمك ﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يدّعون الإيمان ثم يخالفونه عملاً ولا يرضون بحكم الحق. . .

إن نزعة الشر والكفر المحكمة في نفوسهم والمتأصلة في عمق حركتهم تدفعهم إذا طُلب منهم أن يتحاكموا إليك أن يدفعوا هذا الطلب ويعدلوا عنك إلى غيرك من الطواغيت الذين يحرفون الأحكام عن مواقعها ويسترسلون وراء الأهواء والأغراض والميول والشهوات ونسي هذا المدّعي للإيمان أن الأمر متوجه إليه، وإلى كل المؤمنين أن يكفروا بالطواغيت جميعاً ويرفضوا التحاكم إليهم أو الإذعان لحكمهم. . .

إنهم أهل النفاق ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ إنهم يرغبون في حكم الطاغوت ـ والطاغوت هو كل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله وبغير حكم الله ـ فالحكم حكمان: حكم الجاهلية، وحكم الإسلام، وكلما

لم يكن حكماً إسلامياً فهو حكم الطاغوت، وقد توجّه الأمر من الله إلى الكفر بالطاغوت، والبراءة منه وعدم الرضا بحكمه فضلاً عن الدعوة إلى حكمه. . .

وفي الحديث عن أبي بصير قال: قلت لأبي[1] عبد الله عليه السلام قول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾.[2]

فقال: عليه السلام يا أبا بصير إن الله عز وجل قد علم أن في الأمة حكّاماً يجورون، أما أنه لم يعنِ حكام أهل العدل، ولكنه عنى حكام أهل الجور، يا أبا محمد إنه لو كان لك على رجل حق فدعوته إلى حكام أهل العدل فأبى عليك إلاّ أن يرافعك إلى حكام أهل الجور ليقضوا له، لكان ممن حاكم إلى الطاغوت، وهو قول الله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

فالآية تدل على نفي الإيمان عن هؤلاء القوم الذين رفضوا التحاكم إلى النبي صلى الله عليه وآله وقبلوا بالتحاكم إلى غيره. . .

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ إشارة إلى أن من لم يرض بالنبي صلى الله عليه وآله حكماً ورضي بحكم غيره فهو من أولياء الشيطان وأتباعه، والشيطان هو الذي جرّه إلى اتخاذ هذا الموقف وأضلّه هذا الضلال الفظيع الذي لا اهتداء بعده ولا نجاة منه. . .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ وهذه صورة لعناد المنافقين وإصرارهم على مواقفهم الخاطئة الباطلة. . .

إن المؤمنين أو العقلاء أو الذين ينشدون الحق والصدق، إذا قالوا لهؤلاء المنافقين هلمّوا إلى حكم الله الوارد في كتابه! وإلى حكم رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب القضاء، باب ١ من أبواب صفات القاضي، حديث ٣.

(٢) البقرة/١٨٨.

المبيّن لإرادة الله، إذا قالوا لهم: هلّموا لم يستجيبوا لهذا القائل بل يعرضون عنه إعراضاً عظيماً، ربما كان الإعراض مع التأفف والإشاحة بالوجه أو غيرها من العلامات المؤشرة عن تذمّرهم وغضبهم من هذه الدعوة. . .

ولا يخفى أنه سبحانه أظهر ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ محل المضمر إشعاراً بعلة الحكم، وأنهم لنفاقهم كان منهم هذا الموقف، كما أن تنكير ﴿صُدُودًا﴾ لتأكيد وتفخيم هذه الصدود والإعراض. . وأنه كبير جداً. . .

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿أَصَٰبَتْهُم﴾: أدركتهم ووقعت بهم.

﴿مُّصِيبَةٌۢ﴾: النائبة.

﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: عملته أيديهم.

﴿يَحْلِفُونَ﴾: الحلف: القسم واليمين.

﴿وَتَوْفِيقًا﴾: تأليفاً: والوفاق والوفق ضد المخالفة.

﴿فَأَعْرِضْ﴾: إصفح.

﴿وَعِظْهُمْ﴾: الوعظ: زجر مقترن بتخويف، وقيل: هو التذكير بالخير فيما يرقّ له القلب.

﴿بَلِيغًا﴾: مؤثراً، وأصل البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى.

## التفسير

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ استفهام يراد به تعظيم ما يقع بهم من عقوبات عظيمة نتيجة عملهم وما قدمت أيديهم من فعل السوء. . .

إنهم نافقوا وانحرفوا باختيار منهم وحرية وسيجدون عاقبة هذا النفاق والانحراف.

﴿ثُمَّ﴾ إنهم لخبثهم ومكرهم لم يسكتوا أو يصمتوا أو يتركوا الأمور بدون إثارة بل يفعلون فعلهم ثم يأتون بتبرير فاسد لا يُقبل عند أهل البصيرة والعلم بالأمور.

﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ إنهم يغلّفون فعلهم الشائن المنحرف بغلاف مستحسن ويبررون عملهم بما يظنون أنه مقبول لدى النبي أو يرضاه العقلاء. . .

ليتهم صمتوا وسكتوا ولم يبدوا عذرهم الذي هو أقبح من الذنب نفسه، لأنه يشكّل الدليل والمنطلق لفعلهم، وإذا كان الدليل فاسداً فاشلاً تبعته النتيجة لا محالة. . .

إنهم يحلفون للنبي ويقسمون له بالله ويقولون ما أردنا بترك التحاكم إليك والعدول عنك إلى غيرك من أهل الكفر إلاّ الإحسان إليك. . . من حيث لم نرِد أن نزعجك في قضيتنا هذه لأنها تتعبك وتشقّ عليك لما يحيط بها من ملابسات قد تسيء إلى مقامك النبوي. . .

إنهم يبررون فعلهم القبيح بهذه التبريرات السخيفة التي تعزل النبي ﷺ - في واقع الأمر - عن مقامه وتعدل به إلى غيره وهذا يُضعف مقام النبوة ويهدم الدين ويجرد النبي من صلاحياته العادلة التي تحكم بموجبها بما أراد الله وأحب. . . إنها صورة مشوهة تحكم على الإسلام بالتعطيل بينما تنعش أحكام الجاهلية وتجعلها الحاكمة في المجتمع. . . إنها سيئة عظيمة خصوصاً أنها في

حضور رسول الله ﷺ ووجوده الشريف وهو الحكم العدل الصادق الأمين الذي ينطق عن لسان رب العالمين، فالعدول عنه إلى غيره فيه من الإساءة الشيء الكثير ومهما اختُلقت المبررات والتأويلات فما هي إلاّ أدوات تبرز نفاق المنافقين وانحرافهم...

إن الله يعلم أهداف هذه الفئة ويعلم ما في قلوبهم فلذا يخاطب نبيه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي إن ما في قلوبهم من النفاق والانحراف يعلمه الله على حقيقته لأنه يعلم السر وأخفى ويعلم ما تخفي السرائر فإن نفاقهم عظيم رهيب يعلمه رب العالمين...

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لا تتحدث معهم أو تناقشهم بل اهملهم واتركهم احتقاراً لهم واستصغاراً لشأنهم وهذا نوع من أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وَعِظْهُمْ﴾ ذكّرهم بأيام الله وبما أعدّه للمنافقين والمنحرفين وبما ينتظرهم من إذلال وإهانة إن أصرّوا على مواقفهم وتمسّكوا بما هم عليه من انحراف وفساد...

﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا﴾ عظهم بينك وبينهم في الخلاء لأن النصيحة في السرّ والموعظة على انفراد أوقع في النفس وأجدر أن تقبل لسقوط عوامل الغرور والكبر عند الإنسان.

وقد يراد من قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي يحكي لهم ما في نفوسهم من نفاق وانحراف، وإنهم إن أظهروا ذلك أُخذوا به وحُوسبوا عليه ونالهم العقاب المعدّ لمثل ذلك...

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿لِيُطَاعَ﴾: الطاعة: الانقياد.

## التفسير

**كل رسول يجب أن يطاع:**

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ هذه الآية تحدّد للناس أن كل رسول أرسله الله إليهم يجب عليهم قبول قوله وتنفيذ أمره وامتثال ما جاء به لأن الله أمر بذلك وأذن به، فتعود طاعة الرسول إلى طاعة الله لأنه سبحانه هو الذي أذن بها وأمر...

إن على الناس ـ بأمر الله ـ أن يطيعوا كل الرسل لأنهم يأتون بأحكام الله وأوامره، فلو لم يقبلوا قولهم وينفّذوا أوامرهم لتعطل دورهم ولم يعد لهم منفعة أو أثر وبذلك تنتفي الغاية من وراء بعثة الأنبياء.

وينبغي أن نقول أن إطاعة الناس للرسل مطلقة في هذه الآية وهي تدلل على عظمتهم وعدم إمكان الخطأ منهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ ولو أن هؤلاء المنافقين الذين احتكموا إلى غيرك أدركوا خطأهم وعرفوا سوء تصرفهم فعادوا إلى الله بالتوبة واستغفروه ثم طلبوا منك أن تستغفر لهم، ففعلت ذلك لهم لأدركتهم التوبة والرحمة من الله وعلموا أنه سبحانه يقبل توبتهم فيصفح عمّا كان منهم ويرحمهم وينزل نعمه عليهم. . .

لا يخفى أن تعبير ﴿لَوَجَدُواْ﴾ فيه ندى ينزل على القلوب فيطيبها ويعيد إليها الحياة.

عدل سبحانه عن الإضمار في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ بدل قوله: واستغفرت لهم تعظيماً للرسول واهتماماً باستغفاره.

تفتح الآية الكريمة أبواب الرحمة أمام الوجوه العاصية وتدعوها لدخولها لكي تحظى بشرف المغفرة من الله. . إنها آية تقول لهذا الإنسان الذي عاش الاضطراب في الإيمان والقلق فيه، إن يستغفر ربه ثم يتوجه إلى النبي ويطلب منه أن يستغفر له فسيجد الله عند هذا الطلب وقد غفر له ذنوبه وطهّره من كل وحول الشك والشرك وعاد محلاً قابلاً للفيوضات الربانية التي ترشح على القلوب فتؤهلها لرحمة الله التي ينشدها هذا المخلوق الصغير فيكبر ويكبر إلى ما شاء الله.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يُحَكِّمُوكَ﴾: يجعلوك حكماً أو يتحاكموا إليك.

﴿شَجَرَ﴾: اختلف واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه بعضها ببعض، وشاجره: إذا نازعه.

﴿حَرَجًا﴾: الحرج: الضيق.

﴿قَضَيْتَ﴾: حكمت وفصّلت.

﴿وَيُسَلِّمُوا﴾: ينقادوا، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ تأكيداً على وجوب الانقياد والطاعة.

## التفسير

هذه الآية تحدّد صفات المؤمن على ضوء ما تذكره من الطاعة لرسول الله والرجوع إلى حكمه والقبول به حكماً عدلاً ينقاد إليه الإنسان فعلاً وعملاً وباطناً وظاهراً. . .

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اللام لتأكيد القسم: أي فوربك لا يؤمنون.

نفى سبحانه عنهم الإيمان مؤكداً ذلك بالقسم.

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فالمؤمنون يرجعون إلى الرسول عند اختلافهم وتشاجرهم فيكون كلامه الفيصل في هذا المجال والذي يجب أن يُرجع إليه لأنه يحكم بحكم الله الذي لا يجور...

إن من مبادىء الإيمان أن يعود المؤمن إلى النبي ﷺ عندما يختلف مع الآخرين لأن من يعود إلى النبي ﷺ يعود إلى الله الذي يحكم بالعدل والحق والصدق فلو عكس القضية وعاد إلى غيره لعاد إلى حكم الطاغوت وهو كفر ونفاق...

وهنا يجب أن نتوقف قليلاً وندرك أنه لا يجوز الرجوع إلاّ إلى ما يحكم به رسول الله وما جاء في شريعته ودينه فلو عدلنا عن ذلك لخرجنا عن الإيمان وعليه فلا يجوز الترافع إلى الحكام الظالمين الذين يحكمون بغير شريعة الله...

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ فأولاً يجب أن يعود أهل الإيمان عند اختلافهم فيما بينهم إلى النبي ﷺ في حياته وإلى شريعته بعد وفاته ليتحاكموا إليه وإليها.

فإذا عادوا وصدر الحكم يجب أن لا تضيق صدورهم ذرعاً بهذا الحكم أو يشككوا به أو يترددوا بمضمونه لأن ذلك يكشف عن خلل في الإيمان وعن خلل في العقيدة لأن أي تبرّم أو ضيق وراءه نفس مريضة لم يثبت الإيمان فيها ولم تسلم من شوائب الشرك والشك وهذا يستدعي تصحيحاً وتقويماً وإعادة نظر...

إن ما يحكم به الرسول هو حكم الله العادل الذي لا جور فيه، وحاشا لمقام النبوة أن تتعاطى بغير الحق والعدل والاستقامة...

فيجب أن يتقبل المؤمنون أحكام النبي بنفس راضية وروح صادقة ويقع منهم موقع القبول والرضا...

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وهذه المرتبة الثالثة وهي مرتبة الانقياد والطاعة التامة لحكم

النبي ﷺ بحيث يستسلم المؤمنون لحكم النبي ويقبلونه بكل رضا وينزل عليهم رحمة وسلاماً بدون أن يستشعروا أدنى حركة في النفس تحكي عن شيء من الانزعاج أو عدم الانقياد.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿كَتَبْنَا﴾: فرضنا وأوجبنا.

﴿دِيَارِكُم﴾: أوطانكم، ما يسكنه الإنسان ويكون له فيه دار أو عقار.

﴿مَا يُوعَظُونَ﴾: الوعظ: زجر مقترن بتخويف، وقيل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب..

﴿تَثْبِيتًا﴾: من ثبت ثبوتاً: دام واستقر.

﴿لَّآتَيْنَاهُم﴾: لأعطيناهم.

﴿لَّدُنَّا﴾: من عندنا.

﴿أَجْرًا﴾: ثواباً وجزاءً.

﴿صِرَاطًا﴾: الصراط: الطريق المستقيم.

## التفسير

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

أمر سبحانه وتعالى فيما تقدم أن يرجع الناس إلى تحكيم رسول الله ﷺ فيما يختلفون فيه أو يتنازعون عليه وجعل ذلك ميزاناً للإيمان وهذا أمر ميسور مقدور ليس فيه أي حرج أو عسر أو ضرر وكان من حقهم أن يلتزموا بهذا الأمر بدون تردد أو تأخر.

وذكر سبحانه هنا أنه لم يكلفهم تكليفاً شاقاً صعباً لا يقدر عليه إلاّ القلّة منهم...

لو أنّا فرضنا وأوجبنا على هؤلاء الناس أن اقتلوا أنفسكم «كما فُرض ذلك على بني إسرائيل في مرحلة من مراحل إساءاتهم» أو أخرجوا من دياركم - أي اتركوها واهجروها - وفي ذلك من المشقة ما يعادل القتل «لو أوجبنا ذلك عليهم وفرضناه ما فعله ولا امتثله منهم إلاّ قليل من المؤمنين الثابتين الذين ذاقوا طعم الإيمان وأدركوا حلاوته..

إن التكاليف الشاقة الصعبة لو أوجبها الله على الناس ما كان يقوم بها إلاّ القلّة القليلة منهم وهي قلة عاشت الإيمان والرسالة ووقفت على الأسرار العميقة التي تختفي وراء هذه الأوامر الإلهية، ولذلك قال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لو أنهم قاموا بامتثال ما أُمروا به - والتعبير بـ﴿يُوعَظُونَ﴾ لكون هذه الأوامر فيها رحمة لهم وتقريب نحو الكرامة وشدّ نحو مصالحهم..

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فإن القيام بما أمر الله فيه مصلحتهم ونفعهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا عزّهم وكرامتهم وفي الآخرة سعادتهم ووصولهم إلى الجنة..

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي أشدُّ لنفوسهم وقلوبهم فكأن الإيمان يترسخ ويشتد ويزداد ثباتاً نتيجة الممارسة الدائمة لأوامر الله، فكلما كثرت طاعتهم لله كلما قوي إيمانهم واشتدّ وهذا أمر طبيعي في كل ما تكرّر، وأُعيد فإنه يقوى في النفس ويشتدّ . .

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾ هذا جزاء فعلهم الذي قاموا به، فإن الله يعطيهم من فضله ثواباً وجزاءاً عظيماً، ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ فيها الفضل الكبير لأنه ينسبهما إليه تعالى فلا يدرك مقدارها ومداها إلاّ هو خصوصاً مع توصيفها بالعظيمة .

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ ولأرشدناهم إلى الطريق المستقيم الذي يوصلهم إلى جنات النعيم فإنهم بسلوكهم المستقيم يسددهم الله ويوفقهم لسلوك أقرب الطرق وأرشدها إلى الحق الموصل لهم إلى الجنات . . .

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿أَنْعَمَ﴾: الإنعام: إيصال الإحسان إلى الغير، وأنعم الله عليه: إذ أحسن إليه وأوصل نعمه إليه. . .

﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾: جمع صدّيق: وهو من كثر منه الصدق، وقيل: إنه من لا يكذب قط، وقيل: لمن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله.

﴿ٱلشُّهَدَآءِ﴾: جمع شهيد: وهو المقتول في سبيل الله.

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: من صلح، والصلاح: ضد الفساد، والصالح: من وافق عمله عقيدته السليمة. .

﴿وَحَسُنَ﴾: الحُسْن: عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه. .

﴿رَفِيقٗا﴾: الرفيق: هو الصاحب، والرفيق من الرفق: وهو لين الجانب واللطف في المعاشرة.

﴿ٱلْفَضْلُ﴾: في اللغة معناه الزيادة على المقدار ويستعمل في النفع الزائد.

﴿كَفَىٰ﴾: من الكفاية: ما فيه سد الخلة وبلوغ المراد في الأمر.

## التفسير

هذه الآية تؤكد على طاعة الله ورسوله وتحث عليها، وفيها تشويق وترغيب إلى أقصى ما يتمناه المرء ويطمح إليه، إنها مرافقة الثلة الطاهرة والصفوة الخيّرة التي بمرافقتها تكتمل النعمة وتتم اللذة. وهل هناك أعظم من لقاء الطيبين من الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين..؟ إن الإنسان يشدّه الحنين إلى مرافقة الأخيار والأبرار فكيف إذا كانت المرافقة للأنبياء وغيرهم ممن أعزهم الله وأكرمهم! لا شك أن النفس تتوق للقاء محمد سيد المرسلين وإلى إبراهيم وموسى وعيسى وكل الأنبياء المختارين من قبل الله...

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ مَنْ ينقاد لأمر الله ونهيه وما جاء في كتبه وما خاطب به الناس.

﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ وكذلك من يطع الرسول فيما صدر عنه قولاً أو فعلاً أو تقريراً أمراً أو نهياً، فإن طاعة الرسول تعود طاعةً لله لأنه سبحانه هو الذي أمر بطاعته في قوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[1] لأنه المبلّغ عن الله مراده والناقل للناس كلامه...

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المطيعون، وجَمَعه باعتبار المعنى.

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ وإذا كان المنعم هو الله وقد بسط إنعامه على هؤلاء فلا يمكن تصور هذه النعم إلاّ من بعض جوانبها وفي بعض مصاديقها لأن الإحاطة مستحيلة والحصر غير ممكن.

ثم بيّن سبحانه هؤلاء المنعم عليهم..

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الذين اختارهم لحمل كلامه وشرّفهم بالسفارة من قبله فتلقّوا وحيه وبلّغوه إلى الناس.

---

(١) المائدة/٩٢.

إنهم الأنبياء الصفوة المختارة الذين بلغوا أعلى مراتب الكمال فحملوا رسالة الله وهددوا بها الناس وعلى رأسهم سيد الخلق محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. .

﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ الذين عرفوا دعوات الأنبياء ورسالات السماء فبادروا إلى الإيمان بها والتصديق لأهلها قولاً وعملاً منطقاً وسلوكاً فصدّق عملهم قولهم وقلبهم لسانهم. . .

إنهم أتباع الرسل الذين عرفوا صدق ما جاءوا به فلم يترددوا أو يتأخروا بل بادروا إلى تصديقهم والعمل بما جاءوا به وقد كشف سبحانه عن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾[(١)]. .

وإن من أظهر مصاديق الصديقين هو علي بن أبي طالب عليه السلام حيث كان أول من آمن بالرسول وصدّقه ولم يردّ عليه في موقف قط وكان أول المجاهدين وأسرعهم إلى دعوة النبي ما انتدبه لمهمة إلاّ وكان بطلها وله القدح المعلّى فيها.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: الصدّيقون ثلاثة علي بن أبي طالب وحبيب[(٢)] النجّار ومؤمن آل فرعون.

وورد في كتاب عيون الأخبار قول رسول الله ﷺ لكل أمّة صدّيق[(٣)] وفاروق وصدّيق هذه الأمة وفاروقها علي بن أبي طالب عليه السلام. . ومن قرأ علياً في سيرته ومسيرته وأنصف الحق والعدل وأنصف نفسه اكتشف هذه الحقيقة بوضوح. . .

﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ وهم الذين قُتلوا في سبيل الله الذين يشهدون على ظلم الآخرين واعتداءاتهم فيحاولون أن يرفعوا عن البشرية هذا الظلم سواء كان عقيدياً أو فكرياً أو ثقافياً أو اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً فيقتلهم الظالمون في ساحة المواجهة

(١) الحديد/١٩.
(٢) الخصال: باب الثلاثة، ص١٨٤.
(٣) عيون الاخبار، ج٢، ص١٣.

فيذهبون شهداء إلى الله . . . إن مرتبة الشهادة عظيمة حيث تأتي بعد القيادة ـ النبوة ـ وبعد الدعاة إليها والمساندون لها ـ الصدِّيقون ـ.

إنها مرتبة عظيمة يتشوّق إليها أهل الإيمان والتقوى ويتمنون إدراكها والوصول إليها . . .

﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ هم قوم صلحت عقائدهم وأفعالهم وجاءت الأفعال متطابقة لما في النفوس . . . ونحن في مجتمعنا نطلق كلمة الصالح ونصف بها بعض الأشخاص المطيعين لله العاملين بأمره الذين يلتزمون سمت الطاعة والانقياد فتطابق أفعالهم وأقوالهم مع إيمانهم وعقائدهم.

﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ ففي الآية إشادة بمرافقة هؤلاء العظماء . . وأن مرافقتهم في غاية الحسن والكمال. فما أحسن مرافقة هؤلاء وأنعم بها من صحبة وأنعم بهم من رفقاء . . .

﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ ذلك الفضل الذي هو مصاحبة المطيعين لله ورسوله لهؤلاء الأنبياء والصدِّيقين والشهداء والصالحين ذلك الفضل من الله فهو الذي تفضّل على المطيعين بهذه الكرامة والمنحة الإلهية.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ فهو سبحانه وحده الذي يعلم مقدار هذا الفضل ويعلم من يستحقه . . .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿حِذْرَكُمْ﴾: الحذر: هو الاحتراز عما يخاف بما يناسبه من الأدوات.

﴿فَٱنفِرُوا۟﴾: النفر: الخروج إلى الجهاد وأصله الفزع، ونفر إليه: إذا فزع إليه، والنفير: اسم للجيش الخارج للقتال.

﴿ثُبَاتٍ﴾: جمع ثبة: وهي الجماعة، وثبات جماعة بعد جماعة...

﴿جَمِيعًا﴾: مجتمعين.

## التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ أمر سبحانه المؤمنين أن يكونوا في حالة حذر دائمة لأن العدو يتربص بهم وينوي لهم الشر...

إن التأهب المستمر لكل حالة طارئة تفوّت الفرصة على الأعداء من اقتطاف أي ثمرة إذا فاجأوا المسلمين أو حاولوا النيل منهم...

إن الأمة التي تبقى في حالة طوارىء وعلى استعداد لمواجهة عدوها في كل وقت لا يمكن أن تسقط أو تنهزم أو تصاب بأذى، فلذا أمر سبحانه أن يكون المؤمنون في حالة تأهب وتحسّب لكل طارىء. . .

ثم بيّن سبحانه كيف يكون الخروج إلى العدو ومواجهته فإذا اقتضت الحرب أن يخرج المسلمون جماعة بعد جماعة على شكل سرايا فهو المطلوب ويجب أن يخرجوا كذلك. وأما إذا اقتضت الأمور أن يخرج المسلمون جميعهم لمواجهة العدو فيجب عليهم أن يكونوا كذلك. . .

إن العدو يجب أن يواجه بحسب عدده وعدته وأسلوبه وطريقته في الحرب، يجب أن يواجه بقوة وعنف بشكل يكسر شوكته ويهزم جمعه، ولذا حسب الحاجة تكون المواجهة على شكل سرايا وجماعة بعد جماعة أو على شكل جماعي وبعدد ضخم يجتمع المسلمون كلهم تحت لواء واحد وينفروا في وجه عدوهم ويهزموه. . .

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾: التبطئة والإبطاء: التأخر ويأتي لازم ومتعدٍ.

﴿أَصَابَتْكُم﴾: أدركتكم ولحقت بكم.

﴿مُّصِيبَةٌ﴾: النائبة من هزيمة أو قتل أو جرح وكل مكروه هو مصيبة.

﴿شَهِيدًا﴾: حاضراً.

﴿فَضْلٌ﴾: أصل الفضل: الزيادة وهنا يراد به النصر والغنيمة.

﴿مَوَدَّةٌ﴾: محبة.

﴿فَوْزًا﴾: الفوز: الظفر.

## التفسير

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الخطاب موجّه إلى المؤمنين فإن ﴿مِنكُمْ﴾ ـ ظاهرة

الدلالة على هذا المعنى - فإن من المؤمنين من هم ضعفاء الإيمان يعيشون الخوف والفزع والهلع ولا يتحملون الحرب وآثارها فهم لا يقدرون على مواجهة العدو. وإن من أصحاب رسول الله من لم يسجّل التاريخ له أنه قتل إنساناً طيلة حياته مع أنه كان من صحابة النبي وقد يكون من أوائل من أسلم...

إن فئة من المسلمين كانت تتثاقل عن خوض المعارك وتتحاشى الدخول فيها والله يحكي نفسيتها وكيف كانت تتصور الأمور وتعيش خلالها...

﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ فهذا موقف كان يقفه هذا الإنسان، إنها صورة الإنسان الذي يراقب الأحداث، فإن خاض المسلمون معركة وكانت عليهم الدائرة فتركت قتلى أو جرحى أو أسرى فيهم قال أمام هذا الحدث المروع ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ فيعدّ عدم حضوره معهم وشهوده المعركة التي أصيب بها المسلمون نعمة من نعم الله عليه حيث نجا مما أصيب به غيره وما لحق بالمسلمين من الإصابات...

إنها صورة النفس المنهزمة الساقطة التي تعيش في انحطاط ولم تستوعب الإيمان بصورته الصحيحة أو لم يتعمق الإيمان فيها بحيث يكون هو المحرك لها والحاكم عليها...

وأعتقد أنهم من المؤمنين وليس من المنافقين وقرينة ذلك ما ينقله الله عنهم من قولهم:

﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ﴾ فهم يحملون بذور الإيمان ولكنهم يحملون معها جبناً وضعفاً وخوراً لا يستطيعون المواجهة في المعركة...

ثم ينقل الله مشهداً أخراً من مشاهدهم.

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ أما إذا انتصر المسلمون وحازوا على الغنائم ورجعوا بالأموال الوافرة فتتحرك أنفسهم الشحيحة المحبة للدنيا، يقول: يا ليتني كنت معهم في المعركة لأخذت من الغنائم والأسلاب فأفوز كما فازوا بنصيب وافر.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ جملة معترضة تحمل عليه وتعريه وتجعله غريباً عن جسد هذا المجتمع الذي يعيش فيه وعن روحه لأن من يعيش في مجتمع يتفاعل معه في السرّاء والضراء ويعيش آماله وأحلامه ويحمل همومه وأحزانه، أما هذا المخلوق فهو شاذ يعيش النشاذ يريد الغُنم ولا يتحمل أي غرم مهما كان صغيراً أو حقيراً.

قال تعالى: ﴿۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)﴾.

۞ ۞ ۞

## اللغة

﴿يَشْرُونَ﴾: يبيعون، وشرى: من الأضداد يكون بمعنى باع واشترى.

﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: طريقه الموصل إلى رضاه.

﴿يَغْلِبْ﴾: ينتصر.

﴿نُؤْتِيهِ﴾: نعطيه.

﴿أَجْرًا﴾: ثواباً.

## التفسير

فيما تقدّم ذكر سبحانه حال بعض المسلمين الذين يتأخرون عن الجهاد وحكى عن نفوسهم المريضة التي تتمنى لو كانت موجودة مع المجاهدين عندما ينتصرون وتفرح لغيابها عن ساحة المعركة إذا كانت الدائرة عليهم خوفاً من أن تصيبها بعض ما أصابهم..

وهنا تفريعاً على ما تقدّم يأمر سبحانه بالقتال في سبيل الله ويحثّ عليه أشد الحث.

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في سبيل الدعوة ونشر الإسلام ورفع راية لا إله إلا الله... القتال من أجل الله وفي سبيله وليس من أجل المغانم والمكاسب وحطام الدنيا...

﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهم الذين يتطلعون إلى الآخرة ونعيمها ولا ينظرون إلى الدنيا وزخارفها... إن من يترك الاسترخاء وما في الدنيا من متع وملذات ثم يطلب الآخرة وما فيها من أجر ونعيم هذا يشتري الآخرة بالدنيا ويبيع هذه الدنيا الدنية بالآخرة العظيمة... إنه استبدال للدنيا وما فيها وتنازل عنها وعما فيها بالآخرة وما فيها وهذه صفقة رابحة ناجحة...

ثم زيادة في الترغيب بالقتال في سبيل الله قال سبحانه: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فالمقاتل في سبيل الله له أجر عظيم في كلتا حالتيه حالة استشهاده أو حالة انتصاره... إنه بإقدامه على الجهاد وممارسته له مضمون الأجر والثواب...

ولا يخفى أنه قدم القتل لأنه مضمون الأجر من حيث انتهاء التكليف به بينما إذا غلب العدو فموقوف تمام الأجر على إكمال طريق الإيمان واستمراريته فيه...

ثم أيضاً لم يذكر الفرار بل ذكر الشهادة ـ فيُقتل ـ أو ينتصر ـ أو يغلب ـ لأن المجاهد في سبيل الله ليس من شأنه ذلك ـ الفرار ـ ولا من عادته. فلذا لا يخطر بباله ولا يفكر فيه فيسقط من حسابه وينتفي من قاموسه فلا يستحق الذكر...

قــال تــعــالــى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: من ضعف، والضعف: خلاف القوة، والمستضعف: ضد المستكبر.

﴿ٱلنِّسَآءِ﴾: جمع مفرده امرأة.

﴿ٱلْوِلْدَٰنِ﴾: جمع وليد: وهو كما في الصحاح الصبي والعبد، والوليدة: الصبية والأمة، والجمع ولائد فالتعبير بالولدان من باب التغليب.

﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾: يراد بها هنا مكة، والقرية: في الأصل اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس جميعاً.

﴿وَلِيًّا﴾: الولي: هو المدبّر لأمور غيره والمتولّي لشؤونه.

﴿نَصِيرًا﴾: النصير: المعين.

## التفسير

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ هذا استفهام يراد به التحريض على القتال والحث عليه وكأنه لا عذر لكم في ترك هذا القتال في سبيل الله أي في سبيل دينه وإعلاء كلمته ونشر رسالته.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ عطف على اسم الجلالة وما لكم لا تقاتلون في سبيل المستضعفين..

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ قوم من الذين آمنوا ولم يقدروا على الهجرة وترك بلاد الكفر إما لعجزهم وعدم قدرتهم وإما لمنع الكفار لهم، إنهم يريدون بذلك فتنتهم عن دينهم وردهم إلى الشرك والوثنية أو يريدون أن يجعلوهم ورقة ضغط على المسلمين يساومون عليهم لبعض مصالحهم وما يطرأ عليهم.. المستضعفون قوم يعيشون في قهر يمارس عليهم من قبل المشركين ولكنهم يتحسسون واقعهم فلا يرضون به فيعملون بقدر طاقتهم للخروج منه وامتلاك أمورهم وإعادة حريتهم لأنفسهم...

﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ هذا بيان للمستضعفين، فهؤلاء ثلاثة أصناف أقعدتهم الظروف عن الخروج والهجرة، وبنظر الإسلام يستحقون أن يدافع عنهم من قبل المسلمين القادرين على رفع الظلم عنهم. فيجب على الأمة أن تقاتل في سبيل إنقاذهم من هذا الظلم والاضطهاد ويتحول القتال من أجل تحريرهم إلى قتال في سبيل الله يأخذ حكمه وكل ثوابه وأجره...

إن رفع الظلم عن المستضعفين من الواجبات التي يشرّع لأجلها الجهاد وتستحق أن تسل السيوف في سبيلها ولا يجوز السكوت على ظلم مستضعف بل يجب على المستضعف أن يشرح واقعه ويصرخ في وجه الظالمين كما يجب على الأمة أن تستجيب له وتلبي دعوته وتخرج مجاهدة في سبيل إنقاذه ورفع الظلم عنه...

ثم لا يخفى ما في ذكر النساء والولدان من إثارة حمية الغيارى والمدافعين عن العرض كما أن الولدان فيهم من العطف والشفقة بحيث يندفع أصحاب الرحمة لإنقاذهم من بين براثن الظالمين. . .

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ المستضعفون يتحسسون هذا الظلم ويعرفون أن أهل مكة قوم ظلمة، يظلمون الله حيث يجعلون له شريكاً ويظلمون الناس حيث يمارسون الظلم عليهم. . .

المستضعفون قوم يعيشون في حالة صعبة يدركون فداحة ظلم الظالمين وقبح تصرفهم، فلذا يتوجهون إلى الله يطلبون منه المدد والعون وأن يوفر لهم الأسباب التي بها يستطيعون الخروج من هذه القرية التي يمارس أهلها الظلم. . .

إن أول طريق التحرير أن يشعر الإنسان بظلم الآخرين عليه ثم يحاول في سبيل رفع الظلم أن يستعمل شتى الطرق ومختلف السبل. . . إن عليه أن يرفع الصوت عالياً ويشرح مظلوميته ومدى قباحة ما يُمارس عليه من ظلم، وبعبارة أخرى عليه أن يقوم بحملة إعلامية تشرح مظلوميته وتعبىء الرأي العام ضد الظالم ثم يتحرك بكل الوسائل القادر على استخدامها من أجل رفع هذا الظلم. . .

إن هؤلاء المستضعفون لا يجدون في تلك الظروف الصعبة إلاّ الله، فلذا يتوجهون إليه بالدعاء من قلوب تعيش مرارة الظلم قائلين: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ إننا لا نقدر على العيش مع القوم الظلمة فنسألك يا رب أن توفر لنا الأسباب التي تخرجنا بها من بين أهل هذه القرية الظالمين. . .

﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ إنهم يطلبون من الله أن يبعث لهم من عنده من يتولى أمورهم ويحررهم من أيدي الظالمين.

ولا شك أن من يبعثه الله لهذه العملية الإنقاذية هو النبي محمد ﷺ فهم يعيشون اللحظات في انتظاره ووصوله وعلى يديه يتم إنقاذهم وتخليصهم من هذا الظلم المهين. . .

﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ وأنت يا رب هيىء لنا من عندك من ينصرنا

عليهم ويعيننا حتى نحقق ما نريده ونصبُو إليه من تحرير أنفسنا من ظلم الظالمين. . .

وقد استجاب الله دعاء المستضعفين فأرسل إليهم نبيه محمداًﷺ ففتح مكة وأنهى عهد الظالمين ورفع ظلمهم عن الناس أجمعين. . .

## فوائد:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: في هذه الآية وبهذه الصيغة أعظم أنواع الحث والتحريض، خصوصاً مع ذكر النساء ـ وهن ضعيفات يُدفع عنهن وتستثار الهمم من أجلهن ـ وكذلك ذكر الصبيان ـ وهم الأولاد الذكور الذين لم يبلغوا وهم في محط الحيطة والعطف والرأفة. . .

٢ ـ تعلمنا الآيات المباركة كيف يجب أن يعيش المستضعفون حالة من التململ والحركة ابتداءً من الشعور بالظلم إلى الاستغاثة العلنية ثم إلى طلب النصرة. . .

٣ ـ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ فإنه سبحانه نسب الظلم إلى أهل مكة مباشرة ولم ينسبه إلى مكة ـ كما في غيرها ـ حيث قال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[1] لأن مكة قرية مطهرة مكرّمة وفيها بيت الله وهي حرمه فلذا لم ينسب الظلم إليها. . .

(١) الحج/ ٤٥.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿ٱلطَّـٰغُوتُ﴾: كل من يطاع غير الله.

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: الولي: هو الذي يتولى أمور غيره ويدبرها عنه ويطلق على الناصر والمعين وغيرها...

﴿كَيْدَ﴾: الكيد: ضرب من الاحتيال لإيقاع الضرر.

## التفسير

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا تشجيع للمؤمنين وتثبيت لهم في جهادهم المبارك الميمون... إنه سبحانه يتبناهم ويتبنى جهادهم... إنهم يقاتلون في سبيله ومن أجل إعلاء كلمته ونشر رسالته.. إنهم يدافعون عن المظلومين والمضطهدين والمقهورين... إن قتال المؤمنين في سبيل الله ومن أجل الله ومن أجل عباده، فمن هنا أخلصوا له وحوّلوا أعمالهم من أجله لوجهه الكريم.

إذاً فالمؤمنون يقاتلون في سبيل الله.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الذين كفروا بالله ولم يؤمنوا به يقاتلون في سبيل المغانم والمنافع وفي سبيل استعباد العباد وسلب البلاد... إنهم يقاتلون من أجل السيطرة والأهواء والشهوات - وكل قتال لم يكن لله فهو في سبيل الطاغوت، ومن هنا يجب أن يصفي المؤمنون نياتهم ويدخلوا إلى عمق قلوبهم ويحولوا كل حركة لهم لتكون في سبيل الله.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ يا أيها المؤمنون قاتلوا أتباع الشيطان الذين انحرفوا عن الإيمان بالله وانحرفوا عن عبادته والتوجه إليه.

﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ما يحيكه الشيطان وينسجه ضد المؤمنين وتوجهاتهم ومحاربة أهدافهم ما هي إلا حيل ساقطة لأنها لا تنهض في مواجهة الحقيقة التي يؤمن بها هؤلاء المؤمنون ويحاربون من أجلها...

## فوائد:

١ - سبيل الله الذي يقاتل من أجله المؤمنون ويتخذوا صوراً كثيرة كشف عنها الله سبحانه في كتابه وكشف عنها النبي ﷺ في سنته.

منها: القتال لنشر الدعوة ورفع الموانع التي تقف في وجهها.

ومنها: القتال دفاعاً عن الحق.

ومنها: القتال في سبيل إنقاذ المستضعفين من المؤمنين، وهكذا دواليك..

٢ - كل قتال لا يكون في سبيل الله فهو في سبيل الطاغوت وهذا القتال حرام ومن قُتل حُرم من الشهادة وباء بغضب من الله، ومن المعروف أن الذي يقاتل في سبيل الطاغوت هم الكفار والمنافقون...

٣ - من المقطوع به أن القتال المسلح في الإسلام لا يكون إلاّ بعد دعوة

الكفار إلى الإسلام ووصول هذا الإسلام بعقائده وأحكامه إليهم حتى تقوم الحجة عليهم ولا يبقى لهم عذر، هذا إذا كان القتال ابتداءً، وأمّا إذا كان دفاعاً فلا بُدّ من المواجهة بالسرعة المطلوبة التي يدفع بها العدو عن المسلمين وعن بلادهم. . .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة:

﴿كُفُّوا﴾: الكفّ: هو الدفع على أي وجه كان، وكفُّوا أيديكم: أي أمسكوها.

﴿كُتِبَ﴾: فُرض ووُجب.

﴿فَرِيقٌ﴾: جماعة، طائفة.

﴿يَخْشَوْنَ﴾: يخافون، والخشية: خوف يشوبه تعظيم.

﴿أَخَّرْتَنَا﴾: التأخير: مقابل التقديم.

﴿أَجَلٍ﴾: الأجل: المدة المضروبة للشيء، ويقال للمدة المضروبة لحياة الإنسان: أجل، فيقال: دنا أجله: عبارة عن دنو الموت.

﴿مَتَاعُ﴾: المتاع: كل ما ينتفع به على وجه، ولذا سمّي ما في الدنيا من ملذات وأغراض: متاع.

﴿فَتِيلًا﴾: الفتيل: المفتول، وسميّ ما يكون في شق النواة فتيلاً ويضرب به المثل في الشيء الحقير.

## التفسير

لا شك أن هذه الآية واردة في قوم من أصحاب النبي ﷺ لم يكن مسموح لهم أن يقاتلوا الكفار في ابتداء الإسلام ـ أيام مكة ـ وكانوا يتمنون ذلك ويطلبون الإذن من النبي بالمواجهة، ولكن بعد أن تغيّرت الظروف وفُرض القتال تغيّرت مواقفهم واستنكروا هذا التشريع وتمنّوا أنه لو لم يفرض عليهم...

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ استفهام تعجبي من حال هؤلاء القوم الذين كانوا يطلبون السماح لهم بالقتال فقيل لهم ـ والقائل هو النبي ﷺ ـ ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾: أي اقبضوها وأمسكوها عن القتال لأن المصلحة ليس في المواجهة المسلحة في هذه الظروف الصعبة.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أُمروا بالصلاة لـمَ فيها من صلة روحية بينهم وبين الله، إنها تقوّي الرابطة وتنمّي الروح وتصقل النفس.. إنها مرحلة تُهيىء الإنسان وتعدّه إعداداً عظيماً لمواجهة الأخطار في المستقبل وتؤهله لحمل الرسالة والدفاع عنها..

إن الإنسان في ابتداء الدعوة يحتاج إلى رياضة روحية توصله بالله، فهو باستمرار يجب أن يشحن نفسه بطاقات قوية من الصلة بالله ليتمكن من مواجهة الطغاة والظالمين، كما أنه بحاجة إلى تعاون مالي تسخو به نفسه ويشعر أنه جزء من هذا المجتمع الجديد يتفاعل معه ويساعده ويمدّ له يد العون...

إن هذه المرحلة ـ المكية ـ مرحلة إعداد وتهيئة وليست مرحلة مواجهة مسلحة، فلذا أُمروا بكف أيديهم عن القتال كما أُمروا بالصلاة والزكاة...

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ فلما فُرض عليهم القتال ووُجب عليهم القيام

المسلح لمواجهة العدو وكان من حقهم أن يفرحوا وتنشرح صدورهم، لأنهم طلبوا ذلك من قبل ونمّوه ولكن القضية جاءت خلاف ذلك وعكسه.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ إنها مفاجأة لم تكن متوقعة، والمفاجأة.. أن جماعة منهم عندما يواجهون بهذا التكليف الجهادي يخافون ويفزعون من لقاء العدو وجهاده كما يخافون ويفزعون من عذاب الله، بل أشد خوفاً وفزعاً وهذا من المفارقة بمكان... لقد وقع ما طلبوا، فلما وقع لم يستطيعوا تحمله أو الصبر عليه بل فزعوا وخافوا منه أشد من خوفهم من عذاب الله...

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إنها حالة الضعف البشري أخذتهم إلى الجهر بمكنون قلوبهم وخفايا ضمائرهم... إنها مقولة الخائفين من الموت الذين يخشونه ويفزعون من وقوعه بهم فتنطلق ألسنتهم بالقول:

﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ إنهم يعترفون بالله ويؤمنون به ولكنهم يخافون من القتال الذي يمكن أن ينهي وجودهم ويقضي على حياتهم، فلذا تمنّوا على الله أن لا يكون قد كتب عليهم القتال وأن يؤخّر موتهم إلى انتهاء أعمارهم المقدّرة فلا يقطعها الجهاد بشهادة يمكن أن تحصل بهذا القتال...

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هلاّ تركتنا حتى نموت في أوقات وفاتنا التي هي قريبة دون أن نقتل في عمليات جهادية...

إنهم تمنّوا الموت الطبيعي على الشهادة التي يمكن أن تحصل في وقت الجهاد، وهذا القول منهم تحمله الطبيعة البشرية المحبة للحياة الدنيا والتي لم تدرك سر الحياة الآخرة وما في الشهادة من أجر وثواب وعلو درجات.

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يأمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد الحقيقة وكما هي وليأخذوا بها لأنها عين الحياة وسرها..

قل لهم: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ نعيم الدنيا وما فيها من ملذات قليل لأنها متع منقطعة، إن لذة الخير تتوقف في وقت معين ومتعة الأكل والشرب إلى وقت معين، وهكذا متعة الشباب والغنى وكل ما يتصوره الإنسان فهو إلى زوال فهو قليل في كمّه وفي وقته وكيفه.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الآخرة وما فيها من نعيم خير لمن اتقى الله وعمل بأمره لأنها خالدة بما فيها من متع وملذات إنها خيرات لا يقطعها موت ولا أي عارض من عوارض الحياة التي تفسد على المرء استقراره واستمرار لذاته.

وكأن قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ علة البلوغ لهذا الخير في الآخرة...

وأطلق سبحانه الخير ﴿خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ليكون خيراً من جميع الجهات.

﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ تصلكم أجوركم كاملة غير منقوصة، وعبّر بهذا الشيء الصغير «الفتيل» الذي لا قيمة له كناية عن نفي مطلق الظلم عن نفسه وأن الأجور تصل إلى أصحابها كاملة...

والفتيل: كما ذكرنا في اللغة ـ ما يكون في شق نواة التمر ويضرب به المثل في الشيء الحقير...

قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يُدْرِككُّمُ﴾: أدرك الشيء: إذا لحقه، وتدارك القوم: إذا لحق آخرهم أولهم.

﴿بُرُوجٍ﴾: القصور، وقيل: البناء المرتفع وأصله من الظهور، ومنه تبرج المرأة: إذا أظهرت محاسنها.

﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾: أصل الشيد: هو الجصّ، والمشيّدة: المبنية بالشيد أي المرتفعة، وبروج مشيّدة: أي قصور مرتفعة أحكم بناؤها.

﴿تُصِبْهُمْ﴾: تدركهم.

﴿حَسَنَةٌ﴾: الحسنة: يعبر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله.

﴿سَيِّئَةٌ﴾: كل ما يسيء الإنسان في بدنه ونفسه وأحواله وهي ضد الحسنة.

﴿لَا يَكَادُونَ﴾: لا يقدرون، وكاد: وضعت لمقاربة الفعل، يقال: كاد يفعل: إذا لم يكن قد فعل.

﴿يَفْقَهُونَ﴾: من فقه الشيء إذا فهمه، والفقه: لغة هو الفهم.

﴿حَدِيثًا﴾: الحديث: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي، وسميّ القرآن حديثاً كما هو في المقام..

## التفسير

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ هذا ردٌ آخر على أولئك الذين يريدون أن يتهربوا من الجهاد خوف القتل وتمنّوا لو أن الله رفع عنهم هذا الواجب حتى يموتوا بآجالهم المكتوبة لهم..

ردٌ سبحانه عليهم بحقيقة واقعية لا يمكن التهرب منها وهي كما هي لو استوعبوها وفهموها لآمنوا أن القتل في سبيل الله أفضل السبل...

إنه الموت الذي يلاحق هذا الإنسان وسيدركه أينما كان ولو في القصور المنيعة والحصون الحصينة وإذا كان الموت مدركاً للإنسان في وقت ما ولا بد وأن يحلّ به ويقع فيه فكيف يهرب من القتل الذي يؤدي إلى الشهادة فالسعادة...

إن قتلاً يتعقبه أجر عظيم ومقامٌ رفيعٌ خير ألف مرة من الموت بدون أجر أو ثواب.

وينبغي التنبه إلى قوله تعالى: ﴿يُدْرِككُّمُ﴾ على أنه لا محالة سيصل إلينا ويقع بنا، فهو يطاردنا من خلفنا وكل يوم يمضي يقترب الموت منا وهذه حقيقة واقعة وكل واحد منّا مطمئن إليها متيقن من وقوعها. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾(١).

فإذا كان لا بد من الموت فمن سوء حظ الإنسان أن يتهرب من الشهادة والقتل في سبيل الله ويتمنى ميتة على الفراش.

---

(١) الجمعة/٨.

إن علي بن أبي طالب عليه السلام أدرك هذه الحقيقة فقال «والله لألف ضربة بالسيف خير من ميتة على الفراش...».

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ هذه مقولة جائرة وغير واعية تفوّه بها بعض الذين لم يدركوا معنى النبوة ودورها وأهميتها، بل كانوا يعيشون بعض متع الحياة ويقيسون الأمور بمقدار ما يربحون من الدنيا أو يخسرون منها...

إن أصابت هؤلاء القوم حسنة «من نصر أو غنيمة أو خصب أو رخاء» فرحوا بها وانطلقت أنفسهم بالقول: هذه من عند الله والله أكرمنا بها لأننا أهل لها ومن مستحقيها...

وأمّا إذا أصابتهم سيئة من هزيمة أو قتل أو جذب أو غيرها مما يضر يتوجهون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يتهمونه بأنه وراءها ويقولون: إن سببها اتباعهم له ودخولهم في دينه.. إنهم ظالمون جائرون حيث ينسبون ما يصيبهم من سيئات ومصائب وويلات إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ولكن الله يسمع كلامهم فيردّ عليهم الرد المفحم ويلقنهم الحقيقة التي يجب أن يقتنعوا بها ويرجعوا إليها. فقال تعالى:

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي الحسنة والسيئة بتقدير الله وعلمه فهو الذي وضع قوانين هذا الكون ضمن سُنن معينة تجري وفقها الأشياء من صغير الأمور إلى كبيرها.. من الذرّة إلى المجرة، فما يصيب الإنسان من حسنة فهو ضمن النظام العام المحكوم له هذا الإنسان، كما أن الكون كله محكوم لهذا النظام، فإذا أصاب هذا الإنسان سيئة فبموجب هذا القانون العام أيضاً...

إنها قوانين عامة وضوابط شاملة ينتظم ضمنها هذا الإنسان فيصيبه تارة البلاء وأخرى الرخاء وتارة يضربه زلزال يأتي عليه وأخرى يعيش بهدوء وسكينة وخصب وأمن ورفاهية والكل بتقدير الله ويخضع لنظام دقيق متقن...

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ هذا ازدراء بهم وتصغير لشأنهم

وإنهم في الغباء إلى درجة أنهم لا يفهمون الأمور على حقيقتها ولا يدركون عمقها وأثرها. . .

إنهم جهلة لا يفهمون أن الأمور بيد الله تجري وفق سنن هذا الكون التي وضعها فيه وسيّره وفقها بدون خلل يصيبها أو نقص يعتريها. . .

لا يخفى بلاغة قوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ لأن نفي المقاربة للفعل أبلغ من نفي الفعل كما هو واضح.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾: ما أدركك وحل بك.

﴿أَرْسَلْنَـٰكَ﴾: بعثناك.

﴿كَفَىٰ﴾: من الكفاية: ما فيه سد الخلة وبلوغ المراد في الأمر.

﴿شَهِيدًا﴾: شاهداً على رسالتك ومثبتها لك...

## التفسير

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ حمل بعضهم «الحسنة» هنا على نجاح الإنسان في الدنيا وأن هذا الإنسان إذا اتبع القوانين الموضوعة للنجاح وعمل بها فقد فاز، وينسب هذا الفعل إلى الله لجهة أنه أَقْدَرَ الإنسان وأعطاه القوة ورسم له طريق النجاح، فهو سبحانه المسبب للنجاح فصحت النسبة ونُسب الفعل إليه تعالى.

وبهذا خرج عن الإشكال بل حلّه من حيث حمل الحسنة في الآية المتقدمة

على حوادث الطبيعة وهي تكون كلها من الله سواء كانت حسنة أو سيئة، بينما هنا تصح النسبة إلى الله إذا حملنا الحسنة على نجاح الإنسان في الدنيا.

كما أنه حمل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ على الفشل الذي يُمنى به الإنسان لأنه خالف قواعد النجاح التي وضعها الله، فنسبة السيئة إلى العبد نفسه دون الله وبهذا خرج عن الإشكال القائل بالتنافي بين الآيتين من حيث أن الآية الأولى نسبة السيئة والحسنة إلى الله، وفي الآية هذه فصلت.. فنسبة الحسنة إلى الله والسيئة إلى العبد نفسه...

ونقول: حتى لو كانت السيئة والحسنة بمعنى واحد فلا تنافي بينهما لأن الآية الأولى تنظر إلى أن الله هو الذي وضع القوانين فصحت النسبة إليه، ومن جهة أخرى باعتبار أنه سبحانه أعطى القدرة لهذا الإنسان ليحتمي من حوادث الطبيعة فإذا لم يعمل ذلك أو لم يقم بأي حماية فيكون هو الذي جنى على نفسه وتصح نسبة السيئة إليه بهذا المعنى...

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ هذا بيان لعظمة النبي وأنه سبحانه أرسله للناس جميعاً يبلغهم رسالته وينقل إليهم كلامه.

ولتأكيد هذه المهمة ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ جيء بقوله: ﴿رَسُولاً﴾ وأن الله اختصه بهذه المهمة العظيمة.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ حسبك يا محمد بالله، فالله يشهد على رسالتك وصدق ما جئت به. أو كفى بالله شهيداً على عمل عباده من يطع منهم ومن يعصي...

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿تَوَلَّىٰ﴾: اعرض.

﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: بعثناك.

﴿حَفِيظًا﴾: الحفيظ: المتعهد للشيء والراعي والمتفقد له...

## التفسير

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ هذه الآية توحّد طاعة الرسول بطاعة الله وتجعل طاعة الرسول هي عين طاعة الله...

إنها تُظهر أن كل ما يقوله النبي ﷺ أو يفعله أو يقرره فهو حجة يجب على الناس أن يأخذوه ويعملوا به لأنه أخذ شرعيته من انتمائه بالنهاية ليكون طاعة لله، وطاعة الله واجبة..

كما أن الآية تكشف بشكل قاطع عن عصمة النبي وإلاّ كيف تتحول طاعته

إلى طاعةِ الله لو لم يكن بهذا المستوى من الملكة الإلهية التي هي العصمة... كما أننا نستفيد أن من عصى الرسول فقد عصى الله...

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ من أعرض عن طاعتك وقبول قولك فليس عليك حفظ أعمالهم وعلينا حسابهم لأنك رسول تحمل واجب تبليغ هذه الرسالة ونقلها إلى الناس دون غيرها من متابعتهم وحفظ أعمالهم، نعم إن الله هو الذي يحفظ أعمال العباد ويحاسبهم عليها...

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿طَاعَةٌ﴾: الطاعة: الانقياد.

﴿بَرَزُوا﴾: خرجوا، من برز: إذا ظهر.

﴿بَيَّتَ﴾: دبّر الأمر بليل، والبيات: أن يأتي العدو ليلاً، وقولهم: أمر بُيّت بليل: أي دُبّر.

﴿طَائِفَةٌ﴾: جماعة، فريق.

﴿فَأَعْرِضْ﴾: فاصفح.

﴿وَتَوَكَّلْ﴾: فوّض أمرك إلى الله، وأصل الوكيل: هو القائم بما فوّض إليه من التدبير.

## التفسير

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ هذه حال فريق ممن يعيش مع النبي ﷺ إنه فريق ضعيف الإيمان لم يثبت الإيمان في قلبه أو يستولي على نفسه، فهو يعيش ازدواجية

مخيفة تجعله إذا سمع كلام النبي وأمره أن يقول ﴿طَاعَةٌ﴾ أي أمرك مُطاع ونحن طوع إرادتك. . . إنه يظهر الطاعة ويعلن بها أمام النبي ﷺ ولكنه إذا خرج من عنده.

﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ فإذا خرجوا من عندك وانفردوا فيما بينهم قرّروا عصيانك ومخالفة أمرك والتمرد على ما تقول، إنهم نقضوا ما أبرموا من إعطائك الطاعة والالتزام بما تقول. . .

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ هذا تهديد لهم ووعيد، فإن الله يكتب هذه المخالفة في سجل أعمالهم وسيحاسبهم عليها ويعاقبهم على فعلها. . .

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أهملهم واترك محاسبتهم ولا تؤاخذهم بما فعلوا.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ اجعل الله وكيلاً عنك في ملاحقتهم ومحاسبتهم وفضح سرائرهم.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ كفى بالله ناصراً لك ومعيناً فهو الذي ينتقم منهم ويكفيك شرهم وأذاهم. . .

يبقى أن نذكر أن هذه الآية صريحة، أنه ليس كل أصحاب النبي ﷺ ـ حتى من رآه مرة أو سمع ولو حديثاً واحداً ـ فهو عدلٌ ثقة وقد طوي البحث عنهم، بل إن منهم من يكيد للنبي ﷺ ويخالف أمره ويعصي ما يلتزم به. . .

كما ينبغي أن ننبه إلى أن تذكير الفعل «بيّت» إنما هو لأجل أن ﴿طَائِفَةٌ﴾ ليس مؤنثاً حقيقياً ولأنها أيضاً بمعنى الفريق والفوج. . .

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾: التدبر: هو النظر في عواقب الأمور، وأصله من دبُر التي تعني مؤخر الشيء وعاقبته.

﴿ٱخْتِلَٰفًا﴾: الاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر والخلاف أعم من الضد لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين..

## التفسير

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ استفهام يراد به الحض والترغيب للنظر في القرآن...

تدبَّروا هذا القرآن وادرسوه جيداً، انظروا في حلاله وحرامه ووعده ووعيده وفي إخباره بالغيب وفي ذكر الأمم الماضية... انظروا في فصاحته وبلاغته وتشريعه.. انظروا في كل كلمة منه وكيف أنها في موقعها ولو حذفت لاختل المعنى والمبنى فكل كلمة ركن أساسي في موقعها...

وهذه الآية واضحة في الدعوة إلى تدبر القرآن ودراسته، وأنه مما يُفهم

وتعرف أحكامه وتعاليمه الكلية، وإلاّ كيف يأمر الله بالتدبر فيه وكيف ينفي الاختلاف فيه لو لم تعرف آياته وتقارن ببعضها فينتفي الاختلاف...

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ فمن عدم الاختلاف بين آياته نعرف أنه من عند الله.

بيان ذلك: أن الإمكان البشري والقصور الذاتي والضعف الذي يعيش في هذا الكائن كل ذلك يُسقط الكمال المطلق من عمل هذا الإنسان، بل يبقى الكمال نسبياً في حدود معينة يختلف شدّة وضعفاً، كثرة وقلة، لكن بالتالي هناك خلل واختلاف في الفعل وخصوصاً إذا كان كبيراً وضخماً، وهذا أمر مدرك وواقع لا ينكره إلاّ معاند، إننا نجد من يكتب شعراً أو نثراً تارة يبدع وأخرى يسف، وتارة يحلّق، وأخرى يحط، وتارة يرتفع، وأخرى يسقط، وهكذا دواليك. وهذا يدلل على أن هذا الإنتاج عبقرية بشرية تعيش هذه الحالات الطبيعية فيها...

وأمّا القرآن فإنه نسيج واحد من أوله إلى آخره، من أول آية نزلت إلى آخر آية... نجد الفصاحة نفسها والبلاغة نفسها وقوة المعنى وعمق المدلول...

إنك تقرأ الآية فتجد الترابط والتوحد في العقيدة والتشريع والإخبار بالغيب وأخبار الأمم الماضية... تجد الأوامر والنواهي والزواجر والمواعظ والحكم والأمثال والقصص كلها في قالب واحد وتهدف إلى هدف واحد...

نَعم بقي القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ ثلاث وعشرين سنة يأخذه المسلمون والعرب وأهل الجاهلية يدرسونه ويحللون معانيه ويقفون على فصاحته وبلاغته فلم يجدوه إلاّ وحدة متكاملة هادفة صادقة لا اختلاف فيها ولا تناقض. وهذا يدلل على أن مصدره ليس البشر، بل الله الواحد القهار العليم الحكيم الذي صاغه لفظاً ومعنى وأوصى به إلى النبي ﷺ فبلّغه النبي كما تلقّاه دون زيادة أو نقيصة ولو حرفاً واحداً...

إن كمال القرآن يدل على كمال منزله المطلق وهو الله تعالى. وإذا كان الله هو منزله فيكون محمد ﷺ رسولاً من قبله جاء بالحق من عنده...

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

## اللغة

﴿ٱلْأَمْنِ﴾: أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف.

﴿ٱلْخَوْفِ﴾: توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة.

﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾: نشروه وأشاعوه.

﴿رَدُّوهُ﴾: أرجعوه.

﴿أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ﴾: أولي الشأن الذين لهم حق الأمر والنهي.

﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: الاستنباط: لغة وهو الاستخراج، والنبط: الماء الذي يخرج من البئر أول ما يحفر.

﴿لَٱتَّبَعْتُمُ﴾: لاقتفيتم وسرتم خلفهم.

## التفسير

حرب الإشاعات:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ هذا أيضاً مما كان يقوم به بعض ضعفاء الإيمان من المسلمين، إنها حالة مضرة مسيئة لذلك المجتمع الناشيء...

إنهم قوم قليلون كانوا يتلقفون كل شائعة سواء كانت تبعث الطمأنينة أو الخوف ثم ينشرونها دون تحقيق أو تدقيق، وقد تكون هذه الشائعة صنيعة المنافقين، أو يكون قد سرّبها بعض الأعداء...

وحرب الإشاعات من أخطر الأسلحة حتى في عصرنا الحاضر، لأنها تفتّ من عضد الجماعة وتهزمها من داخلها وتحوّل المجتمع إلى مجتمع مضطرب يعيش الترقب الصعب والحياة القلقة غير المستقرة...

حرب الإشاعات توقف حركة النمو والتطور وتعطل كل القوى العاملة خصوصاً إذا كانت بمستوى ما يهدّد الأوطان أو يهدّد حياة الناس وأمنهم واستقرارهم...

وفي الآية «تعبير» لهذه الفئة التي تتلقف الخبر وتتسلمه وبمجرد وصوله إليها تقوم بنشره وتوزيعه وبثه وتفريقه، إنها أشبه بوكالات الأنباء ـ في أيامنا ـ ولكن على شكل مصغّر في ذلك المجتمع البسيط غير المتطور...

إن الإشاعات ربما هزمت جيوشاً كانت من النصر قاب قوسين أو أدنى وربما نصرت جيشاً كاد أن ينهزم... ربما بإشاعة قضيت على حاكم كبير، وربما رفعت رجلاً وضيعاً.

وهكذا ربما بنت الإشاعات وربما هدمت. ومن هنا يجب أن يتوقف العقلاء

وأصحاب الدين عند كل شائعة فلا يتكلمون بها أو ينشروها أو يحكون بها حتى يتحققوا من صدقها وكذبها أو من صحتها وسقمها...

والآية ترد المسلمين إلى من ينقذهم من هذه الحالة المضرة وتهديهم إلى السبل التي يعتصمون، إن رجعوا إليها من كل سقوط أو انحراف أو عصيان...

إن الله يوجه المسلمين الوجهة الصحيحة ويرسم لهم الطريقة العملية التي تنقذهم من كل الإشاعات المضرة بهم وبمجتمعهم حيث يقول لهم:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ هؤلاء الضعفاء من حقهم أن يرجعوا في هذه الإشاعات والأراجيف وما يذاع وينشر، يجب أن يرجعوا فيها إلى النبي ﷺ وأولياء الأمور المتقدمين في خبرتهم في القضايا التي تنشر وتذاع ويعرفون صدقها من كذبها وما ينفع منها مما يضر.

إن النبي وأولياء الأمور هم أهل الخبرة في مصالح المسلمين ومضارّهم فيجب أن يُرجع إليهم لتحديد ما يجوز نشره وما لا يجوز نشره... إنهم الخبراء الرقباء الأمناء على المسيرة وسلامتها وإليهم يجب الرجوع ومنهم تقبل الحقائق وترفض الأباطيل...

فالنبي ﷺ وأولياء الأمور هم أهل الاستنباط والخبرة وهم الذين يعرفون صدق الإشاعة من كذبها...

يبقى أن نذكر أن ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ في الآية هم أئمة أهل البيت كما ورد في تفاسيرنا ويساعد على ذلك أن ما ذهب إليه المخالفون لا يدعمه الكتاب ولا السنة ولا الأثر، وما هي إلاّ اجتهادات وآراء شخصية عارية عن كل سند أو دليل كمن يذهب إلى أنهم أمراء السّرايا أو العلماء أو الخلفاء الراشدون. فإن هؤلاء بين ما لا دليل عليه كما في الخلفاء الراشدون أو ما لا يكون لهم خبرة ولا معرفة له بإدراك صدق الشائعات من كذبها لأنها مصاديق تتوقف على أهل الخبرة والمعرفة...

في كتاب (الكافي) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال الله عز وجل: ﴿أَطِيعُوا

اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وقـال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فردّ أمر الناس إلى أولي الأمر منهم الذين أمر بطاعتهم والردّ إليهم.

وفي تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ قال: هم الأئمة عليهم السلام.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا امتنان من الله على الناس وأنه سبحانه لولا فضله بإرسال الرسل ووجود القادة المبدئين الذين يوجهونكم الوجهة الصحيحة السليمة ويكشفون لكم الحقيقة بصدق وأمانة ويوقفونكم على ما يردكم من أخبار وأحكام فيصححون الصحيح ويزيّفون الباطل، لولا ذلك لاتبعتم الشيطان فيما ينشر من إشاعات وأخبار مضلّلة تضرُّ مصالح الأمة وتفسد عليها أمنها واستقرارها..

لولا فضل الله عليكم ببعثة الرسل وإنزال الكتب وتعيين الخلفاء القادة لكنتم في ضلال تتبعون الشيطان في الانحراف والمعصية في العقيدة والشريعة إلاّ قليل منكم ممن زودهم الله بروح منه وعطاء فتحصنوا بهذا العطاء المانع لهم من متابعة الشيطان...

قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾.

* * *

## اللغة

﴿فَقَٰتِلۡ﴾: حارب وجاهد.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: السبيل: هو الطريق، وسبيل الله: طريقه الموصل إلى رضاه.

﴿لَا تُكَلَّفُ﴾: التكليف من الكلفة: وهي المشقة.

﴿حَرِّضِ﴾: التحريض: الحث على الشيء.

﴿يَكُفَّ﴾: يمنع.

﴿بَأۡسٗا﴾: أصل البأس: هو المكروه وهنا يقصد بها الشدّة والبطش.

﴿تَنكِيلٗا﴾: تعذيباً، والنكال: العذاب، وأصله من التعذيب بالنكل: وهو القيد استعمل لكل عذاب مع هذه الخصوصية.

## التفسير

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَقَاتِلْ﴾ تعقيباً على مضمون ما تقدم من الأمر بالجهاد وتثبيط بعضهم عنه، يأمر الله نبيه هنا أن يقاتل في سبيل الله ولو كان وحده لأنه مكلّف بذلك وهو مسؤول عن نفسه وليس بمسؤول عن غيره إن لم يستجيبوا له...

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أنت مسؤول عن نفسك ومحاسب عليها إن قصّرت، أمّا غيرك فلست مسؤولاً عنهم إن لم يستجيبوا لك ويلبّوا أمرك ويخرجوا للجهاد...

﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نعم عليك أن تحث المؤمنين وتدفعهم للجهاد، فالرسول عليه الجهاد بنفسه وعليه أن يحض المؤمنين ويدفعهم إلى الخروج للجهاد...

وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام: أن الله كلّف رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يكلّف أحداً من خلقه، كلّفه أن يخرج على الناس كلهم وحده بنفسه إن لم يجد فئة تقاتل معه، ولم يكلف هذا أحداً من خلقه أن يخرج على الناس كلهم وحده بنفسه لا قبله ولا بعده ثم تلا الآية...

ويصدّق هذا ما روي في أسباب النزول من أن أبا سفيان لما رجع يوم أُحد وَاعَدَ رسول الله صلى الله عليه وآله لموسم بدر الصغرى، فكره الناس وتثاقلوا حين بلوغ الميعاد فنزلت الآية الكريمة. وقد خرج النبي صلى الله عليه وآله ومعه سبعون رجلاً فقط، وأما الباقي فتثاقلوا وكان على النبي صلى الله عليه وآله أن يخرج وحده ولو لم يخرج أحد معه...

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عسى الله أن يمنع الذين كفروا عن القتال ويوقف تحركهم ضد جيوش المسلمين فيُرجعهم عن قصدهم ويمنعهم عن تحقيق هدفهم، وقد كان ذلك حيث أن أبا سفيان عندما جاء الميعاد لموافاة بدر لم يخرج، وقال: هذا عام مجدب لا يصلح للحرب، فانصرف عن موافاة

المسلمين وذهب بتجارة إلى الشام وعاد النبي ﷺ بأصحابه السبعين إلى المدينة لما لم يجد أبا سفيان وقد دفع الله عنه الحرب ومنع أبا سفيان من الموافاة في الموعد المحدود. . .

وفي الآية جرعة معنوية قوية للمؤمنين. . .

يبقى أن نقول: أن ﴿عَسَى﴾ تفيد الترجّي والطمع! وكيف يمكن لله أن يستعملها في حق نفسه؟

وقد أجيب عن ذلك بأجوبة:

١ - إن معنى ﴿عَسَى﴾ الأطماع وليس في الأطماع أنه شك أو يقين.

٢ - قال بعضهم: أطماع ولكن أطماع الكريم إيجاب، وهذا ما حدث في هذا المقام حيث ردَّ الله أبا سفيان ولم يكن حرب. . .

٣ - وقال بعضهم: إن ﴿عَسَى﴾ تبقى على معناها الأصيل، ولكن بما أن ما بعدها قد يحتاج إلى مقدمات كثيرة على العبد أن يوفرها، فإذا لم يوفرها لا يتحقق مضمونها فيؤتى بـ ﴿عَسَى﴾ رجاء تحققها فيتحقق المطموع به وإلاّ فلا. . .

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ والله أشدُّ قوة وسطوة، وأشدُّ عقوبة وعذاباً، فإن عذابه دائم ولا يمكن التخلص منه وهو محيط بهذا الإنسان فيناله من جميع جهاته. . .

قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿شَفَٰعَةً﴾: أصل الشفاعة من الشفع: وهو الزوج في العدد، ومنه: الشفيع لأنه يصير من صاحب الحاجة شفعاً، فالشفاعة: ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك.

﴿حَسَنَةً﴾: الحسنة: كل نعمة تنال الإنسان في نفسه وعدته وأحواله.

﴿نَصِيبٌ﴾: سهم وحظ.

﴿سَيِّئَةً﴾: كل ما يسيء للإنسان ويغمه في بدنه ونفسه وأحواله وهي ضد الحسنة...

﴿كِفْلٌ﴾: نصيب.

﴿مُّقِيتًا﴾: مقتدراً، وقيل الحافظ.

## التفسير

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ الشفاعة: هي أن يتوسط الإنسان لأخيه بإنجاز أمر يريده. فعندما ينضم الشفيع إلى المشفوع له تقوى الحجة

وتصبح نافذة، وهي إن كانت في الخير ينال الشفيع سهماً وحظاً منها فمن توسط في إكرام يتيم والإحسان إليه ناله سهم من هذه الشفاعة وحظ منها، وهكذا في كل فعل طيب يسعى الإنسان لإنجازه للآخرين. .

ولا يخفى مدى ارتباط هذه الآية بما تقدم من جهة أنه تعالى أمر النبي ﷺ أن يحرِّض المؤمنين على الجهاد، وهو من الأعمال الحسنة فينال النبي بذلك التحريض أجراً عظيماً سواء فعلوا ما أمرهم ونفذوه أو لم ينفّذوا فالثواب حاصل له. . .

وقد يتسع موضوع الشفاعة ليشمل الدعاء للأخ بظهر الغيب فيكون للداعي نصيب من الأجر والثواب، وهذا لا بأس به لأن الداعي يتوسط بدعائه لمنفعة أخيه، وهكذا. .

وفي الخصال عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن النبي ﷺ قال: من أمر بمعروف أو نهى عن منكرٍ أو دلَّ على خيرٍ أو أشار به فهو شريك. . .

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ وهذا الشفيع بالسيئات يحصل له حظ ونصيب يعادل فعله ويساويه، فمن تشفَّع في إسقاط حد من حدود الله كان له نصيب لهذه المخالفة والمعصية الكبيرة، ومن تشفع في ظلم إنسان كان شريكاً للظالم، وهكذا. . .

يبقى سؤال ربما يخطر بالبال، وهو أنه لماذا كان التعبير بشفاعة الحسنة يكن له ﴿نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ بينما عُبِّر في الشفاعة بالسيئة ﴿يَكُن لَّهُۥ﴾ ﴿كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ وأجابوا:

١ ـ إن هذا من باب التفنن المرغوب في التعبير.

٢ ـ وقال بعضهم إن النصيب يشمل الزيادة، والكفل: هو المثل المساوي وذلك أن الحسنة مضاعفة والسيئة تجزى بمثلها. . .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي مقتدراً يعطي كل شفيع نصيبه مما تشفَّع فيه، فهو سبحانه يحفظ كل عمل من أي نوع كان ويجازي به أجراً وثواباً أو عذاباً وعقاباً. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴿٨٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿تَحِيَّةٍ﴾: أصلها تحيية كتنمية ـ وهي كما قال الراغب: الدعاء بالحياة وطولها ثم استعملت في كل دعاء وهنا السلام.

﴿رُدُّوهَا﴾: الرد: صرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله، وردّوها: أي أرجعوها...

﴿حَسِيبًا﴾: محاسباً على العمل ومكافئاً به.

## التفسير

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ هذا خطاب لجميع المكلفين يجب بمقتضاه ردُ التحية بمثلها أو بأحسن منها...

والتحية هي ـ السلام عليكم ـ وقد أصبحت شعاراً للمسلمين يتبادلونها بمجرد لقاء الواحد بالآخر أو رؤيته له أو المرور به...

ـ السلام عليكم ـ تحية الإسلام ـ المختصة بأفراده وهي تحمل معنى عميقاً

وسراً عظيماً، فإن في إلقائها تعطي الأمن والسلامة للآخرين، وأنهم في مأمن من جانبك لا يمسهم من طرفك أذى أو سوء.

ومن هذه الآية استفاد الفقهاء وجوب ردّ السلام كما أنه قد ورد بطريق سليم عن النبي ﷺ أنه قال: السلام تطوع والردّ فريضة.

**١ ـ كيفية التحية:**

التحية لها صيغ:

١ ـ السلام عليكم.

٢ ـ السلام عليكم ورحمة الله.

٣ ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ويجب أن يكون الردّ بمثل الصيغة التي ألقيت بها التحية أو زيادة عليها.

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام من قال السلام عليكم فهي عشر حسنات.

ومن قال: سلام عليكم ورحمة الله فهي عشرون حسنة.

ومن قال: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته فهي ثلاثون حسنة.

**٢ ـ استحباب إفشاء السلام:**

قال النبي ﷺ: إن أعجز الناس من عجز عن الدعاء، وإن أبخل الناس من بخل بالسلام.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله عز وجل يحب إفشاء السلام.

**٣ ـ تسليم الواحد على الجماعة:**

إذا سلم واحد على مجموعة من الناس فردّ بعضهم ـ ولو واحد ـ أجزأ، ولا يجب على الباقي أن يردُّوا لأنه من الواجبات الكفائية، إذا قام بها البعض سقط عن الآخرين.

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا سلّم من القوم واحد أجزأ عنهم، وإذا ردّ واحد أجزأ عنهم..

وهناك آداب للسلام مذكورة في محلها من كتاب (وسائل الشيعة) في كتاب الحج باب العِشرة..

يبقى أن نشير إلى نكتة استفادها الأئمة عليهم السلام وتبعهم شيعتهم بل والناس أيضاً، وهي أن التحية قد تُوسّع دائرتها إلى كل إحسان يقوم به الإنسان، بحيث تشمل الصدقات والبر وأعمال الخير والإحسان إلى الناس وتبادل العواطف، ولهذا إذا قدّم الإنسان إليك خدمة ثم أمكنك أن تخدمه بأحسن منها قمت بالسداد مستشهداً بالآية الكريمة: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾[1].

أهل البيت عليهم السلام أعطوا للتحية هذا المفهوم الواسع.

قال أنس: جاءت جارية للحسن عليه السلام بطاق ريحان فقال لها: أنت حرة لوجه الله فقيل له في ذلك، فقال: أدّبنا الله تعالى، وقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية: وكان أحسن منها إعتاقها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ إن الله كان ـ ولا يزال ـ على كل شيء محاسباً وحافظاً، يحاسبكم على ردّ التحية بمثلها أو بأحسن منها كما تستحقون بدون نقص كما أنه سبحانه يحاسبكم على كل أعمالكم وأفعالكم ولا يهمل منها شيئاً...

(١) النساء/٨٦.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾: الجمع: ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض، وليجمعنكم: ليحشرنكم.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: القيامة: هو القيام زيدت التاء للمبالغة، ويوم القيامة: يوم يقوم الناس للحساب وأخذ الجزاء.

﴿لَا رَيۡبَۛ﴾: لا شك.

## التفسير

الآية المتقدمة خُتمت بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ وهنا يقسم سبحانه أنه لا بد من أن يجمع الخلق يوم القيامة للحساب لكي ينال كل فرد جزاء عمله. . .

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ توحيد في أعلى مراتب التوحيد يعقد المؤمن قلبه عليه وينفي عن الله الولد والصاحبة والكفؤ وكل أشكال الشرك وعدم التوحيد. . .

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ينفي كل الآلهة المصطنعة والأوثان والأوهام والخواطر الفاسدة ويثبت الألوهية... الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد...

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أقسم سبحانه «باللام» أنه سبحانه سيعيد الناس جميعاً ويحشرهم يوم القيامة ذلك اليوم الذي يبعث الله فيه الموتى من قبورهم فيخرجون لينالوا جزاء ما عملوا... إنه يوم القيامة لا ريب فيه ولا شك يعتريه واقع بأمر الله وعلمه وقدرته وحكمته... فليستعد له هذا الإنسان ويهيىء نفسه بإجادة عمله وإصلاحه...

﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي أنه واقع بدون شك وستصفى فيه الحسابات، فمن عمل صالحاً فإلى روح وريحان وجنة نعيم، ومن عمل سيئاً فإلى عذابٍ دائم ونارٍ وحميم...

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ استفهام يراد به النفي أي لا أحد أصدق من الله، وما وعد به فإنه متحقق واقع لا محالة...

قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿فِئَتَيْنِ﴾: الفئة: الطائفة.

﴿أَرْكَسَهُم﴾: أصل الركس: ردّ الشيء مقلوباً، وهنا ردُّهم إلى الكفر، والركس والنكس شيء واحد.

﴿كَسَبُوٓا۟﴾: الكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ ككسب المال.

﴿أَتُرِيدُونَ﴾: الإرادة منقولة من راد يرود: إذا سعى في طلب شيء.

﴿تَهْدُوا۟﴾: من هدى، والهداية دلالة بلطف: وهي تقابل الضلالة.

﴿أَضَلَّ﴾: من ضل، والضلال: هو العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

﴿سَبِيلًا﴾: السبيل: الطريق.

## التفسير

ذكروا في أسباب النزول خمسة أسباب لنزول هذه الآية والأظهر بقرينة السياق كما عن ابن عباس: همّ قوم بمكة آمنوا وتركوا الهجرة، وقالوا: إن ظهر محمد ﷺ فقد عرفنا وإن ظهر قومنا فهو أحب إلينا، فصار المسلمون فيهم فئتين قوم يتولونهم وقوم يتبرؤون منهم فأنزل الله الآية لتحسم هذا الجدال الدائر بين المسلمين. . .

وعلى كل حال صحت الرواية الواردة في أسباب النزول أم لم تصح فإن المعنى المستفاد من الآية هو هذا المعنى نفسه. . .

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ هذا استفهام إنكاري يراد منه، أنه لا يحق لكم أيها المسلمون أن تنقسموا في شأن المنافقين فئتين، فئة تحكم بإيمانهم وتدافع عنهم وفئة أخرى تحكم بكفرهم وتهاجمهم. لا ينبغي منكم الخلاف في شأن هؤلاء المنافقين ولا ينبغي أن يصدر ذلك في حقكم. . .

﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ والله أهدر دماءهم وأذلّهم بسبب كفرهم وانحرافهم، فهم قد ارتدّوا بأيديهم وانحرفوا باختيارهم فتخلّى الله عنهم فكانت نتيجتهم ارتداد وكفر وانحراف يستتبعه استباحة دمائهم أو إذلالهم وخزيهم. . .

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ استفهام ينكر فيه على قوم من المسلمين يريدون الحكم بهداية هؤلاء القوم الذين تخلّى الله عنهم فضّلوا. . . فمن أضلّه الله بما كسبت يداه لا تستطيعون القول بهدايته، ولا يمكن أن تريدوا خلاف إرادة الله. . .

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ من يتخلّى الله عنه ويمنع ألطافه عنه بسبب اختياره للكفر فلن تجد له طريقاً إلى الهداية والإيمان أو لن تجد له طريقاً يسلكها إلى الجنة وما فيها. . .

ونفي السبيل مبالغة في نفي الهداية. . لأن من لم يجد الطريق كيف يجد الهدف المقصود له. . .

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿وَدُّوا﴾: تمنّوا وأحبّوا.

﴿سَوَاءً﴾: متساوون.

﴿أَوْلِيَاءَ﴾: أخلاّء وأصفياء.

﴿يُهَاجِرُوا﴾: الهجرة: ترك الوطن إلى غيره، وفي الإسلام ترك بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، وكانت واجبة في بداية الإسلام كالهجرة من مكة إلى المدينة.

﴿تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا.

﴿نَصِيرًا﴾: معيناً وناصراً لكم.

﴿يَصِلُونَ﴾: الاتصال: اتحاد الأشياء بعضها ببعض، يصلون: يراد بها هنا يكونون معهم وبين أظهرهم.

﴿مِيثَٰقٌ﴾: عهد مؤكد.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾: ضاقت قلوبهم من الحصر: وهو الضيق.

﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾: السلطة: التمكن من القهر.

﴿ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾: تنحوا عنكم جانباً.

## التفسير

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ يحكي الله ما في نفوس هؤلاء المنافقين من حيث أنهم كانوا يتمنون ويحبون أن تكفروا أيها المؤمنون كما كفروا هم فتكونون متساوون في الكفر يجمعكم الانحراف والبعد عن الله...

إنها النفوس المريضة يعزُّ عليها أن تبقى وحدها تعيش مرضها فتحب أن تنقل هذا المرض إلى غيرها من الأصحاء حتى يشملهم البلاء ويكونون كلهم في صف واحد يجمعهم الكفر والشرك..

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نهى سبحانه عن موالاتهم واتخاذهم أصحاباً وأحبة يرجعون إليهم في الأمور أو يودونهم ويتقربون منهم إلاَّ إذا أقلعوا عمّا هم فيه عملياً بالهجرة إلى رسول الله حاملين دينهم وعقيدتهم فارّين بعقيدتهم من مجتمع الشرك والوثنية...

إن الهجرة من مكة إلى المدينة حيث يقيم النبي ﷺ كانت فرض على القادر، وفي ذلك اجتماع عام للمسلمين يأخذون دينهم من النبي ﷺ ويتفقهون في شريعتهم ويكون في اجتماعهم قوة لهم ومنعة يواجهون بها قوى الشرك والإلحاد...

هذه الهجرة كانت هي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر وعلى أساسها تتقرر عقيدة الفرد وانتمائه إلى جبهة الإيمان أو إلى جبهة الكفر، ومن هنا لا يكفي الإيمان وما يدّعيه الفرد من الانتماء للإسلام إذا بقي في دار الشرك ولم يغادرها

إلى مكة حيث المجتمع الإسلامي وحوزته تحت إرادة الرسول وحكمه ولهذا الأمر جاءت الآية بحسم واضح في هذا الأمر...

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ إن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله ولم يخرجوا إلى النبيﷺ ليكونوا معه فاقبضوا عليهم واقتلوهم في أي مكان وجدتموهم في حلٍ أو حرم...

أباح الإسلام دماءهم مطلقاً أينما كانوا وألحقهم بالكفار المحاربين في الأخذ والقتل.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ نهيٌ عن مقاربتهم والتعاون معهم سواء كان ذلك بشكل أولياء يتولون بعض شؤونكم أو أصدقاء، أو تتخذونهم أعواناً ينصرونكم، وبمعنى آخر.. يمكن أن يفهم من ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا﴾ قرار بالمقاطعة لهم مقاطعة كلّية فلا مودة أو صداقة ولا تعاون أو أعوان...

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ استثنى سبحانه من محاربة المشركين والمنافقين والكفار صنفين، لأن أخطارهم على المسلمين غير موجودة وفي تركهم مصلحة أقوى من محاربتهم، وقد يكون في تركهم تعزيز للقوى الإسلامية وتقوية لها..

**الصنف الأول:**

هم الذين يلتجئون إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، واتفاق على عدم الاعتداء، فمن نزل بين قوم لهم عهد مع المسلمين مثل ذلك، تُرك وشأنه ولم يُعلن عليه الحرب أو يُطارد...

وقد ذكرت الروايات ونقل القمي في تفسيره: أنها نزلت في «أشجع» و«بني ضمرة» وهما قبيلتان وكان من خبرهم أنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة الحديبية مرّ قريباً من بلادهم وقد كان رسول الله ﷺ هادن «بني ضمرة» وواعدهم قبل ذلك، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله! بنو ضمرة قريباً منّا ونخاف أن يخالفونا إلى المدينة أو يعينوا علينا قريشاً فلو بدأنا بهم!؟

فقال رسول الله ﷺ: كلاً إنهم أبرُّ العرب بالوالدين وأوصلهم للرحم وأوفاهم بالعهد.

وكان «أشجع» بلادهم قريبة من بلاد بني ضمرة ـ وهم بطن من كنانة ـ وكان أشجع بينهم وبين بني ضمرة حلف بالمراعاة والأمان فأجدبت بلاد أشجع وأخصبت بلاد بني ضمرة فسار أشجع إلى بلاد بني ضمرة. فلما بلغ رسول الله ﷺ مسيرهم إلى بني ضمرة تهيأ للمسير إلى أشجع ليغزوهم.. فنزلت الآية...

**الصنف الثاني:**

﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ هذا الصنف الثاني الذي منع الله المسلمين من محاربتهم وهم قوم وقفوا على الحياد بين المسلمين وبين قومهم إنهم رفضوا محاربة المسلمين كما رفضوا محاربة قومهم..

إنه موقف صعب قلق يضيق به القلب وتنزعج به النفس ولعل هذه الحالة التي تضيق بها نفس هذا الصنف نتيجة الشك في طريقة قومها أو صحة نهجها، أو لعلها بشائر الفتح والنصر على أيدي المسلمين جعلهم يتحسسون أن المستقبل لهم فعاشوا هذه الحالة الصعبة التي تضيق بها النفس...

وعلى كل حال.. فإن الظروف التي يعيشها المسلمون تحكم عليهم بترك قتال هذا الصنف من الناس ـ ولو مؤقتاً ـ على أقل تقدير فنزلت الآية تستثنيهم من إعلان الحرب التي تعلن على المشركين...

وقد ورد في (الكافي) عن الفضل أبي العباس عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾.

قال: نزلت في بني مدلج لأنهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنّا قد حصرت صدورنا أن نشهد أنك لرسول الله فلسنا معكم ولا مع قومنا عليك.

قال: قلت: كيف صنع بهم رسول الله ﷺ.

قال: وادعهم إلى أن يفرغ من العرب ثم يدعوهم فإن أجابوا وإلاّ قاتلهم. . .

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ هذا تذكير للمسلمين بنعم الله وأنه سبحانه لو شاء لقوّى قلوبهم وشد عزائمهم لمواجهتكم وقتالكم، ولكن بلطفه هزم نفوسهم وأضعف قوتهم فراحوا يطلبون منكم الأمان.

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ إن تنحّوا عنكم جانباً وقرروا عدم قتالكم وحربكم والوقوف ضدكم ثم انقادوا لكم واستسلموا فما شرع الله لكم قتالهم. . .

وبعبارة أخرى: طالما أن هؤلاء القوم كانوا معكم في سلم فلا تحاربوهم ولا تقاتلوهم ولا تتعرضوا لهم بسوء.

يبقى أن نذكّر بنكتة هي أن قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ استعارة لأن من سلّم شيئاً ألقاه عند المسلَّم له.

قال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يُرِيدُونَ﴾: الإرادة منقولة من رادَّ يرود: إذا سعى في طلب شيء.

﴿يَأْمَنُوكُمْ﴾: أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف.

﴿قَوْمَهُمْ﴾: جماعتهم.

﴿رُدُّوٓا﴾: عادوا ورجعوا.

﴿الْفِتْنَةِ﴾: الفتنة: لغة الاختبار وهنا يراد بها الشرك والكفر.

﴿أُرْكِسُوا﴾: أصل الركس: ردُّ الشيء مقلوباً، وأركسهم: ردَّهم إلى الكفر، وأُركسوا فيها: قلِّبوا فيها.

﴿يَعْتَزِلُوكُمْ﴾: الاعتزال: تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب.

﴿وَيُلْقُوٓا﴾: يرموا، وأصل الرّمي: الطرح.

﴿السَّلَمَ﴾: الانقياد والاستسلام.

﴿وَيَكُفُّوٓاْ﴾: يمتنعوا.

﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: وجدتموهم.

﴿سُلْطَٰنًا﴾: حجة.

﴿مُّبِينًا﴾: ظاهراً واضحاً.

## التفسير

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ هؤلاء قوم من أهل النفاق حملوا وجهين متنافيين متناقضين يريدون من ورائهما أن يستغلوا ويستفيدوا ولا همّ لهم وراء ذلك...

الخطاب للمسلمين بأنهم سيرون أمام أعينهم قوماً يحملون الإيمان ليأمنوا أهلهم من الحرب والقتال، ويحملون الكفر أيضاً لأنه عقيدة أهلهم فليأمنوا شرّهم ونبذهم واعتدائهم وحربهم...

إنهم أصحاب الوجهين وفي زماننا يوجد أصحاب الوجوه الكثيرة فضلاً عن وجهين - إنهم يريدون أن يستفيدوا من أهل الإيمان كما يرون أن يستفيدوا من قومهم أهل الكفر...

ويبدو أنهم خطِرِينَ جداً على الإسلام والمسلمين ولذا اتُّخذ في حقهم هذا القرار الحاسم...

بمقدار الجناية تكون العقوبة وهؤلاء لم يكتفوا بالوقوف جانباً ويستفيدوا من هذا الحياد فقط بل هم أوغلوا في الكفر وراحوا يشكلون أخطر الدعاة ضد الإسلام والمسلمين عندما يرجعون إلى قومهم الكفرة...

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ كلما رجعوا إلى الكفر والشرك وإلى حيث قومهم الكفرة عادوا أسوأ وأشد حقداً على الإسلام مما كانوا، فقد ورد أن الرجل

يسأله قومه بماذا آمنت؟ فيقول: آمنت بهذا القرد والعقرب والخنفساء احتقاراً منهم للإسلام وازدراءً لتعاليمه ومعتقداته، وهذا بدون شك من أشد الأخطار الدعائية ضد هذا الدين، ولذا كان الحسم معهم بصورة واضحة أن يعلنوا عن موقفهم من المسلمين، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ إن لم يكفّوا عن التعرض لكم من جميع الوجوه المسيئة ويتوقفوا عن الإساءة إليكم فيستسلموا لكم وينقادوا وتتوقف أيديهم عن محاربتكم والإيذاء لكم والضرر بكم!؟ إذا لم يكن ذلك منهم فأعلنوا عليهم الحرب وخذوهم بالأسر ثم اقتلوهم أينما وجدتموهم وفي أي مكان ألقيتم القبض عليهم في حلٍّ أو حرمٍ...

ثم رفع الشبهة التي يمكن أن تمرّ في أذهان بعض المسلمين وقوّى قلوب الآخرين بأنه سبحانه أعطى المسلمين الحجة الواضحة الظاهرة على أخذهم وقتلهم أينما كانوا نظراً لكفرهم وانحرافهم وما كانوا يمارسونه من سوء في وجه الحق وتشويه وتشويش له...

والخلاصة: أن هناك فئة من المنافقين آمنت ظاهراً لكي تحفظ أنفسها ومصالحها وكفرت واقعاً وشكّلت طابوراً خامساً تسيء للإسلام والمسلمين. وهذه الطائفة اشترط الإسلام لتركها وعدم التعرض لها أن تفي بشروط شَرَطَها عليها الإسلام وهي:

١ ـ أن تعتزل المجتمع الإسلامي ولا تُسيء إليه.

٢ ـ أن يسلم هذا المجتمع من مكائدها ومؤامراتها فلا تحرّض عليه الأعداء ولا تزرع الفتنة.

٣ ـ أن تستسلم إلى الإسلام بالمصالحة والانقياد إليه وإذا أخلّت بشرط من هذه الشروط فقد أطلق الإسلام أيدي المسلمين في مطاردتهم وأخذِهم وقتلهم، ويكون بذلك قد جعل الله للمسلمين عليهم سبيلاً لقتلهم...

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿خَطَـًٔا﴾: الخطأ: ما لم يُفعل عن تعمُّد وقصد.

﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: التحرير: العتق، والرقبة: هي النسمة يعني عتق عبد.

﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾: الدِّية: ما يعطى عوضاً عن دم القتيل ومسلمة مدفوعة ومؤداة.

﴿يَصَّدَّقُوا۟﴾: يتصدقوا.

﴿قَوْمٍ﴾: جماعة.

﴿عَدُوٍّ﴾: الشخص المحارب بكل وسائله.

﴿مِّيثَـٰقٌ﴾: عهد مؤكد.

## التفسير

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾ ما حلّ لمؤمن ولا جاز له أن يقتل مؤمناً، نعم لا يحصل القتل إلاّ خطأ، وبعبارة أخرى: ما صحّ لمؤمن ولا من شأنه أن يقع منه قتل مؤمن إلاّ خطأ والنفي بهذا الأسلوب أبلغ من نفي الفعل.

وهذا تحريم لقتل المؤمن بصيغة ما كان المفيد أنه لا يمكن أن يقع القتل للمؤمن من المؤمن إلاّ خطأ...

والخطأ أن يكون مخطئاً في قصده وفعله كمن رمى طيراً فأصاب إنساناً...

ثم إنَّ قتل الخطأ تختلف كفارته باختلاف القتل والملابسات المحيطة به ومن هنا كان له ثلاث حالات تختلف بعضها عن بعض...

١ ـ الحالة الأولى:

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾...

فيجب على القاتل للمؤمن خطأ.

١ ـ تحرير رقبة مؤمنة: أي عتق نسمة مؤمنة. فباعتبار أن القاتل أخرج المقتول عن قيد الحياة لزمه أن يخرج نفساً من قيد العبودية، فإنه كالإحياء، إذ العبد كالميت في أنه لا حكم له في نفسه ولا حرية له في التصرّف بشيء.

وهذا أحد الموارد التي بها نستطيع أن نحرر العبيد وبها امتاز الإسلام منذ تشريعه لتحرير العبيد...

٢ ـ وجوب دفع الدِّية إلى أهل المقتول وهم ورثته ولا تجب على الجاني بل تتعلق بعائلته وهم الأب والأولاد ومن يتقرب بالأبوين أو بالأب خاصة من الذكور.

والدِّية هي واحدة من:

١ - ألف مثقال من الذهب المسكوك.

٢ - أو عشرة آلاف درهم.

٣ - أو ألف شاة.

٤ - أو مئتا حُلَّة من برود اليمن.

٥ - أو مئتا بقرة.

٦ - أو مئة من الإبل.

على تفاصيل ومواصفات تذكر عادة في كتب الفقه.

وهذه الدِّية تسلَّم إلى أهل المقتول خطأ..

نعم يمكن لورثة المقتول أن يعفوا عن الدِّية فلا يأخذونها بل يسقطونها عنه، وقد عبَّر سبحانه:

﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ بالصدقة حثاً على العفو وتنبيهاً على فضل هذا الإسقاط للدِّية وعدم أخذ شيء منها باعتبار أن القتل لم يكن عن قصد وإنما وقع خطأً.

## فوائد:

١ - نستفيد من الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ أن الإيمان حصانة للمؤمن..

٢ - التحرير في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي إطلاق حرية إنسان كان عبداً مملوكاً لغيره فتطلق حريته بشرائه وتحريره.

٣ - قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أُطلقت الرقبة وأريد بها العبد من باب إطلاق الجزء على الكل لأن الإنسان متقوِّم بهذا الجزء.

٢ ـ الحالة الثانية:

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فإذا كان المقتول خطأ مؤمناً وأهله من أهل الحرب وجب تحرير رقبة مؤمنة أي عتق نسمة مؤمنة وإخراجها من العبودية إلى الحرية.

ولا يجب دفع الدّية إلى أهله لأنهم لا يرثونه لكفرهم ومخالفة دينهم لدينه ولِمَا في دفعها لهم من تقوية للكفار وتقوية لخطهم ونهجهم المنحرف...

٣ ـ الحالة الثالثة:

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فإذا كان المقتول من قوم معاهدين بذمّة أو بصلح وكان مؤمناً وجب على القاتل أن يحرّر رقبة «فيعتق نسمة» وعليه أيضاً ديّة يؤديها لورثة المقتول.

ويلاحظ هنا وجوب الدّية وتسليمها إلى أهل المقتول مع أنهم كفار وذلك احتراماً من الإسلام للعهد والميثاق الذي بينه وبين أهل القتيل...

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فمن لم يجد رقبة مؤمنة يحررّها ويعتق سبيلها فعليه أن يصوم شهرين متتابعين ويكفي في صدق تتابع الشهرين صيام شهر ويوم ليصدق التتابع...

وعدم وجود الرقبة إما لفقدها موضوعاً ومصداقاً كما في زماننا هذا وإمّا لعدم وجود ثمنها..

﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي شرّع لكم ما تقدّم ليتقبل توبتكم الله ويغفر خطأكم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولم يزل عليماً بحال القاتل ونيته ومقاصده يحاسب على ذلك وكان الله حكيماً يضع الأمور مواضعها من أجل المصلحة وما فيه نفع هذا الإنسان، ومن جملة ما وضعه حرمة قتل المؤمن، وإذا صدر مثل ذلك خطأً وضع له الدّية على اختلاف فيها بحسب وضع المؤمن المقتول...

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿مُّتَعَمِّدًا﴾: العمد: قصد الشيء والاستناد إليه، وقتل العمد: أن يقصده بالنية والفعل.

﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾: الجزاء: المكافأة على العمل.

﴿جَهَنَّمُ﴾: اسم لنار الآخرة.

﴿لَعَنَهُۥ﴾: طرده وأبعده.

﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ﴾: هيأ له.

## التفسير

**قتل العمد:**

القتل عمداً اعتداء على الإنسانية وسلب للحياة التي هي هبة الله لهذا المخلوق، ومن هنا واجهها الإسلام بأشد العقوبات وجعلها من أعظم الكبائر والمحرمات، ويكفي من كتاب الله...

قـولـه تـعـالـى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ ويأتي تفسير هذه الآية عن لسان الإمام الباقر عليه السلام بقوله: «له في النار مقعد لو قتل الناس جميعاً لم يرد إلاّ ذلك المقعد».

وهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها رَتَّبتْ على قتل العمد خمسة أمور تكفي للردع وتلجم من تسوّل له نفسه ارتكاب جريمة...

في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا يغرنكم رحب الذراعين بالدم فإنَّ له عند الله قاتلاً لا يموت.

قالوا: يا رسول الله! وما قاتل لا يموت؟

فقال: النار.

وقتل العمد بماذا يتحقق؟ فقد حدَّده الفقهاء بقولهم: «كل من قصد قتل غيره بما يقتل مثله غالباً سواء كان بحديد حاد أو بثقل أو خنق أو سم أو إحراق أو تغريق أو ضرب بعصا أو بحجر أو بغير ذلك».

فإذا تحقق القتل العمدي وأراد القاتل أن يتوب فأمامه:

١ ـ أن يعفو أهل القتيل ويصفحوا عنه..

٢ ـ أن يقدّم نفسه إلى أهل القتيل ليقتلوه فينال الجزاء دون نقص أو زيادة.

٣ ـ أن يُرضي أهل القتيل بالدِّية ويسقط عنه القتل والخيار بيد أهل القتيل.

ثم بعد أن يتم ما تقدم وبالخصوص إذا رضوا بالدِّية فعليه أن يصوم شهرين متتابعين ويعتق رقبة ويطعم ستين مسكيناً.

وعلى كل حال.. تعظيماً لجريمة القتل العمدي رتب الله عقوبات عظمى.

١ ـ ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾: فهذا الفعل الشنيع له عقاب وأول عقوبة أن فاعله يدخل النار.

٢ - ﴿خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ فليس دخولاً مؤقتاً وإقامة إلى وقت محدّد بل دائماً فيها.

٣ - ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ ومن يغضب الله عليه فليس لعذابه حدود.

٤ - ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ طرده من رحمته وأبعده عن مقام قربه.

٥ - ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وإذا وصف الله عذابه بالعظيم وهو الذي هيأ هذا العذاب وأوعد به فيا لتعاسة هذا القاتل ويا لبؤس شخصه القبيح...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾.

## اللغة

﴿ضَرَبۡتُمۡ﴾: سرتم: والضرب في الأرض: السير فيها والسفر لطلب رزق أو جهاد.

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: طريقه الموصل إلى رضاه ويقصد به هنا الجهاد.

﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾: تثبّتوا وتأكّدوا.

﴿أَلۡقَىٰٓ﴾: طرح.

﴿ٱلسَّلَٰمَ﴾: السلام: تحية الإسلام، والسلم: الانقياد والاستسلام.

﴿تَبۡتَغُونَ﴾: تطلبون.

﴿عَرَضَ﴾: عرض ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: متاعها وما فيها، وسمّي بذلك لأنه زائل غير ثابت.

﴿مَغَانِمُ﴾: جمع مغنم الحياة اسم لمكان الغنيمة أو زمانها ويطلق على ما يكتسبه الرجل من مال عدوه في الحرب.

﴿فَمَنَّ﴾: أنعم نعماً ثقيلة، والمنة: هي النعمة الثقيلة...

## التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ في ابتداء الإسلام كانت تخرج الكتائب والسرايا في مهمات عظيمة تقصد من خلال خروجها إظهار قوة المسلمين وعظمة الإسلام أو تأديب جماعة تريد بالمسلمين سوءاً أو يتخوف المسلمون من هجوم جماعة المفاجىء فيسبقها المسلمون ويفاجئونها أو يكون القصد إلى قبيلة قد حاكت مؤامرة أو نقضت عهداً كان بينها وبين المسلمين، وهكذا دواليك.

وهذا المسافر في طريق الجهاد الذي هو سبيل الله قد يلتقي ببعض الناس ويشتبه الأمر فيهم، هل هم من أهل الكفر أم من أهل الإسلام؟ فهنا في هذه الآية يأمر الله المسلمين أن لا يتسرعوا في حسم الأمور ويبنوا على كفر كل من التقوا به فيضربوا عنقه، بل عليهم أن يتوقفوا ويتثبتوا حتى يظهر لهم حقيقة الطرف الآخر...

إن هذا الإرشاد نصيحة غالية تحفظ دماء الناس فلا تراق إلاّ بحق وعن علم ويقين بأنها كافرة تستحق القتل.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ نهاهم سبحانه أن ينفوا عمن ألقي إليهم السلام وهي تحية الإسلام ـ السلام عليكم ـ أن ينفوا عنه الإيمان أو من ينقاد لهم ويستسلم فنهاهم أن ينفوا عنه الإيمان، فإن الكلام يكفي للحكم بالإيمان وكذلك الموقف يكشف عن الإيمان...

إن من يحيّيك بتحية الإسلام ـ السلام عليكم ـ تكشف هذه التحية عن عمق

ما يربطك به وهو الإيمان والعقيدة، وعلى الأقل اعتبرها الإسلام في هذه الآية حاكية عن إسلامه، وعليه فلا يجوز الاعتداء على حياته ولا على ممتلكاته وعرضه. . .

ويدعم هذا الرأي ما ورد في أسباب نزولها كما في تفسير علي بن إبراهيم قال: نزلت لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر وبعث أسامة بن زيد في خيل إلى بعض قرى اليهود في ناحية فدك ليدعوهم إلى الإسلام وكان رجل من اليهود يقال له مرداس بن ناهيك الفدكي في بعض القرى. فلما أحسّ بخيل رسول الله ﷺ جمع أهله وماله وصار في ناحية الجبل فأقبل يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمر به أسامة بن زيد فطعنه فقتله، فلما رجع إلى رسول الله أخبره بذلك:

فقال رسول الله ﷺ قتلت رجلاً شهد أن لا إله إلاّ الله وإني رسول الله.

فقال: يا رسول الله! إنما قال تعوذاً من القتل.

فقال رسول الله ﷺ: فلا شققت الغطاء عن قلبه ولا ما قال بلسانه قبلت ولا ما كان في نفسه علمت. . . الخ».

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نهاهم عن نفي الإيمان عمن ألقى إليهم السلام لئلا يكون هذا النفي منهم سببه ما يتطلعون إليه من المكاسب التي يغنمونها من وراء نفي إيمانه ووجوب قتلهم له. . .

كأنه سبحانه يكشف عن قلوب من ارتكب جريمة قتل مرداس الذي أظهر الشهادة فلم يقبلوا منه إسلامه طمعاً في أمواله وما عنده من عروض الدنيا. . . إنه درس لكل من يتحرك في سبيل الله أن لا يكون نظره إلى الغنائم والمكاسب التي يحصل عليها، وإنما نظره رضا الله والعمل بما أمر ولا يتناول بسيفه من يظهر منه ولو بالإشارة أو التحية، إنه مؤمن فيجب صون دمه وماله وعرضه فلا يُمسّ شيء منها. . .

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ هذا ترغيب للمجاهدين أن لا يكون نظرهم

مغانم الدنيا التي يكسبونها من خلال قتالهم وقتلهم لمن ألقى إليهم السلام، وأن لا يكون همهم الغنيمة من وراء نفي الإيمان عمن ألقى إليهم السلام، لأن مكاسب الله وعطاياه في الآخرة أعظم وأكبر وأكثر وأوفر من مغانم الدنيا، فهذه محدودة معدودة قليلة منقطعة وتلك غير محدودة ولا معدودة وكثيرة ودائمة...

أو أن الله قد يعطيكم في دار الدنيا مغانم ومكاسب كثيرة عن طريق آخر غير من اشتبهتم به وألقي إليكم السلام فتوقعوا تلك المكاسب الإلهية دون المكاسب الأرضية المشتبهة الحقيرة...

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ كذلك كنتم قبل الإسلام تغزون من أجل الغنائم وتقاتلون وتقتلون في سبيل تحصيلها دون هدف شريف أو غاية كريمة فمنّ الله عليكم بالإسلام فأنقذكم من هذه العادات الجاهلية، فلا تتسرعوا في القتل من أجل الغنيمة، بل تثبّتوا في الأمور وابحثوا حتى تصلوا إلى اليقين في هذا الأمر ولا تأخذوا الناس بمطامعكم بالغنائم...

وهناك تفسير آخر لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي كذلك كنتم تظهرون الشهادة بألسنتكم أول دخولكم في الإسلام فتحفظون دماءكم وأموالكم وأعراضكم بمجرد النطق بها من غير أن يعلم أنها مواطئة لما في قلوبكم، فمنّ الله عليكم بعد ذلك بالاستقامة وصدق الإيمان وأصبحتم حملة رسالة وروّاد حضارة فتبينوا حال الداخلين الجدد القائلين بألسنتهم وعاملوهم كما عوملتم به أول دخولكم في الإسلام ولا تقتلوهم ظناً منكم أنهم لم يقولوا ما قالوا إلاّ هروباً من القتل وحرّ السيف...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يستبطن تهديداً لمن يرتكب جريمة قتل لمجرد الظن والشبهة بدون تثبت وتحقيق...

إن الله كان ولم يزل ولا يزال يعلم كل ما يفعله الإنسان.. يعلم النوايا ومنطلقات الأعمال والأفعال وخبير بدقة عن كل ما تفعلون فيجازيكم به...

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦)﴾.

## اللغة

﴿لَّا يَسْتَوِى﴾: لا يتساوى أو يتماثل.

﴿الْقَاعِدُونَ﴾: المتخلفون عن الجهاد.

﴿غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ﴾: غير أولي الأعذار المانعة عن الجهاد، والضرر: هو النقص مطلقاً.

﴿دَرَجَةً﴾: منزلة.

﴿وَعَدَ﴾: الوعد: إخبار بأن ينجز له أمراً بالخير.

﴿الْحُسْنَىٰ﴾: المثوبة، الحسنى: وهي الجنة.

## التفسير

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ هذه الآية فيها ترغيب بالجهاد، وحثٌّ عليه بذكر ما يترتب عليه من الأجر والثواب، وقد قارنت بين القاعدين ـ غير أولي الضرر ـ وبين المجاهدين ونفت مساواتهما أو تساويهما في الأجر والثواب، بل إنها حكمت برجحان ثواب وأجر المجاهدين وفضّلتهم على القاعدين لأن المجاهدين يضحون بأنفسهم وأموالهم ويعرّضون أرواحهم للتلف ويقذفون بها في وسط المعارك تتناوشها السيوف والسهام، بينما أولئك يجلسون في بيوتهم في نعمة ودعة وهدوء. . .

﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ لا يتماثل أو لا يتساوى أبداً.

﴿ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين قعدوا عن الجهاد ولم يخرجوا لملاقاة الأعداء «وإن لم يكن واجباً عليهم الخروج لكفاية من خرج من حيث أنه واجب على الكفاية إن قام به البعض سقط عن الباقي» فإنهم وإن كان لهم عذر ـ عدم الوجوب عيناً ـ ولكن لا يمكن أن يتساووا مع من خرج للجهاد، فإن العامل أفضل من غير العامل، والمجاهد عامل فيكون أفضل ممن لم يعمل، من يصلي النافلة وهي مستحبة أفضل ممن لم يصلها وأجره أكبر وأعظم. . .

﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ هؤلاء يخرجون عن المقارنة، فإنهم وإن قعدوا عن الجهاد ولكنهم قعدوا لعذر وهو وجود ضرر ـ نقص من مرض أو حاجة أو غيرهما تمنعهم عن الخروج للجهاد، هؤلاء لا يملكون إلاّ النيّة الطيبة، فإن كانت نيتهم الجهاد لو كانوا أصحاء لأعطاهم الله أجر نياتهم وأثابهم بمقتضاها وهو الكريم الذي ليس في ساحته شُحٌ أو بخل. . .

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

إذن المجاهدون يقصدون في حركتهم الجهادية وجه الله. . من أجله يقاتلون

فيقتلون ويُقتلون... لم يكن جهادهم من أجل الغزو والسلب والنهب والاستعباد والاستبداد، وليس من أجل شهوة الملك والسلطان أو أي شيء من مُتع الدنيا وأعراضها... إنه جهاد في سبيل الله لا يشوبه شائبة ـ ريبة أو شك ـ أو مطمع أو غرض غير وجه الله...

والجهاد يكون بالمال كما يكون بالنفس وبهما معاً يجب أن يكون.. فمن يجاهد بماله ونفسه لا يستوي مع القاعد عن الجهاد...

لقد ذكر الله أولاً عدم التساوي بينهما ثم ذكر التفاضل ليرغّب في الجهاد ولا تبقى الصورة على إجمالها... إن عدم التساوي بين القاعدين وبين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم مجمل فصلّه سبحانه بقوله:

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ طبعاً في سبيل الله واستحسن الحذف لدلالة ما تقدم عليه.

﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ لقد امتاز المجاهدون على القاعدين بدرجة ـ وهي المنزلة والمرتبة ـ وتنكير درجة تفيد تعظيمها وتفخيمها.

تكشف الآية عن أهمية الجهاد ودور المجاهدين وأجرهم وفيها حثٌّ وتحريضٌ وتحفيزٌ للهمم وإثارة لها لكي تلتحق بركب المجاهدين...

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي كل واحد من المجاهدين والقاعدين ـ من أولي الضرر وغير أُولي الضرر ـ أعطاهم الله المثوبة الحسنى وهي الجنة...

وذكر سبحانه كلاً ممن تقدم بهذه الحسنى من أجل أن لا يسقط ما في أيدي القاعدين ـ بما فيهم أولي الضرر وغيرهم ـ ويروحون في ظنونهم يذهبون إلى أن إيمانهم وعقيدتهم لا تستحق شيئاً من الأجر والثواب، فجاءت الآية لتثبت ثواب هذا الإيمان وأن ما يفوت القاعد إنما هو فقط ثواب الجهاد وفضل المجاهدين.. الذي هو الدرجة بخصوصها..

إن الله سبحانه لا يريد أن يحبط أجر الإيمان وثوابه، بل هذا أجره كما وعد

الله من الثواب والأجر ودخول الجنة، ويبقى للمجاهدين ميزة.. وهي الدرجة التي حصلوا عليها بجهادهم...

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أعاد سبحانه ذكر تفضيل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين ليدفع بالمؤمنين نحو الجهاد ويحثُّهم عليه وذكّرهم بأن أجره عظيم.. وعظيم جداً فلعلهم إذا سمعوا بهذا الأجر العظيم اندفعوا للخروج ولم يبقوا في قعود عن هذا الفضل والثواب...

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ كل واحد من ـ درجات ومغفرة ورحمة ـ بدل من ﴿أَجْرًا﴾ المتقدمة فهذا تفصيل وتوضيح وبيان لذلك الأجر العظيم...

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ من الله. وإذا كانت الدرجات والمنازل من الله فلا يحيط بها تقدير أو يتصورها عقل لأنها محجوبة في علم الله وتقديره...

﴿وَمَغْفِرَةً﴾ لكل سيئاته.

﴿وَرَحْمَةً﴾ ومن رحمه الله ومن حلّت عليه رحمته فقد فاز.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وكان الله ولا يزال يغفر الذنوب الكثيرة وفي كل وقت ومهما كانت كبيرة. وهو الرحيم الذي يعطيكم الثواب ويقربكم مما يفيدكم وينفعكم...

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا
مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ
مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا
﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾: توفى الشيء: أخذه وافياً، والتوفي: قبض الأرواح، والوفاة: الموت.

﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾: الضعف: خلاف القوة، والاستضعاف: قوبل بالاستكبار.

﴿وَٰسِعَةً﴾: ضد ضيّقة.

﴿فَتُهَاجِرُوا۟﴾: من الهجرة: وهي ترك الوطن والبعد عنه، والهجرة: هي ترك بلاد الكفر.

﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: مسكنهم ومنزلهم الذي يأوون إليه.

﴿سَآءَتْ﴾: بئست.

﴿مَصِيرًا﴾: مآلاً ومرجعاً يصيرون إليه.

﴿ٱلْوِلْدَٰنِ﴾: جمع ولد: ذرية الرجل، ويطلق الولدان على العبيد.

﴿حِيلَةً﴾: وسيلة وأصلها ما يتوصل به إلى حالة ما بخفية.

﴿سَبِيلًا﴾: طريقاً.

## التفسير

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هذا فصل من الحوار بين الملائكة الموكلة بقبض الأرواح وبين أولئك الذين تركوا الهجرة وآثروا البقاء في أوطانهم مستسلمين للكفار يفرضون عليهم عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم فيعجزون عن إظهار شعائر الإيمان والدين...

إن البقاء في وطن تُمتهن فيه عقيدة المسلم ودينه ويعجز عن إقامة فرائضه والواجبات عليه لا يسمح الإسلام بمثل هذا البقاء ولا يرضاه لأحد من أتباعه...

وعندما اشتد الضغط على النبي ﷺ والمسلمين معه في مكة وقد حوصر الإسلام وفقدت الدعوة حركتها وأثرها أمر الله نبيه أن يهاجر منها ويتخذ وطناً جديداً يكون (الخندق) الصالح الذي منه يواجه حالات الشرك ويستطيع أن ينشر الدين ويبلّغه للناس، فكانت الهجرة إلى المدينة حيث الأنصار والأعوان والتربة الصالحة التي تنمو فيها شجرة الإسلام وهكذا كان...

هاجر النبي ﷺ والمسلمون إلى المدينة وأصبحت القاعدة القوية التي تواجه الشرك في كل الجزيرة العربية ولم يبق إلاّ بعض الناس أصحاب المصالح والمنافع الذين أحبوا أموالهم وأرزاقهم وأرضهم أكثر من دينهم، فكانوا مستضعفين لا يقدرون على الجهر بعقيدتهم أو ممارسة شعائرهم الدينية فأوجب عليهم الإسلام الهجرة ومع قدرتهم عليها تمردوا ولم يستجيبوا فكان مصيرهم النار في ضمن هذا الحوار.. إن الذين تقبض أرواحهم الملائكة حال كونهم ظالمين لأنفسهم من حيث عدم الهجرة ومن حيث ممارسة الكفار عليهم الظلم

بمنعهم من الجهر بدينهم وعقيدتهم، هؤلاء ستتحدث معهم الملائكة وتقول لهم ما نقله تعالى عنهم في قوله تعالى..

﴿قَالُوا۟﴾ الملائكة قالوا لهم تقريعاً لهم وتوبيخاً.

﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ سؤال عن وضعهم الديني والدنيوي وأنهم في أي شيء كانوا من دينهم ولماذا رضوا بالبقاء في بلد لا يستطيعون إقامة شعائر الدين فيه؟ ولماذا يرضون بالمذلة والقهر من قبل أعداء الدين؟

وأجابهم هؤلاء المستضعفون بقولهم:

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا جواب عن سؤال: فيم كنتم؟ والإجابة أنهم كانوا مستضعفين في مكة لم يقدروا على إقامة شعائر الدين فالاستضعاف وليد ما يمارسه عليهم المشركون...

إنه إقرار منهم وفيه اعتذار عن واقعهم السيّيء المذلّ الذي يعيشونه... إنهم يعتذرون عن سوء حالهم ديناً ودنيا بممارسة المشركين عليهم بحيث لم يعدْ لهم صوت يُسمَع أو حركة يستطيعون تحركها...

ولكن هذه الإجابة تستحق إيضاح الحقيقة، إنها إجابة تبرير لواقع فاسد ارتضاه أصحابه بملء إرادتهم مع إمكان رفضه واستبداله بما فيه خيرهم وعزهم والمحافظة على دينهم، ولذا قالت الملائكة لهم.

﴿قَالُوٓا۟﴾ الملائكة رفضاً لاعتذارهم عن أنهم مستضعفون.

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ استفهام فيه تقريع لهم وتوبيخ، وإنه كيف تقبلون حال الاستضعاف التي تمارس عليكم من قبل المشركين والكفار؟! كيف تقبلون بالإقامة في وطن تفقدون فيه حرية العقيدة والدين وإقامة الشرائع؟ كيف تقبلون بذلك وهذه أرض الله واسعة؟ فلماذا لم تهاجروا فيها كما هاجر المسلمون الأولون إلى أرض الحبشة؟ وكما هاجر النبي ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة؟...

إن أرض الله واسعة، فلماذا تحصُرون أنفسكم في هذه البقعة الصغيرة التي تُضطهدون فيها بعقيدتكم ودينكم؟!.

إن الأرض كلها لله وهي واسعة تستقبل من يخرج فيها مهاجراً وتتسع لكل من فرّ بدينه وأحب المحافظة على هذا الدين.

وبعد أن أسقطت الملائكة حجتهم ونسفت اعتذارهم وبيّنت أن ما يبررون به واقعهم المخالف لدين الله ليس صحيحاً ورتبت الأثر على هذه المخالفة، بل نقلت الحقيقة التي سيصل إليها هؤلاء المستضعفون.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مسكنهم ومنزلهم الذي يأوون إليه هو جهنم: إنهم لم يفارقوا مساكنهم في دار الدنيا ولم يهاجروا منها حباً لها وخوفاً من أن تضيع منهم فكانت العاقبة أن ينزلهم الله في الآخرة نار جهنم وبئس المصير والمأوى...

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ بئس ما صاروا إليه في جهنم.

نعم استثنى سبحانه من هؤلاء المستضعفين أصنافاً وهؤلاء هم أصحاب أعذار على وجه الحقيقة... إن الله يعذرهم في عدم الهجرة كما يغفر لهم هذا الاستضعاف الذي يمارس عليهم لأنهم لا يقدرون على ردّه أو دفعه ولا يقدرون على مواجهته كما لا يقدرون على الفرار منه بالهجرة، إنهم أصناف يستثنيهم الله بقوله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾.

فهؤلاء الرجال والنساء والولدان يجمعهم جميعاً، إنهم قد أُسقِط ما في أيديهم وعجزوا عن مواجهة هذه الحالة الضاغطة... إنهم يفكرون في كيفية الخلاص من أيدي المشركين وبلادهم ويفكرون بالهجرة والخروج من بين أظهر الكفار وممارساتهم، ولكن كما يقال: «العين بصيرة واليد قصيرة» فالنيّة بالهجرة موجودة ولكن العجز عنها قائم... لم تسعفهم حالتهم على تخطي الصعاب... إنهم أعجز من أن يطووا هذه العقبات التي تعترض سبيل هجرتهم... أما لضعف

أبدانهم من كبر وعجز وعدم المعين، وإمّا لعجزهم المالي والمادي... وإمّا لصغرهم وقلة حيلتهم كما في الولدان والنساء...

المهم في الأمر أنهم لا يتعللون بالأعذار الصورية والشكلية، بل لهم أعذار واقعية تحجزهم عن الهجرة وتمنعهم عن اللحاق بالمسلمين أو أي بلاد يمتلكون فيها حرية عقيدتهم ودينهم وسلوكهم...

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ هؤلاء المستضعفون أصحاب الأعذار فقدوا كل الوسائل المتاحة لديهم أو التي يعرفونها أو يحتملون أن بها خلاصهم فلم يجدوا شيئاً منها...

لقد سقط ما في أيديهم وتعطلت بهم السبل، فلذا عذرهم الله ولم يآخذهم بما أخذ به أولئك القادرون على الهجرة...

إنه القصور ـ وليس التقصير ـ الذي يعفو الله عن صاحبه ولا يؤاخذه عن أي خلل يقع منه ولو كان على مستوى ترك الهجرة والبقاء في حالة استضعاف وإذلال بدون إقامة شعائر الدين وممارسة حرية العقيدة...

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ إنهم هؤلاء ـ الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ـ داخلون في الرجاء أن يعفو الله عنهم إذا كانوا صادقين في دعواهم القصور وانقطعت بهم السبل ولا يملكون إلا النية الطيبة والقلب السليم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فهو سبحانه يمتلك حق العفو والصفح كما يمتلك المغفرة لكل ذنب...

## فائدة

١ ـ نسب التوفي إلى الملائكة ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لأنهم المباشرون في قبض الأرواح بعد أمر الله لهم بتولي ذلك كما نسب التوفي في غير هذا المقام

إلى ملك الموت لأن الله وكَّله بذلك ومنه تصدر الأوامر وتكون الملائكة من معاونيه، وأخيراً نسب التوفي إلى الله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾[1] لأن الأمر أولاً وأخيراً إليه وبإذنه تقع الوفاة.

(١) الزمر/ ٤٢.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يُهَاجِرْ﴾: الهجر والهجران: مفارقة الإنسان غيره إما بالبدن أو باللسان أو بالقلب، والمهاجرة: مصارمة الغير ومتاركته، والهجرة: ترك دار الكفر إلى دار الإيمان.

﴿مُرَٰغَمًا﴾: الرغام: هو التراب، وأرغم الله أنفه: ألصقه بالتراب كناية عن أذلّه وأهانه، والمقصود بالمراغم هنا: مأوى يصيب فيه الخير فيرغم بذلك أنوف أعدائه..

﴿وَسَعَةً﴾: الجِدة والغنى، والسّعة تقال: في الأمكنة وفي الحال.

﴿يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾: يلحقه الموت ويحلُّ به.

﴿أَجْرُهُۥ﴾: ثوابه.

## التفسير

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذه الآية الكريمة تحث على الهجرة وتدفع نحوها وتذكر فوائدها ومنافعها ترغيباً فيها...

أن يترك الإنسان وطنه الذي ولد فيه وتربى في ربوعه أمر صعب جداً على النفس... إن فراق الوطن يعادل فراق الروح من البدن، ولذا كانت الهجرة عن الوطن والدار لها ذلك الأجر الكبير، وبها امتاز المهاجرون في الصدر الأول ونالوا ذلك الشرف الكبير وبقيت الهجرة وسام شرف رفيع ومحل فخر واعتزاز...

ولكن هذه الهجرة تهون إذا كانت بأمر إلهي وفيها تعويض عمّا يفوت المهاجر وما يخسره خلال هجرته...

وقد رتّب الله لمن يهاجر في سبيله أن يعوّضه بوجود أماكن كثيرة تكون بديلاً عن وطنه يرغم بها أعداءه الذين اضطروه إلى الهجرة...

إن من يخرج مهاجراً في سبيل الله فراراً بدينه وعقيدته يجد بتقدير الله وعونه بلاداً كثيرة تستقبله وتتحمله وبها يغيظ أعداءه الذين أخرجوه حيث يجدونه، وقد استعاد حريته وملك زمام أمره وتحرك بملك إرادته، وفي هذا ما يرغم أنوفهم ويذلّها كما يجد السعة في الرزق وتنفتح عليه الدنيا، وهذا بعينه ما جرى للمسلمين الأولين كمصداق واقع في حياتهم كمهاجرين...

إن كلمة ﴿مُرَٰغَمًا﴾ وإن كانت من الرغام الذي هو التراب الدقيق ولكنها حملت معنى يحكي عن أن المهاجر يفتح الله له البلاد كما يفتح له أبواب الرزق، وكل ذلك مما يرغم أنوف أعدائه الذين أخرجوه ويُذلُّهم بتصرفاتهم التي قاموا بها نحوه...

ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال: من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد ﷺ...

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وهذه هي الفائدة الثانية من خلال الهجرة... إنه الربح المؤكد على كل حال وصل المهاجر إلى غايته ومقصده الذي توجه إليه أم لم يصل إليه...

إن من يخرج من بيته تاركاً مجتمع الكفر فارّاً بدينه وعقيدته متوجهاً إلى الله وإلى رسوله! فإذا وافاه الموت قبل أن يصل فقد وقع أجره على الله، وإذا كان الله هو الذي يتعهد بالأجر والثواب لمن أدركه الموت وهو في طريق الهجرة إلى الله ورسوله فما ظنك بهذا الأجر، وهل يمكن تحديده بالمنظور مما تسمع وترى؟!...

إذا كان الكريم المطلق يتعهد بهذا الأجر فهو أكبر مما نتصور وأعظم مما نعهد أو نسمع، فلنترك تقديره لله ولكنه ليس دون الجنة ونعيمها بكل تأكيد...

وقد قيل في سبب نزول هذه الآية: أنه لما نزلت آيات الهجرة ـ التي تأمر المسلمين بالهجرة وتندد بالمتخلفين عنها ـ سمعها رجل من المسلمين وهو جندب بن ضمرة وكان بمكة.

فقال: والله ما أنا مما استثنى الله إني لأجد قوة وإني لعالم بالطريق وكان مريضاً شديد المرض فقال لبنيه والله لا أبيت بمكة حتى أخرج منها، فإني أخاف أن أموت فيها. فخرجوا يحملونه على سرير حتى إذا بلغ التنعيم مات فنزلت الآية...

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وكان الله غفوراً لذنوب عباده يصفح عنهم ما فرّط منهم، رحيماً بهم حيث يعطيهم الأجر الكامل وإن أتوا ببعض العمل كمن أدركه الموت وهو في طريق الهجرة قبل الوصول إلى غايته التي يقصدها...

والغفور: الكثير المغفرة كمّاً وكيفاً وفي كل وقت، وكذلك الرحيم المبالغ في الرحمة...

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿ضَرَبْتُمْ﴾: سافرتم، والضرب في الأرض: السير فيها، وسمي السير بذلك لأن المسافر يضرب برجله الأرض عند مشيه.

﴿جُنَاحٌ﴾: إثم وحرج، ولا جناح: لا إثم ولا حرج.

﴿تَقْصُرُوا﴾: القصر: خلاف المد، والقصر هنا: النقص لإن تنقصوا منها».

﴿خِفْتُمْ﴾: أشفقتم.

﴿يَفْتِنَكُمُ﴾: الفتنة: وإن كانت في الأصل الاختبار والامتحان ـ ولكن يراد بها هنا ـ القتل أو الإيذاء مطلقاً بالجراح والشجاج.

﴿مُّبِينًا﴾: ظاهراً واضحاً.

## التفسير

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

هذه الآية تشرّع صلاة المسافر وتبيّن كيف يكون إيقاعها مجملاً..

وإذا سافرتم في الأرض.. والسفر في الأرض يشمل ـ البر والبحر والجو ـ فلا إثم ولا حرج عليكم أن تقصروا من الصلاة أي تنقصوا منها إن خشيتم أن يفتنكم، أي يقتلكم أو يضرّ بكم الذين كفروا، والآية بحدود ألفاظها واضحة يبقى هناك عدّة تساؤلات لينكشف المعنى بأعمق من ذلك وأدق...

**الأول**: الضرب في الأرض.. هو السفر فيها والسير في رحابها، والمقصود أي سفر سافرتم في أي مكان يسافر فيه، وسمّي السفر ضرباً في الأرض.. لأن المسافر المتحرك يضرب رجله في الأرض.

**الثاني**: فليس عليكم جناح.. أي لا حرج عليكم ولا إثم إن فعلتم الصلاة قصراً، وهذا يعطي معنى لا إلزام فيه ولا وجوب، أي هذا رخصة لا عزيمة.

**والجواب**: أن لا إثم لنفي ما يمكن أن يكون قد ارتكز في أذهان المسلمين من صلاة التمام وشعروا بالإثم في قصرها في السفر فجاءت الآية لتطيب نفوسهم بهذا التعبير...

وأيضاً فقد ورد عن الأئمة عليهم السلام تفسير ذلك ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ بالوجوب وقد استدلوا بقوله تعالى في الحج: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ وقد أجمع المسلمون على وجوب الطواف بهما وليس فقط رفع الإثم والحرج...

وورد عن زرارة ومحمد بن مسلم في كتاب (من لا يحضره الفقيه) عن الإمام أبي جعفر عليه السلام، قالا له:

ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي؟ وكم هي؟

فقال: إن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر.

قالا: قلنا: إنما قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ولم يقل افعلوا كيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟

فقال عليه السلام: أو ليس قد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾(١) الا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض لأن الله عزّ وجل ذكره في كتابه وصنعه نبيه ﷺ وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبيﷺ وذكره الله تعالى في كتابه.

قالا: قلنا: فمن صلّى في السفر أربعاً أيعيد أم لا؟

قال: إن كان قد قرئت عليه آية التقصير وفسّرت له وصلى أربعاً أعاد، وإن لم يكن قرأت عليه ولم يعلمها فلا إعادة عليه، والصلاة كلها في السفر الفريضة ركعتان، كل صلاة إلاّ المغرب فإنها ثلاث ليس فيها تقصير تركها رسول الله ﷺ في السفر والحضر ثلاث ركعات...

الثالث: إن قوله تعالى: ﴿أَن تَقْصُرُوا﴾ يراد بها قصر الصلاة، فالرباعية تصبح ثنائية وهذا هو مذهب أهل البيت عليهم السلام وما ورد عن الأئمة عليهم السلام.

وفي قصر الصلاة ثلاث لغات: قَصَرتُها وقصّرتها بالتشديد وأقصرتها..

الرابع: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن خفتم أن يميلوا عليكم فيقتلونكم أو ينزلوا الضرر بكم من الجراح والشجاج.

وقد أخذ بعضهم بظاهر هذا الكلام فاقتصر في هذا الحكم ـ القصر ـ على الخوف...

ولكن بما تقدّم عرفنا أن المقصود ـ بالآية هنا ـ هو قصر الصلاة في السفر.

وأيضاً فإن قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ ورد مورد الغالب خصوصاً في ابتداء الإسلام.. حيث كان المسلمون في مواقع الدفاع والحروب المستمرة وكان الخوف يطاردهم جرّاء المعارك التي كان يشنها المشركون عليهم باستمرار وبدون انقطاع، فورد القيد ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ مورد الغالب في حياة أولئك الصحابة النجباء، وهذا على حدّ

(١) البقرة/١٥٨.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ فحرمة الربيبة ليس محصوراً فيما إذا كانت في حجره - حجر زوج أمها - بل لو لم تكن معه تحرم ولكن هذا القيد ﴿فِى حُجُورِكُم﴾ ورد مورد الغالب حيث تتزوج الأم وتأخذ الربيبة معها إلى بيت زوجها الجديد.

ومن هنا قالوا إن هذا الكلام لا مفهوم له...

الرابع: قد وردت الأحاديث عن المعصومين تبيّن كيفية القصر - فالرباعية من الصلاة تصبح ثنائية وفيها ينحصر القصر دون الثلاثية والثنائية.

كما بيّنت السنّة.. السفر الموجب لهذا القصر ومقداره ونوعه وكيف ينقطع السفر وغير ذلك من الأمور التي لها تعلق بهذا الموضوع وقد سمّي هذا الباب «صلاة المسافر» ومحله في كتب الفقه من الشرائع والجواهر، بل الرسائل العملية لفقهائنا رضوان الله عليهم...

﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ تنبيه للمسلمين أن يأخذوا حذرهم ويكونوا على استعداد دائم من حيث أن الكافرين كانوا وما يزالون أعداء لهم ظاهرين في عداوتهم فلا يمنعكم اشتغالكم بعبادة الله ودعائه عن ردّ هجوم الأعداء عليكم بل كونوا على حذر دائم واستعداد مستمر لكل طارىء يحدث من جانب الأعداء...

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

* * *

## اللغة

﴿طَآئِفَةٌ﴾: جماعة.

﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾: السلاح: كل ما يُقاتل به وجمعه أسلحة.

﴿سَجَدُوا﴾: السجود: أصله التطامن والتذلل، ونقل إلى الفعل المخصوص الذي هو وضع الجبهة على الأرض.

﴿وَرَآئِكُمْ﴾: خلفكم.

﴿حِذْرَهُمْ﴾: الحذر: احتراز عن مخيف.

﴿وَدَّ﴾: تمنى وأحب.

﴿تَغْفُلُونَ﴾: الغفلة: السهو الذي يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتنبه.

﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾: جمع متاع: وهو كل ما ينتفع به على وجه ما.

﴿فَيَمِيلُونَ﴾: من مال: إذا عدل عن أحد الجانبين إلى الآخر، وملت عليه: تحاملت عليه، وهنا يراد بها يحملون عليكم حملة واحدة.

﴿أَذًى﴾: ضرر.

﴿مَطَرٍ﴾: المطر: الماء النازل من السماء.

﴿مَرْضَىٰٓ﴾: جمع مريض، والمرض: الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان.

﴿تَضَعُوٓا﴾: من وضع: بمعنى حطّ، ألقاه ووضع السلاح بين يديه: إذا تركه كذلك.

﴿مُّهِينًا﴾: المهين: المُذلّ.

## التفسير

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذه الآية تتناول صلاة الخوف، وقد شُرّعت في ظروف صعبة مرّ بها المسلمون وهي باقية في كل حالة وظرف يشابه تلك الحالات التي شرّعت فيها.

إن الصلاة لا تسقط بحال بل يجب على الإنسان أن يؤديها بحسب استطاعته إن أمكن بشرائطها وأجزائها وتمام المقدمات إن أمكن ذلك فهو وإلاّ فبالقدر الممكن...

وإذا استطاعها مع الوضوء وجبت وإن تعذر الوضوء استبدله بالتيمم.

إن استطاع أداءها عن قيام فهو وإلاّ فيؤديها وهو جالس وإن عجز عن إقامتها جالساً فيصليها مضطجعاً. وهكذا حتى إذا عجز عن الحركة والكلام أومأ إلى أركانها برأسه، فإذا عجز فبقلبه، وهكذا...

وصلاة الخوف صلاة يؤديها المسلم حسب ظروفه وقدرته وما تسمح له به أوقاته وهذه الآية تشرّع صورة من تلك الصور التي يمكن أن نقول أنها الصورة الأوضح وهي تفرض وجود النبيﷺ بل حقيقةً كان النبي ﷺ مع المجاهدين ولذا تتصدّر الآية بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ مع المسافرين في الأرض أو مع المجاهدين.

﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ صلّيت فيهم إماماً، وذكر سبحانه الحكم في ضمن المثل ليكون أوضح وأثبت.

﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ فاجعلهم طائفتين مع إمكان الافتراق فرقتين لكثرة المسلمين أو قوتهم، فلتقم طائفة منهم معك.. أي ليصلوا جماعة معك وتكون أسلحتهم في حوزتهم يحملونها أثناء الصلاة إن أمكن دون أن تكون مانعة لهم عن القيام بالواجب من الصلاة.

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ فإذا أتمّوا صلاتهم بتمام سجودها الأخير حيث ينفردوا عن الإمام بعد قيامه للركعة الثانية فيتمهل هو ويسرعون هم حتى إذا انتهوا من سجود الركعة الثانية انصرفوا فكانوا وراء المصلين يحتلون مكان الطائفة الثانية التي كانت تحرس الجماعة...

وأمّا الجماعة التي كانت تحرس النبي والمصلين خلفه في الركعة الأولى فإنهم يلتحقون بالنبي ﷺ أو الإمام في أثناء القراءة في الركعة الثانية وهذا ما أشارت إليه الآية...

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ وهم الذين كانوا يحرسون الجماعة:

﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ مأمومين فيصلي النبي فيهم ركعة يتمهل في التسليم حتى يأتوا بالركعة الثانية فيسلم ويسلمون وتتم صلاتهم فيكون النبي قد صلى ركعتين جماعة موزعة على الطائفتين وكل طائفة نالت ركعة معه...

﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أكّد سبحانه على المصلين أن يكونوا في حالة

يقظة مستمرة دائماً وأن تكون أسلحتهم تحت أيديهم قادرون على استعمالها بسرعة لئلا يفاجأهم العدو فيغدر بهم وينال منهم. . .

إن طاعة الله في الصلاة تلتقي مع اليقظة والاحتراز من العدو. .

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

هذا بيان لعلة الأمر بأخذ السلاح وإن الذين كفروا يتمنون لو أنكم تسهون وتنشغلون عن أسلحتكم وأمتعتكم التي تواجهونهم بها ليشدّوا عليكم شدّة واحدة مجتمعين فيها فيستأصلون وجودكم وينتهون منكم.

**الخلاصة:**

صلاة الخوف تصلى قصراً سواء كان المصلّون في سفر أو حضر وإذا أقيمت جماعة يفترق المقاتلون فرقتين كل فرقة تحمل سلاحها ـ إذا كان المجاهدون كثر أو أقوياء ـ فتصلي الفرقة الأولى مع الإمام ـ وهي حاملة لسلاحها ـ الركعة الأولى ـ بينما تحرسهم الفرقة الثانية وعندما يقوم الإمام للركعة الثانية يقومون معه ثم ينفردون عنه فيستعجلون بينما هو يتأخر ويتباطأ فيكملون صلاتهم ثم تلتحق الفرقة الثانية ـ التي بعدُ لم تصل ـ فتلتحق بالإمام وتصلي معه ركعة وتكمل صلاتها وبهذا تكون كل فرقة قد صلّت ركعة جماعة مع الإمام وانفردت في الركعة الأخرى. . .

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾.

بعد أن أوجب على المصلّين أن تكون أسلحتهم حاضرة معهم وتحت أيديهم يحملونها معهم خوف غدر الأعداء بهم رخّص لهم هنا في هذه الصورة أن يتركوها جانباً دون أن يحملوها.

لا إثم عليكم ولا حرج إن كان بكم أذى من مطر بأن أصابكم مطر أو حلّ

بكم مرض فصعب وثقل معهما حمل السلاح لا حرج عليكم أن لا تحملوها، بل ضعوها جانباً بحيث تقدرون على تناولها في الساعة الصعبة الحرجة إذا اضطررتم إليها . . .

وكرّر سبحانه الأمر بالحذر الذي يعني أن يكون المصلّون في حالة جهوزية واستعداد كامل لمواجهة أي طارىء . . .

إن الحذر يعني اليقظة الدائمة والتنبّه المستمر لمواجهة العدو لئلا يفاجأهم بهجوم يهزمهم فيه أو يدخل الضرر والأذى عليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ هذا وعد للمؤمنين بأن الكافرين سيُهزمون وينالهم العذاب المذل وهذا الوعد يشدّ من عزائم المؤمنين ويشحذ هممهم ويجعلهم أقوى وأقدر على انتزاع النصر . . .

يبقى أن نشير إلى أن الشهيد الثاني في كتاب (اللمعة الدمشقية) ذكر لصلاة الخوف عشرة أنواع واقتصر على تفصيل صلاة واحدة وهي ما ذكره سبحانه في هذه الآية.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿قَضَيْتُمُ﴾: أدّيتم وانتهيتم..

﴿قِيَٰمًا﴾: القيام: الوقوف.

﴿وَقُعُودًا﴾: جلوساً.

﴿جُنُوبِكُمْ﴾: مضاجعكم، وأصل الجَنْب الجارحة ثم استعير في الناحية التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك..

﴿ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾: أمنتم.

﴿كِتَٰبًا﴾: مكتوباً، مفروضاً واجباً...

﴿مَّوْقُوتًا﴾: مفروضاً أو محدّداً بأوقات.

## التفسير

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإذا انتهيتم من صلاة الخوف بالكيفية المتقدمة من التخفيف والحذر والانتباه وعدم الغفلة.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فاذكروا الله بالتسبيح والتهليل والتكبير حال قيامكم وجلوسكم واضطجاعكم وفي كل حالاتكم...

وهذا الذكر خصوصاً بعد صلاة الخوف ليبقى الإنسان مشدوداً إلى الله يتطلع إليه ويرنو بطرفه نحوه يستمطر منه الرحمة ويستعطفه في النصر ويدعوه ليفتح عليه، وهكذا يجب أن يكون الإنسان في كل حالاته...

إنها المناجاة التي تنطلق على اللسان لتحكي عمّا في داخل القلب من قُربٍ من الله فتقرُّ له بالربوبية والعظمة وكل صفات الكمال والجلال.

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإذا زال الخوف وارتفع الإزعاج والخطر وعادت الأمور إلى طبيعتها أقيموا الصلاة كما هي بحدودها المفروضة وأجزائها وشروطها كمّاً وكيفاً لأن ما كان في حال الخوف فقد زال بزواله وارتفع بارتفاعه...

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ هذا رجوع إلى أصل الصلاة، وفيها حثٌّ على إقامتها فإنها كانت منذ تشريعها ووجودها مفروضة وواجبة عليهم لا يجوز تضييعها أو إهمالها.

وقيل موقوتاً: أي محدودة الأوقات، فيجب أن يؤديها الإنسان في وقتها دون تأخير عنه..

وفي الكافي عن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ قال: كتاباً ثابتاً وليس إن عجلت قليلاً أو أخرت قليلاً بالذي يضرك ما لم تضيع تلك الإضاعة فإن الله عز وجل يقول لقوم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾...

وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ أي موجوباً...

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: من الوهن وهو ضعف من حيث الخَلق أو الخُلق.

﴿ٱبْتِغَآءِ﴾: طلب.

﴿ٱلْقَوْمِ﴾: الجماعة.

﴿تَأْلَمُونَ﴾: من الألم: وهو الوجع الشديد.

﴿تَرْجُونَ﴾: من الرجاء: وهو ظن يقتضي حصول ما فيه مسرَّة.

## التفسير

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ عاد سبحانه إلى الحث على الجهاد والصبر عليه وأن على المؤمن أن يتحمل ما يقع فيه جراء هذا الواجب المقدس.

لا تضعفوا في طلب عدوكم ومواجهته أو تنهزموا أمامه نفسياً وروحياً، بل واجهوه بأقسى ما يكون دون كلل أو ملل.

﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ هذا بيان وعلة لعدم الوهن في عزائم المجاهدين... وقد ذكر سبحانه بل ذكّر المؤمنين بأمرين كلاهما حق واقع:

**الأول**: أنكم يا معشر المؤمنين المجاهدين إن تكونوا تألمون بما يصيبكم من جراح وقتل وكل أنواع الألم فهذا نفسه يجري على أعدائكم... إنكم وإياهم تشتركون في واقع واحد معيّن لا يتميزون عنكم فيه ولا يصيبهم ألم أخف أو أقل من ألمكم، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يمكن أن يطرأ عليكم الوهن والضعف أو تنهار عزائمكم ولا تواجهون عدوكم كما يواجهكم...

إن عدوكم يتألم كما تتألمون فكما أنه لا ينهار أو يتراجع عن قتالكم يجب أن لا تتراجعوا أو تنهاروا أمامه هذا أحد الأمرين وأما الآخر فهو:

**الثاني**: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أنكم ومن منطلق عقيدتكم تؤمنون بالحشر والنشر والحساب والعقاب والجنة والنار.. تؤمنون بما أعدّ الله للمجاهدين من الثواب الجزيل والأجر الكبير... تؤمنون بالحياة الآخرة التي فيها السعادة الأبدية التي تستحق أن يبذل الإنسان نفسه من أجلها ويضحي ليحصل عليها.. إذا كانت هذه هي عقيدتكم وتتوقعون ذلك من الله بل تؤمنون به إيماناً قاطعاً فيجب أن يكون هذا من أهم الدوافع التي تدفعكم لمواجهة العدو وعدم الضعف أمامه مهما كانت قدرته وقوته ومهما ملك من طاقات وإمكانيات لأنكم المستحقون لرضا الله وما أعدّه للمؤمنين به والمطيعين له وهذا أمر يفقده عدوكم ولا يملك مثله أبداً...

الآية الكريمة جرعة نافعة في العلاج النفسي الذي ربما يلحق المجاهدين جراء القتل والجراح والألم الذي يصيبهم فتأتي لتعالج هذه الحالة النفسية وترفع من المعنويات التي بها تشتد العزائم وتقوى الهمم...

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولم يزل ولا يزال عليماً في مصالح عباده وما ينفعهم وحكيماً في تشريعه وتدبيره وفيما يكلف به أو يمنع عنه...

بقي أن نذكر أنه ورد في تفسير علي بن إبراهيم أن النبي ﷺ لما رجع من وقعة أحد ودخل المدينة نزل عليه جبرائيل فقال: يا محمدا إن الله يأمرك أن تخرج في أثر القوم ولا يخرج معك إلا من به جراحة! فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي يا معشر المهاجرين والأنصارا من كانت به جراحة فليخرج ومن لم يكن به جراحة فليقم فأقبلوا يضمدون جراحاتهم ويداوونها فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ وقال عز وجل: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿شُهَدَآءَ﴾ فخرجوا على ما بهم من الألم والجراح...

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿لِتَحْكُمَ﴾: لتقضي وتفصل.

﴿لِّلْخَائِنِينَ﴾: الخيانة: عدم الأمانة، والخيانة: جحد ما اؤتمن عليه.

﴿خَصِيمًا﴾: مدافعاً، وخصمته: إذا نازعته، والخصيم: الكثير المخاصمة.

## التفسير

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ هذه الآية تعطي للنبي تفويضاً وعصمة وسداداً في كل حكم يصدره...

إن كل حكم يصدر عن النبي ﷺ فهو حكم الله لأنه بتعليمه وإلهامه وتسديده...

﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ بما أعطاك الله من العلم الذي لا يحتمل فيه الخطأ أو الزلل...

فالله أنزل عليك القرآن بالحق لتحكم بين الناس بما عرّفك الله وأوحى به إليك، فحكمك يا محمد! بالحق كما أن القرآن نزل بالحق...

نعرف من الآية أن القضاء منصب عظيم يتولاه النبي ﷺ في حياته ويجب أن يكون بعده لمن اتصف بصفته وليس ذلك إلاّ للأئمة من أهل البيت عليهم السلام وأما بعدهم فيكون لأعلم الأمة وأقدرها على استنباط الحكم الشرعي.

وأمّا غير ذلك فإن القضاة إلى النار وخصوصاً من ينسب ذلك إلى الشرع والدين وهما بريئان من هذه النسبة...

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ لا تكن مدافعاً عن الخائنين الذين لا يؤتمنون، ولا تجادل عنهم لأن مقامك يُجل عن مثل هذا الفعل ولا يليق بمسلم عادي فكيف بنبي من أولي العزم من الرسل؟!

والخطاب وإن توجّه إلى النبي ظاهراً ولكنه يريد غيره واقعاً من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة! لأن عصمته تمنع أن يقوم بمثل ذلك من الدفاع عن الخائنين خصوصاً مع النص الصريح في قوله:

﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ اللَّهُ﴾ فإن مَنْ يريه الله الواقع ويعلّمه الحكم لا يمكن أن يصدر منه الخطأ أو أي هفوة تسيء لمقامه أو تتنافى مع إعطائه صفة الإرادة الإلهية و.. ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ أمر بالاستغفار وهو أعمّ من أن يكون عن مخالفة أو عن ترك الأولى على أن الاستغفار بنفسه عبادة مأمور بها...

إن الله كان وما يزال ولا يزال يغفر الذنوب الكثيرة في كل وقت وحين، وهو الرحيم دائماً بعباده في كل وقت وحين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾: الجدال: شدّة المخاصمة.

﴿يَخۡتَانُونَ﴾: من الخيانة: وهي ضد الأمانة، والخيانة: هي جحد ما أؤتمن عليه.

﴿خَوَّانًا﴾: الخوّان: مبالغة في الخيانة.

﴿أَثِيمٗا﴾: كثير الإثم: وهو الذنب.

﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾: يستترون.

﴿يُبَيِّتُونَ﴾: يدبّرون بليل.

﴿مُحِيطًا﴾: حفيظاً، والإحاطة بالشيء علماً: هي أن يعلم وجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبإيجاده وما يكون به ومنه.

﴿وَكِيلٗا﴾: حافظاً يتولى معونتهم.

## التفسير

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ لا تدافع أو تحامي عن الذين يخونون أنفسهم. . .

وخيانة النفس أعظم الخيانات لأن المعصية يعود أثرها وعقابها على نفس الفاعل ومن حق النفس على صاحبها أن يحفظها ويرعاها ولا يعرّضها لمواضع الخطر والزلل، فإذا لم يفعل ذلك فقد خانها. . وإذا خان الإنسان نفسه كيف يقف غيره ليدافع عنه وعن جريمته الخيانية بل الله نهى عن الدفاع لمثل تلك الخيانة. . .

وقد روي في سبب نزول هذه الآيات: أن رجلاً من الأنصار يقال له «طعمة بن أبيرق» من بني ظفر سرق درعاً من جاره «قتادة بن النعمان» في جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، فخبأها عند «زيد بن السمين» اليهودي فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد فحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال: دفعها إليّ طعمة وشهد له ناس من اليهود. فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فاسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي. . . فهمّ رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك فنزلت الآية. .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ إن الله لا يحب من كان كثير الخيانة مستمراً عليها عاملاً بالمعاصي لا يتناهى عنها أو يتوقف عن ممارستها. . .

والتعبير ـ بالخوّان والأثيم ـ يكشف عن تكرار ذلك منه وأنه قد اعتاده وكثر له ارتياده. وإلاّ فإن ذلك لو وقع منه مرة وتعقبته التوبة فلا تشمله الآية.

قدّم سبحانه وتعالى الخيانة على الإثم لأن الإثم مسبب عن الخيانة والسبب مقدّم على المسبب. .

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

إنها طريقة الجبناء الذين يخافون الحقيقة ولا يقدرون على مواجهتها فلذا يخططون لإخفاء كل فعل يمكن أن يراه الناس. . .

إنهم يستحيون من الناس ويخافون منهم ولا يحسبون لله حساباً أو يستحون منه وهو معهم يراهم ويعلم كل تصرفاتهم. . إنه معهم وهم في مؤامراتهم يخططون كيف يخفون الحقيقة كيف يمررون ما يأتمرون عليه من اتهام البريء وتبعيد القضية عن أنفسهم. . .

إنهم يخططون لمعصية الله ولما لا يرضى من الفعل ناسين أو متناسين أنه يعلم كل حركة يتحركون بها، بل هو معهم يراهم ويحصي عليهم أنفاسهم. . .

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ يعني إن الله مطلع عليهم عالم بهم وبكل أعمالهم يراهم ويسمع أقوالهم، فمعيّة الله معيّة إحاطة وقيمومة وليس معيّة مكان أو زمان - حاشاه - لتنزهه عن الجسمية ولوازم المادة. . .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ وكان الله ولا يزال خبيراً عليماً بكل تفاصيل أعمالهم وحركاتهم لا يعزب عنه حركة ولا تفوته سكنة. . .

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أزرى الله بأولئك الذين وقفوا إلى جانب الخائنين وأرادوا الانتصار لهم. . . إنكم قد دافعتم عن هؤلاء الخونة في الدنيا واستطعتم أن تقفوا إلى جانبهم ولكن من هو الذي يقف إلى جانبهم يوم يقوم الناس للحساب ويقفون أمام الله للاستجواب. . .

﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ﴾ استفهام فيه توبيخ وتقريع وتنبيه لهم أن يكفّوا عن الانتصار للخائنين والوقوف إلى جانبهم والدفاع عنهم. . .

إن من ارتكب خيانة في الدنيا أو عملاً شائناً يمكن أن يجد من يقف إلى جانبه ويدافع عنه، وإذا كان من أصحاب الجاه والمال والثروة والحكم والسلطان

والملك قد يتبرع عنه الكثيرون بالدفاع وقد يوكل الكثيرين بأمواله ويعطيهم لقاء أتعابهم... إن كل ذلك يمكن أن يقع في الدنيا ومستنقعاتها القذرة ورجالها الظلمة ولكن أمام الله تسقط كل تلك الشفاعات ويسقط معها المدافعون وتنهار كل تلك الوساطات... يموت كل دفاع وتسقط كل حماية لخائن أو ظالم لأن ذلك الموقف للحق والله يحكم بالحق...

﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ هذا عطف على الاستفهام وإنه لا مدافع عنهم.. إن مهمة التوكيل أن يحفظ ويحمي من يوكله وهناك تسقط الوكالة ويفقد المحامي والنصير...

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

## اللغة

﴿سُوٓءًا﴾: السوء: كل ما يغمّ الإنسان وعُبّر عن كل ما يقبح بالسوء.

﴿يَكْسِبْ﴾: الكسب: هو تحري الفعل الذي يجر منفعة أو يدفع مضرّة، ويكسب: يفعل.

﴿إِثْمًا﴾: ذنباً كبيراً، ولا يكون إلاّ عن عمد وهكذا فرّق بعضهم بين الإثم والخطيئة..

﴿خَطِيٓـَٔةً﴾: ذنباً صغيراً، أو الإثم العمد.

﴿يَرْمِ بِهِۦ﴾: يقذف به.

﴿بَرِيٓـًٔا﴾: البريء الخالص والخالي: خلاف المذنب والمتهم، وبريء من العيب: إذا خلص منه.

﴿ٱحْتَمَلَ﴾: احتمل الشيء: حمله.

﴿بُهْتَٰنًا﴾: البهتان: تهمة الغير بأمر ليس فيه.

﴿مُّبِينًا﴾: ظاهراً واضحاً.

## التفسير

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ هذا بيان لطريق التوبة ودعوة إلى ممارستها فمن، يعمل سوءاً يسيء به إلى غيره ويتعدى أثره إلى سواه كتهمة بريء أو يظلم نفسه بارتكاب أمر محرّم كالحلف الكاذب، ثم بعد ارتكاب هذا الأمر المحرّم يتوب إلى الله ويرجع إليه فيستغفره، فإنه يجد الله أي يدرك ويتحقق ويعلم أن الله يغفر له ذنبه ويمحوه عنه كما أنه يرحمه ويتفضل عليه بالعفو عنه...

والآية مطلقة لكل ذنب بدون استثناء.

والتعبير: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ﴾ فيه معنى القبول السريع وكأن الله ينتظر عبده ليلاقيه بعد عودته إليه تائباً مستغفراً.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ كل فعل قبيح ومعصية وانحراف يقوم به هذا الإنسان ستعود آثاره السيئة عليه شخصياً وهو وحده الذي يتحمّل تبعاته وآثاره وهو على حد قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولم يزل ولا يزال عليماً بكل حركات هذا الإنسان وتصرفاته، يعلم الأعمال الطيبة ومنطلقاتها ويعلم الأعمال السيئة ومنطلقاتها يعلم كل شيء وسيحاسب الإنسان على كل فعل يقوم به. وهو الحكيم الذي يضع الأمور مواضعها فيحمّل كل فاعل وما فعل ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[١] بمنطق العدل والحق وحكم السماء...

---

(١) الأنعام/ ١٦٤.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

## قذف البريء

إن بعض الناس يرتكب الحرام ثم يرمي به غيره من الناس الشرفاء الذين لم يتدنس شرفهم بعار الخطيئة والإثم والرذيلة. . .

إن من يفعل الخطيئة الصغيرة أو يفعل الخطيئة الكبيرة ثم يقذف بذلك الفعل من هو بريء طاهر فقد تحمّل وزراً واضحاً وإثماً ظاهراً وجرماً جليّاً. . .

إن هذا أبشع أنواع الظلم وأقبحه حيث يُتهم العفيف الطاهر على يدي العاهر الساقط وإننا نجد الأمثلة الحية في واقعنا المعاش وتمر أمامنا الصور باستمرار.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿لَهَمَّت﴾: همَّت: قصدت وأضمرت.

﴿طَّآئِفَةٌ﴾: جماعة.

﴿يُضِلُّوكَ﴾: من ضل، والضلال: هو العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

﴿يَضُرُّونَكَ﴾: الضر: سوء الحال ويقابل بالنفع.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن.

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: السُّنَّة.

## التفسير

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ هذه الآية

أوضح ما يكون على أن النبي لم يدافع عن الخائن ولم يستمع لقومه الذين أرادوا حمله على ذلك.

ولولا فضل الله عليك بما اختصك به من النبوة ورحمته لك بالعصمة والتسديد الإلهي لقصدتك جماعة من قوم الخائن وأرادت حرفك عن الاستقامة والعدل إلى المحاماة والدفاع عن ذلك الخائن المائن...

بفضل الله الذي اختص به محمداً ﷺ لم يقدر أحد على أن يوسوس له أو يغريه بأمر ليس فيه لله رضى...

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لا يعود ضرر فعلهم ومحاولتهم لإضلالك إلاّ على أنفسهم حيث انكشفوا على حقيقتهم وبانت سرائرهم فسقطوا عن الاعتبار في الدنيا واكتسبوا العذاب في الآخرة. وهذه جملة اعتراضية...

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍۚ﴾ حصّن الله نبيه بهذا النّفي وأن كل ضرر لن يصل إليك ليس الآن فقط بل في المستقبل أيضاً...

إن كل محاولاتهم من أجل أن يُدخلوا الضرر عليك سواء كان في شخصك أو في مواقفك أو في قراراتك فلن يفلحوا فيها أو يستفيدوا منها.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هذا بيان وسبب لقوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍۚ﴾ فإنه سبحانه عصمه من كل ضرر بهذا القرآن التي تتنزّل آياته فتهدي وتسدّد وتبيّن معالم الحلال والحرام وتكشف الأمور الغيبية وما يأتمر به الخائنون.

وكذلك أنزل عليه الحكمة التي تعني فيما تعنيه تفصيل ما أُجمل في القرآن وتبيان ما انغلق من الآيات وتوضيح المشتبهات، وهكذا...

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾ وكشف الله لك الأمور فتعلمتها بتعليم الله ولم تكن تعلمها من قبل... إنه أعلمك بأخبار الماضين وكشف لك عن الأمور الغيبية ومنها هذه المكيدة التي حاول الخائنون أن يحرفوك عن الاستقامة والعدل فيها.

وهذا امتنان على نبيّه ولله المنّة جميعاً.

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ كان فضل الله ولم يزل عليك عظيما منذ نشأت وتربيت ومنّ الله عليك بالنبوة وأنزل عليك القرآن وعلّمك الحلال والحرام والشرائع والأحكام ونصرك على أعدائك إن هذه وتوابعها فضل من الله عليك عظيم...

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿نَّجْوَاهُمْ﴾: النجوى: حديث السرِّ بين الاثنين فصاعداً.

﴿بِصَدَقَةٍ﴾: الصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة.

﴿مَعْرُوفٍ﴾: المعروف: اسم لكل ما يعرف بالعقل أو الشرع حسنه.

﴿إِصْلَاحٍ﴾: من الصلح، وهو إزالة النفار بين الناس.

﴿ابْتِغَاءَ﴾: الابتغاء: الاجتهاد في الطلب.

﴿مَرْضَاتِ﴾: قبول العمل الصالح.

﴿نُؤْتِيهِ﴾: نعطيه.

﴿أَجْرًا﴾: ثواباً.

## التفسير

قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ لما بيّت أصحاب ذلك الرجل

الخائن فيما بينهم كيف يدافعون عنه ويحملون النبي على ذلك أشار سبحانه إلى ما تناجوا به وأنه لا خير فيه ثم ضرب قاعدة عامة تشمل ما تقدّم وما سوف يقع، وهو أن كل تناجي يكون بين اثنين فصاعداً لا خير في كثير منه إلاّ إذا كان فيه مصلحة تنفع وتفيد، وقد ضرب سبحانه لذلك ثلاثة مصاديق مما فيه المصلحة.

١ - التناجي إذاً كان يتمحور بأن يأمر بعضهم البعض بصدقة ترفع عوز الناس وحاجتهم فهذا من التناجي الذي فيه الخير فإن خير الناس من نفع الناس...

إن الصدقة التي تحفظ كرامة الفقير وتصون وجهه وتحفظ يديه أن تمتد لتستعطي الناس هذه الصدقة مباركة وطيبة وهي من المعروف المرغوب فيه لله والمطلوب له...

٢ - ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أن يكون التناجي من أجل الأمر بالمعروف الذي يعني حمل الناس على كل طيّب وخيّر وكل ما فيه قُرب من الله وينفع عباد الله...

والمعروف كل ما يأمر به الشرع من الواجبات والمستحبات والآداب والأخلاق وغيرها من الصفات الكريمة، فإذا كان التناجي من أجل ذلك ففيه الخير الكثير... وقد حثّ الإسلام على فعل المعروف.

ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كل معروف صدقة.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: إصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس من أهله فإن لم يكن هو أهله فكن أنت من أهله.

٣ - ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإذا كان المتناجون سرّاً فيما بينهم يتناجون من أجل رأب الصدع بين المختلفين وردم الهوة بين المتنازعين وإعادة اللحمة إلى ما كانت عليه وحجب الدم ومنع الشقاق والقتال والتدابر إذا كان التناجي لذلك فهذا مما أحبه الله وفيه الخير الكثير.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ من يتناجون من

أجل الأمر بالصدقة أو المعروف أو الإصلاح بين الناس ويكون ذلك الفعل خالصاً لوجه الله وطلب رضاه فسوف يعطيهم الله ثواباً عظيماً، وعظمته لأنه من مصدر الفيض والعطاء ولأنه دائم لا ينقطع.

ومن الملاحظ أن فعل هذه الأمور قُيد في الآية بأن يكون لطلب مرضات الله، لأن الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى، فالأجر العظيم المترتب على هذه الأفعال مشروط بأن يكون لله وفي سبيله ولطلب مرضاته فلو وقعت هذه الأفعال لغير ذلك كأن تقع رياءً أو سمعة فلا أجر عليها ولا ثواب يستحقه فاعلها...

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يُشَاقِقِ﴾: من الشقاق: وهو الخلاف لأن كلاً من المتخالفين يكون في شق غير شق الآخر.

﴿تَبَيَّنَ﴾: ظهر وانكشف.

﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾: الرشد والبيان.

﴿يَتَّبِعۡ﴾: إذا اقتفى الأثر.

﴿سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: طريقهم وما هم عليه.

﴿نُوَلِّهِۦ﴾: ما تولى: نتركه وما اختار لنفسه.

﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾: الصلاء: لزوم النار.

﴿سَآءَتۡ﴾: من السوء: وهو كل ما يغمّ الإنسان سواء كان في دينه أو دنياه أو آخرته..

﴿مَصِيرًا﴾: المصير: المآل.

## التفسير

الآية الكريمة في أجواء الحادثة التي تعرضت لها الآيات المتقدمة وهي تحدّد أن من يخالف النبيﷺ فيما جاء به من توحيد وعقيدة إيمانية ويعانده تعصباً وبغضاً مع قيام الأدلة والمعجزات على ما جاء به وصحة كل ذلك، وأيضاً من يتّبع غير سبيل المؤمنين أي طريقهم في الإيمان وما هم عليه من الوحدة والالتزام سوف يتركه الله وما اختار ويدعه ونفسه، ولكن عاقبته أنه إلى النار يدخلها ويلازمها لا يخرج منها وبئس المآل أن تكون نهايته النار. . .

وينبغي أن نتفهم أمراً وهو. . أنه إذا قامت الحجة على صدق ما جاء به النبي ﷺ وظهر ذلك بشكل قاطع وجب على من قامت عنده الأدلة أن يتبع النبي ﷺ فلو خالف والحال ذلك كان مصيره إلى النار.

وأيضاً يجب أن نتنبه إلى أن الآية تدل على أن المؤمنين يجب أن يكونوا وحدة متكاملة متراصة لا اختلاف فيما بينهم ولا تعدد في وحدتهم وإلفتهم.

يبقى أن نشير إلى أن بعض العلماء أراد الاستدلال بهذه الآية على حجية الإجماع وأن الأمة إذا أجمعت على أمر وجب على الباقين أن يتبعوها.

ولكن بهذا المعنى لا يستفاد من الآية ولا يساعد عليه الفهم العرفي.

فإن الإجماع أن تجتمع الأمة كلها وإذا اجتمعت كلها فمن يخالفها إن كان منها فهو داخل فيها وإن كان من غيرها فلا علاقة لنا به.

وأيضاً فإن سبيل المؤمنين يحتمل عدة معانٍ: هل يتبع سبيلهم في متابعة الرسول أو في مناصرته أو في الاقتداء به أو فيما صاروا به مؤمنين؟ وإذا قام الاحتمال بطل الاستدلال.

وأذكر ما قاله بعض علماء التفسير من السنة «الألوسي» في (روح المعاني) وأحسن فيما قال وبالجملة لا يكاد يسلم هذا الاستدلال ـ الاستدلال بالآية على

حجية الإجماع ـ من قيل وقال وليست حجية الإجماع موقوفة على ذلك كما لا يخفى. . .

والشافعي أول من استدل بهذه الآية على الإجماع فيما ذكره علماء التفسير، فقد سأله شيخ عن دليل الإجماع فقرأ القرآن كما تقول الرواية ثلاثمائة مرة فلم يجد فيه أثراً على الإجماع إلاّ هذه الآية فأجاب الشيخ بها فقبلها منه. . .

ولكن «الشافعي» لم يوفّق في استدلاله بالآية كما رأيت حتى ردّ عليه علماء السنة أنفسهم. . .

يبقى أن نشير إلى أن الإجماع تتبناه مدرسة أهل البيت عليهم السلام ولكن يختلف عما هو عند أهل العامة فهو عندنا «الكاشف عن رأي المعصوم فلو اجتمع اثنان أحدهما الإمام كان قولهما حجة ولو اجتمع الخلق الكثير دون الإمام فلا فائدة في الاجتماع لعدم الدليل على حجية ما ذهبوا إليه وارتأوه. .» على تفصيل يذكر عادة في الأصول مع الأدلة على ذلك. . .

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يَغْفِرُ﴾: الغفران والمغفرة من الله: هو أن يصون الله العبد من أن يمسّه العذاب.

﴿يُشْرَكَ بِهِۦ﴾: الشرك بالله: أن يجعل معه غيره.

﴿ضَلَّ﴾: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

﴿بَعِيدًا﴾: البُعد: ضد القرب، والضلال البعيد: هو الذي يصعب الرجوع منه إلى الهدى.

﴿يَدْعُونَ﴾: الدعاء: معناه الطلب ـ ولكن هنا يراد به: العبادة لأن من عبد أحداً فقد دعاه.

﴿إِنَٰثًا﴾: جمع أنثى خلاف الذكر.

﴿مَّرِيدًا﴾: المريد: العاتي المتمرد، من مرّد: إذا عتا وتجبر.

## التفسير

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ الشرك العظيم هو إثبات شريك لله تعالى.

والشرك الصغير هو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق.

والمقصود بالآية هو المعنى الأول...

وهذه الآية تحكم أن الله لا يغفر لمن يموت وهو مشرك لأن الشرك اعتداء على ذات الله وجحد لما هو واضح في العقول والأذهان وما هو مودع في الفطرة.

إن الشرك بالله عزل لله عن سلطانه وإنزال له عن مقامه...

الشرك بالله مرض خبيث وإصابة قاتلة لهذا الإنسان لا شفاء منها ولا قضاء عليها تأتي على أساس وجوده وتنهي حياته...

إن المرض إذا أصاب بعض الأعضاء أو الأطراف يمكن علاجه واستئصاله والقضاء عليه، أمّا إذا أصاب القلب وتمكن منه وكان خبيثاً فلا شفاء له، إنه لا محالة يقضي على المريض.

وكذلك المعاصي إذا كانت دون الشرك بالله فإنها قابلة للمغفرة إذا توفرت مقدماتها.

وأمّا الشرك بالله فهو معصية لا شفاء لها تورد صاحبها إلى النار لا محالة ومن هنا قرّر الله في هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ لأن القابلية للمغفرة مفقودة عند المشرك بالله...

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ غير أن الشرك من بقية الذنوب مهما كانت كبيرة ولو كانت بمستوى قتل النفس أو الزنا، فإنها قابلة للمغفرة ولكن ضمن شروط وضعها الله وأرادها من مرتكبيها...

وقيد لمن يشاء إشارة إلى أن المذنب إذا حاول الشفاء وطلبه وتحرك في

استعمال الدواء اللازم وبالقدر اللازم فإن الله يغفر له تلك الذنوب، فمن قتل نفساً فالله يغفر له هذا الذنب إذا استعمل القائمة التي وضعها الله لمثل هذا الذنب بأن يتوب ويسلّم نفسه لأهل القاتل كي يُقتص منه إن كان القتل عمداً وأرادوا ذلك.. أو يقبلوا الدِّية ويؤدي بقية الواجبات من صوم شهرين وعتق نسمة وإطعام ستين مسكيناً، وهكذا. فإذا أتم العبد شروط التوبة فإن الله يغفر ذلك بمشيئته وإرادته..

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا بَعِيدًا﴾ الشرك بالله أعظم أنواع الانحراف وأخطر سبل الضلال لأنه القمة للمعصية والانحدار نحو الهاوية، ولأن توحيد الله ثابت في العقول وبمجرد الالتفات إلى ذلك يهتدي الإنسان إلى هذه الحقيقة، وأمّا غير الشرك فيأتي في درجات تالية من الانحراف والضلال...

وباعتبار أن النار دركات فإن أشدّ دركات النار تكون لمن أشرك بالله واتخذ معه نداً أو صاحبة أو ولداً...

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا﴾ ما يعبد هؤلاء المشركون من دون الله إلاّ أصناماً سموها بتسمية الإناث وهذا حيث كان العرب لكل حي صنم يعبدونه ويتوجهون إليه بالدعاء مثل اللات والعُزّة ومناة فيسمونها بأسماء الإناث...

أو أن قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِنَـٰثًا﴾ من التأنيث وهو الانفعال والتأثر حيث كانت هذه الأصنام من صنع الأيدي البشرية ونتاج جهدها وعملها، فهي منفعلة ومن حق المعبود أن يكون فاعلاً غير منفعل فتكون تلك التسمية لتلك المسمّيات دليلاً على جهلهم وفرط حماقتهم...

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا﴾ وما يعبد هؤلاء المشركون إلاّ شيطاناً شرّيراً بلغ الغاية في الإضلال والانحراف والمعاصي والبُعد عن الله.

وسميّ عبادة هذه الأوثان عبادة للشيطان لأنه هو الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم على طاعتها فكأن طاعته في ذلك عبادة لها...

قال تعالى: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾
وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ
وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ
وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا
مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾.

* * *

## اللغة

﴿لَعَنَهُ﴾: اللعن: الطرد والإبعاد.

﴿نَصِيبًا﴾: سهماً وحظاً.

﴿مَفْرُوضًا﴾: الفرض لغة: هو القطع، والفريضة: ما أوجبها الله على عباده، ونصيباً مفروضاً: أي مقدّراً معيّناً.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾: من ضل، والضلال: هو العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾: من المنيْ: وهو التقدير، يقال: منى لك الماني: أي قدّر لك المقدّر، وأماني الشيطان: ما يلقيه للإنسان مما لا واقع له ولا نفع فيه.

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾: البتك: القطع، ومنه سيف باتك: أي قاطع.

﴿ءَاذَانَ﴾: جمع أذن: وهي الجارحة التي يسمع بها الإنسان.

﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: في الأصل مختص بالإبل لكنها تقال عليها وعلى البقر والغنم أيضاً.

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾: التغيير: التبديل، إما بتبديل صورة الشيء دون ذاته أو تبديله بغيره..

﴿خَلْقَ﴾: الخلق: هو إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء.

﴿يَتَّخِذِ﴾: يجعل.

﴿وَلِيًّا﴾: الولي: هو الذي يتولى شؤون غيره ويقوم بها.

﴿خَسِرَ﴾: الخُسر والخسران: انتقاص رأس المال.

﴿مُّبِينًا﴾: ظاهراً، من بان: إذا ظهر وانكشف.

﴿يَعِدُهُمْ﴾: من وعد، والوعد: ما يقطعه الإنسان للغير على أن يجريه له أو ينيله منه...

﴿غُرُورًا﴾: خداعاً وباطلاً.

﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: مسكنهم ومنزلهم الذي يرجعون إليه.

﴿مَحِيصًا﴾: مهرباً ومخلصاً، من حاص يحيص: إذا عدل وولى.

## التفسير

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ استحق الشيطان اللعنة فابتدأ سبحانه بلعنه قبل أن يذكر مقولاته وخططه وما يريده من هذا الإنسان، والابتداء بلعنه ليحذر الناس من شراكه وما يرسمه لهم لاصطيادهم، ثم إنه سبحانه ينقل ما قاله هذا الشيطان من أجل أن يحترز منه الناس ويبتعدوا عنه ويعصوه فيه...

إنها رغبة جامحة عند الشيطان يريد من خلالها إغواء بني آدم وشدّهم إلى صفّه بعد أن لعنه الله وطرده من رحمته وأقصاه عن ساحة قدسه. . .

إنه عاصٍ متمرد يريد ممن يقدر عليهم أن يحوّلهم إلى جندٍ له، ولذا كانت منه هذه الأقسام المتتالية والأيمان المتتابعة، وقد ذكر خمسة حقول يريد من ورائها أن يدخل إلى إغواء الناس والبُعد بهم عن طاعة الله ليكونوا مثله أشقياء تعساء تنالهم اللعنة والعذاب وهي. . .

الأول: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أقسم الشيطان أنه سيجرّ إلى جانبه سهماً معيناً وحظاً مقدّراً من الناس الذين يقدر بوسوسته وحيله ومكائده وأشراكه من اصطيادهم وتحويلهم إلى صالحه ليكونوا من جنده وأزلامه وأتباعه. . .

وقوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ﴾ إشارة إلى أنهم عبيد الله في أصل التكوين والفطرة ولكنه اتخذهم لجانبه واستولى عليهم عرضاً. . .

الثاني: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أقسم أيضاً أنه سينحرف بهم عن طريق الهدى إلى طريق الضلال. . . إنه يعمل بقوة وشدة وجدّ واجتهاد من أجل أن يضل الناس عن طريق الله وما هم فيه من الطاعة لله والالتزام بما أمر الله. . .

إنه ـ لعنه الله ـ يعزّ عليه أن يرى غيره من بني آدم مطيعاً لله ملتزماً نهجه وما أمر به بينما هو قد تمرّد وعصى وأعلن الخروج عن الطاعة والالتزام. . . إنه يعرف مصيره وعاقبته وإنها النار تنتظره، فلذا يريد أن يحوّل كل الناس عن طريق الهدى والحق والدين إلى أن يكونوا مثله وينالوا هم ما يناله من جزاء وعقوبة وعذاب. . .

الثالث: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ وهذه الأماني هي الأحلام الوردية التي يدفع بها إلى مخيلة الإنسان ويأخذ بتزيينها لهم ويحاول إقناعهم بأهميتها ودورها وما لها من منافع وفوائد. . إنه يريد خداع هذا الإنسان عن طريق ما يمنّيهم من أكاذيب لا حقيقة لها. . إنه يلقي إليهم أنه لا بعث ولا حساب ولا نشور. . فافعلوا ما شئتم. . يمنّيهم بطول البقاء في الدنيا وقوة الجسد وكثرة المال والأولاد والتكاثر

من حطام الدنيا، وهكذا حتى يتحوّل الكثيرون ليكونوا من حزبه وفي عداد جنده...

وفي (آمال الصدوق) عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآيـة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾(١) صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له (ثور) فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه.

فقالوا: يا سيدنا لِمَ دعوتنا؟

قال: نزلت هذه فمن لها؟

فقام عفريت من الشياطين، فقال: أنا لها بكذا وكذا.

قال: لست لها.

فقام آخر، فقال مثل ذلك..

فقال: لست لها.

فقال: الوسواس الخناس أنا لها.

قال: بماذا؟

قال: أعدهم وأُمنّيهم حتى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أمنّيهم الاستغفار.

فقال: أنت لها فوكّله بها إلى يوم القيامة...

الرابع: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ وهذه واحدة من صغريات الإضلال... إنها عادة جاهلية من أوامر إبليس الجائرة، وهي أنهم بأمر الشيطان كان أهل الجاهلية يشقون أو يقطعون آذان الأنعام، فإذا ولدت الناقة خمسة أبطن

---

(١) آل عمران/ ١٣٥.

وجاء الخامس ذكراً حرّموا الانتفاع بها والحمل عليها وركوبها وكل وجوه المنفعة وجعلوا علامة ذلك شق أذنها أو قطعها وهي السائبة والبحيرة في عرفهم...

الخامس: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾ وهذا أيضاً مما اتخذه الشيطان على نفسه.. إنه أقسم أن يأمر بني آدم أن يبدّلوا خلق الله وصنعه وما جاء به...

واختلف في معنى ﴿خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ والمعنى الجامع الكامل الشامل وما عليه الأثر هو أن المقصود به تغيير دين الله وهو ما فُطر عليه الإنسان خلقة في أصل التكوين ويؤيد هذا الرأي قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

وأمّا ما ورد من أن تغيير خلق الله هو الخصاء للعبيد أو الوسم أو الوشر أو الانحراف عن عبادة الله إلى عبادة الشمس والقمر فكلها جزئيات تدخل تحت العام المتقدم...

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ من يجعل الشيطان وليّاً لأمره بحيث يأتمر بأمره ويعمل بإرادته وينفّذ مشيئته ويترك ولاية الله وما يريده منه ويأمره به فقد خسر خسراناً ظاهراً واضحاً كبيراً وذلك لأنه استبدل بالجنة ناراً وبالنعيم عذاباً.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ هذا تحذير للناس وحث لهم إلى الاحتراز عن مكائد الشيطان وقد دأب لعنه الله على ذكر الوعود الكاذبة لهذا الإنسان دون أن يفي له بها، بل لا يفي له بشيء منها.. يعده بالغنى إن قتّر وبخل وسرق أموال الناس ويعده بالسلطان والجاه إن قدر على تصفية خصومه والاستيلاء على ما عندهم... وهكذا تأتي وعوده كاذبة.

وأمّا أمانيه الفارغة كطول البقاء في الدنيا والخلود فيها وبقاء أمجادها له ولأولاده وأحفاده، وهكذا...

---

(١) الروم/ ٣٠.

وقد وصف الله تلك الوعود والأماني بأنها غرور كالسراب يتراءى شيئاً وليس بشيء والشيطان يظهر للإنسان أموراً بعيدة ويمنّيه بها ولكن لا حقيقة لها ولا نفع فيها. . .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من اتخذ الشيطان ولياً وقد حكم الله عليهم بالنار يرجعون إليها ويستقرون فيها ولا يقدرون على الخروج منها أو الهروب من عذابها وألمها. . .

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿حَقًّا﴾: مصدر حقَّ يحقُّ حقّاً، ومعناه ثبت ووجب.

﴿قِيلًا﴾: القيل: مصدر قال ومثله القال.

## التفسير

بعد ذكر الوعيد لمن يتخذ الشيطان ولياً له أتبعه سبحانه بذكر الوعد لأولياء الله الأبرار الأتقياء.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ آمنوا بالله ورسله وكل ما جاء من عند الله.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عملوا كل ما أمر به من واجبات ومستحبات وما فيه طاعة لله وخدمة لعباده...

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ إنه نعم المآل ونعم المصير... إنها جنات تتخللها الأنهار لتزيدها رونقاً وجمالاً وتملأ العين والنفس

بهجة وسروراً خالدين فيها أبداً وباستمرار لا يتحولون عنها ولا ينقلبون عن نعيمها وخيرها..

﴿وَعَدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ وعد الله وعداً حقاً: أي وعداً لا شك فيه ولا ارتياب فهو ثابت واجب. فيجب أن يسعى المؤمنون لمخالفة الشيطان ورمي مواعيده وأمانيه وراء ظهورهم ثم الالتزام بما وعد الله لأنه حق ثابت وقول صادق...

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ هذا استفهام إنكاري وإنه ليس هناك أصدق من الله قولاً فهو وعد وهو أصدق من وفى بوعده...

وهذا تأكيد بليغ لأولياء الله والذين آمنوا به وعملوا الصالحات في مقابل وعود الشيطان وأمانيه إلى أوليائه وأتباعه...

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: من المنيُ: وهو التقدير، وأمنيات الإنسان: ما يتمناه ويقدّره مما لا واقع له ولا نفع فيه.

﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: هم اليهود والنصارى ونسبهم الله إلى الكتاب تشريفاً...

﴿سُوءًا﴾: السوء: كل ما يغمّ الإنسان سواء كان في دينه أو دنياه أو آخرته ـ وهنا يراد به المعصية...

﴿يُجْزَ بِهِ﴾: يكافأ به.

﴿وَلِيًّا﴾: الولي: من يتولى شؤون غيره ويدفع عنه.

﴿نَصِيرًا﴾: النصير: المعين.

﴿نَقِيرًا﴾: النقير: الخيط الدقيق الذي في النواة يضرب به المثل في قلته.

## التفسير

قيل: إن سبب نزول هذه الآية الكريمة أن المسلمين وأهل الكتاب وقع التفاخر فيما بينهم فقال أهل الكتاب نبينا وكتابنا قبل نبيكم وكتابكم فنحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم لأن نبينا آخر الأنبياء وكتابنا آخر الكتب فنزلت الآية لتحدد الميزان الصحيح...

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ما ادعيتموه وذهبتم إليه أنتم أيها المسلمون وكذلك أهل الكتاب ليس هو الصحيح ولا الميزان المستقيم...

مجرد أن يدعي الإنسان الانتساب إلى الحق أو يدَّعي أنه موصول به لا يكفي لإعطائه براءة من كل عيب وإدخاله الجنة...

إن الحقيقة ليست ما تتمنونه أنتم وتدَّعونه، وكذلك ليست الحقيقة ما يتمنونها ويدَّعيها الآخرون بل الحقيقة هي:

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ من ينحرف عن طاعة الله ويترك امتثال أمره ويعمل بالمعاصي والآثام لا بدّ وأن ينال جزاء ذلك وعقابه المرسوم لمثله... مَنْ يزني يناله عذاب الزنا سواء كان مسلماً أم كتابياً، ومن يسرق يناله عقاب السرقة مسلماً كان أم كتابياً، ومن يطع الشيطان يطاله عذاب الله مسلماً كان أم كتابياً، وهكذا.

فالعقاب يكون على كل عمل سيء بقطع النظر عمن صدر منه مسلماً كان أم كتابياً وهذا هو قانون العدل الإلهي الذي يجري على كل بني آدم بدون امتياز لواحد على آخر.

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولو بحث فاعل السوء في كل مكان لا يجد غير الله يتولى أمره ويدافع عنه ويدفع ما ينزل به، ولا يجد غير الله نصيراً ينصره وينجيه من العذاب الأليم...

وبعبارة أخرى: قارب النجاة والنصر والفوز والفلاح بيد الله وهو سبحانه له

الأمر والنهي والحكم والقضاء وتسقط كل الأهداف الأخرى التي يتطلع إليها الإنسان ويظن أنها تملك القرار أو تنجيه بشكل مستقل عن الله. . .

الملجأ إلى الله والمرجع إليه وحده يملك قرار الدفاع عن صاحب السوء ووحده سبحانه الذي يملك الانتصار إليه والدفاع عنه بالعفو والصفح إن شاء وبالعقاب إن شاء. . .

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ كما أن فاعل السوء يجزى به ويناله عقابه كذلك فاعل الخير والصالحات ـ سواء كان ذكراً أم أنثى ـ أيضاً يناله جزاؤه ولكن ـ شرط القبول للصالحات ـ أن يكون مؤمناً. . .

والإيمان بالله وبما جاء من عنده على ألسنة رسله هو الشرط الأساس لقبول العمل الصالح، فمن تصدّق بدون إيمان لاستمرت ثمرة صدقته ولا يترتب عليها الأجر والثواب لأن من أتى بها بدون أن تكون لوجه الله كيف يطلب أجرها منه وهو لم يعملها لأجله ومن أجل أمره، وهكذا في كل فعل صالح يشترط في فاعله أن يكون حاملاً للإيمان بالله وبرسله وكتبه وبما جاء عنه على ألسنة أنبيائه. . .

فهذا المؤمن العامل للصالحات جزاؤه الجنة. . فمهر الجنة أو ثمنها الإيمان والعمل الصالح وهذه معادلة واضحة ظاهرة، فالمقدمات معلومة والنتيجة معلومة وهذا الطريق يصل بمطيته إلى ذلك الهدف. . .

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ بيان لعدل الله المطلق ونفي أيضاً للظلم عن ساحته بشكل مطلق. . . إن كل عمل مهما كان صغيراً أو حقيراً يأخذ عليه فاعله أجره وثوابه. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[(١)] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾[(٢)].

---

(١) الكهف/ ٤٩.
(٢) الزلزلة/ ٧ ـ ٨.

## فوائد

١ ـ قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ تقرأ بالتشديد وقرأ بعضهم التخفيف ومفرد الأماني هي الأمنية وهي الأحلام الوردية التي لا واقع لها...

٢ ـ يدل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أن كل عمل سيء يترتب عليه جزاؤه في الدنيا أو في الآخرة وقد يكون فيهما معاً.

٣ ـ يدل قوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ على مساواة المرأة والرجل في الأعمال، فالمؤمن العامل للصالحات ﴿ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ يأخذ جزاء عمله بدون تفاوت أو تمايز...

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿دِينًا﴾: الدين: كالملة وفي الأصل يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة.

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾: أخلص قصده في عبادة الله، ومعنى أسلم: إنقاد، والوجه: هو الجارحة المعروفة.

﴿مُحْسِنٌ﴾: المحسن: فاعل الإحسان، والإحسان: فوق العدل.

﴿اتَّبَعَ﴾: أتبعه: اقتفى أثره ومشى خلفه.

﴿مِلَّةَ﴾: الملّة: الدين الذي شرّعه الله لعباده.

﴿حَنِيفًا﴾: المائل عن الضلال إلى الاستقامة.

﴿خَلِيلًا﴾: الخليل: الصديق.

﴿مُّحِيطًا﴾: عليماً: والإحاطة بالشيء علماً: هي لله لأنه يعلم وجود الشيء وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود منه وبه وما يكون به ومنه.

## التفسير

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

هذا استفهام يراد به من خلال النفي الوارد فيه حسن من فعل هذه الأعمال وتلبّس بها. . .

إن أحسن الأديان هو دين من اجتمعت فيه ثلاث مواصفات.

**الصفة الأولى:** ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ انقاد لله وانقطع إليه ولم يبق له حول أو قوة في مواجهة الله فضلاً عن أن يحسب لغيره من البشر أو القوى حولاً أو قوة. . .

إنه الاستسلام المطلق لله الذي يتخلى من خلاله الإنسان عن كل حول أو قوة أو أي سلطة يمكن أن يتوجه إليها. . .

العقيدة الصحيحة: هي العقيدة التي من خلالها يرى الإنسان ربه ولا يرى غيره.

**الصفة الثانية:** ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مطيع لله في سلوكه وعمله وكل حركة تصدر منه، فعمله ضمن الخط الإلهي المرسوم له وبالمواصفات التي تحفظ لها حسنها وجلالها. . .

**الصفة الثالثة:** ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ اتبع ما كان عليه إبراهيم من دين مستقيم غير منحرف وهو دين التوحيد والإخلاص لله تعالى. .

إن ملّة إبراهيم هي الملة التي تلتقي عليها الديانات كلها وتدّعي أنها تتصل بها وتنتهي إليها. . . إنها تحمل الصفاء والطهر والإخلاص والإيمان، وتحمل العقيدة الربانية الصحيحة البيضاء التي لم يعكر صفاءها شيئاً، هذه العقيدة قد أحياها النبي محمد ﷺ وبعثها من جديد بصيغتها الأولى التي جاء بها النبي إبراهيم شيخ المرسلين. . .

ومعنى ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن سائر الأديان الزائغة التي لعبت فيها أيدي المحرفين كاليهودية والنصرانية التي عملت فيهما أيدي الرهبان والأحبار بما يخدم مصالحهم دون الالتفات إلى أصولها وما هي عليه في جوهرها وحقيقتها.

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ هذا اتخاذ تشريف لإبراهيم وتعظيم لإبراهيم ولمقامه لما وجده سبحانه عنده من إيمان وإخلاص وانقطاع إليه. . .

والخليل: بحسب اشتقاقه له أكثر من معنى. . .

١ ـ الذي يوافقك في خلالك: أي يجعلك قدوة فيسير طبق ما فيك من خصال. . .

٢ ـ صديقك الذي دخل حبه في قلبك وأدخلته في أسرارك.

٣ ـ الذي يسايرك في طريقك من الخل وهو الطريق في الرمل. . .

وعلى كل حال. . فإن اتخاذ الله لإبراهيم خليلاً ـ بأي معنى من المعاني ـ فهي للتشريف ولرفع مقام إبراهيم وبيان فضله والإشادة باسمه وليس لحاجة لله فيه أو لافتقاره إليه لأن الله غني عن العالمين وهو الكمال المطلق والغني المطلق وعندما ينسبُ أحداً إليه فإنما ينسبه ليشرّفه ويرفع من مقامه وينوّه باسمه حتى يصبح مَعْلماً تتطلع إليه الأنظار وتتخذه قدوة ترسّم طريقه وتعمل عمله. . .

يبقى أن نذكر أنه سبحانه في قوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ذكر ذلك ترغيباً في اتباع ملة إبراهيم وأنها في غاية الحسن والكمال، وأظهر اسم إبراهيم تفخيماً له وتنصيصاً على أنه المستحق للمدح. . .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا رفع لما يمكن أن يُتوهم من أن الله اتخذ إبراهيم خليلاً لحاجته إليه، فقد رفع ذلك بأنه سبحانه كل ما في السماوات وما في الأرض، كلها مملوكة له تحت سلطانه وقدرته مطيعة له عاملة بأمره. . .

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ كان الله ولا يزال عالماً بكل شيء وقادراً على كل شيء. . .

والإحاطة هنا إحاطة علم وقدرة، فهو عالم بتفاصيل العالم وخصوصياته وجزئياته وبكل حركة تصدر من هذا الإنسان أو يقوم بها وسيحاسب عليها ويجزي بها. . .

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: الاستفتاء: طلب الفتوى، والفُتيا والفتوى: الجواب عما يُشكل من الأحكام وأصله من الفتى وهو الشاب فكأن البيان يقوى بالفُتيا.

﴿يُتْلَىٰ﴾: يُقرأ.

﴿يَتَٰمَى﴾: جمع يتيم، وهو من فَقَد أباه بالموت من الناس وشرعاً ذلك قبل أن يبلغ.

﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾: لا تعطوهن.

﴿مَا كُتِبَ﴾: ما فُرض ووجب.

﴿وَتَرْغَبُونَ﴾: رغب عنه: أعرض، ورغب فيه: أراده وأحبه.

﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾: تتزوجوهنَّ.

﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: من الضعف: خلاف القوة، ومقابل الاستضعاف: الاستكبار.

﴿ٱلْوِلْدَٰنِ﴾: جمع ولد ويطلق على الابن والابنة.

﴿ٱلْقِسْطِ﴾: العدل أن تقوموا، القيام بالشيء: مراعاته حالاً بعد حال.

## التفسير

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ هذه الآية جاءت جواباً عن سؤال توجه إلى رسول الله ﷺ يُطلب منه أن يُبيِّن لهم حقوق النساء وما فرض الله لهن من الميراث والحقوق المالية حيث كان ذلك المجتمع يحرم المرأة من أبسط حقوقها...

يطلبون من النبي ﷺ أن يبيّن لهم حكم الحقوق المالية التي تستحقها المرأة والأحكام الأخرى التي تتعلق بها. والله سبحانه يعلّم نبيه ويلقّنه كيف يكون الجواب...

﴿قل﴾ لهم يا محمد! ﴿ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ فالله هو الذي تولى بيان حكمهن وما لهن.. إنه سبحانه هو المشرّع الذي يبيّن الحلال والحرام والشرائع والأحكام لم يكِل الأمر لحبيبه محمد ﷺ وهو النبي العظيم الأثير لديه العزيز عنده، بل تولى ذلك بنفسه قطعاً لأعذارهم المفتعلة وسدّاً لذرائعهم المصطنعة...

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ وهو سبحانه أيضاً يفتيكم فيما أورده لكم في القرآن في النساء اليتامى...

وقد كانت اليتيمة في حجر الرجل ويكون معها مال فإن كانت جميلة تزوجها وضم مالها إليه، وإن كانت دميمة قبيحة منعها من الزواج حتى إذا ماتت ورثها، فالله سبحانه يكشف في كتابه كيف يُتعامل معها وما هو حقها المفروض لها؟...

﴿ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ النساء اللاتي لا تعطوهنّ ميراثهن المفروض لهن من قبل الله ولا تريدون الزواج منهنّ ـ فكان الرجل يجمع على اليتيمة معنيين:

**الأولى**: أخذ مالها.

**والثانية**: عدم السماح لها بالزواج طمعاً بذلك المال.

فالله قد رفع يد هذا الظالم بتشريعه العادل الذي يرفع به السبب لتصرف الولي على اليتيمة..

إنه يوجب على الولي أن يدفع إليها مالها إذا لم يرغب في الزواج منها ويعطيها حقها على كل حال لأنه حق مكتسب بحكم الله وتشريعه، فلا يحق لولي أمرها أن يمنعها منه أو يحجزه عنها...

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ عطف على يتامى النساء: أي ويفتيكم في المستضعفين من الولدان. والله أيضاً بيّن حكم المستضعفين من الأولاد وهم الصغار الذين لا يملكون قوة يدافعون فيها عن حقوقهم...

إن العرب كانت لا تورث الأولاد الصغار - الصبيان والنساء - ويقولون إن هؤلاء لا يدفعون عن العشيرة ولا يغزون فلا يضربون بسيف ولا سوط فلا حق لهم في الميراث، ولكن الله في هذه الآية أعطاهم حق الميراث وأوجب على أولياء الأمور أن يحفظوا هذه الأموال لهم ثم يسلموها لهم متى أدركوا الحلم وبلغوا مبلغ الرجال...

ولا يخفى أن توصيف الأولاد - بالمستضعفين - لإثارة العطف والشفقة في النفوس...

﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ وهذا عطف على ما تقدم أي يفتيكم أن تقوموا لليتامى مطلقاً بالقسط وهذا أمر أن يقوموا بشؤون اليتامى بشكل عام بعد ذكر الخاص - وهم يتامى النساء - والقيام بالعدل لليتامى - هو أن تصلهم حقوقهم وما فرض الله لهم من ميراث وأوجب من أحكام..

إن العدل هو ما شرّع الله وبيّن في كتابه وعلى لسان رسوله.. حيث وزّع الميراث على الورثة فجعل لكل وارث سهماً من الآباء والأبناء والأزواج والأعمام

والأخوال، وهكذا. فالقيام بالعدل أن يصل لكلٍ سهمه دون ظلم وبالأخص من كان ضعيفاً كما هو الحال في اليتامى بشكل عام، ويتامى النساء بشكل خاص. . .

والقيام بالقسط ـ العدل ـ أمر مطلوب في الإسلام في كل المجالات والأحوال وفي كل شيء وإنما خصّ اليتامى لضعفهم وقلة حيلتهم ولإثارة العطف والشفقة عليهم. . .

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وما تصنعون من خير أو تقومون به مطلقاً ـ أي خير ـ ومنه ما أُمرتم به من الإحسان إلى اليتامى ويتامى النساء خاصة والصبيان، فإن الله كان وما زال به عليماً يعلمه بتفاصيله ويثيب عليه بالإحسان والأجر الجزيل. . . وهذا ترغيب في فعل الخير ومنه موردنا الذي نحن فيه. . .

وفي الآية طريقة تربوية عالية للنفوس التي ألفت الظلم واعتادت عليه فجاءت هذه الطريقة لتأخذ بها إلى الكمال حيث وضعت لها برنامجاً يتضمن ثلاثة مراحل وهي:

١ ـ تركهم الظلم وما اعتادوا عليه من حرمان اليتامى حقوقهم.

٢ ـ أن يقوموا بالقسط والعدل فيهم ومن جميع الوجوه والجهات.

٣ ـ أن يفعلوا معهم الفضل: وهو الزيادة في الإحسان إليهم، وفعل الخير لهم من جميع الجهات والنواحي. . .

قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾.

## اللغة

﴿خَافَتْ﴾: الخوف: توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة.

﴿بَعْلِهَا﴾: زوجها، والبعل: هو الذكر من الزوجين.

﴿نُشُوزًا﴾: النشز: لغة المرتفع من الأرض، ونشوز المرأة: بغضها لزوجها ورفع نفسها عن طاعته، ونشوز الرجل: بغضها وارتفاعه عليها.

﴿إِعْرَاضًا﴾: أعرض عن الشيء: إذا مال عنه وصرف وجهه عنه.

﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: فلا إثم ولا حرج.

﴿وَٱلصُّلْحُ﴾: هو إزالة النفار بين الناس.

﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ﴾: شهدت النفوس ووجدت...

﴿ٱلشُّحَّ﴾: شدة البخل.

## التفسير

روي في سبب نزول الآية الكريمة: أنه كانت بنت محمد بن مسلمة عند رافع بن خديج وقد دخلت في السن ـ كانت كبيرة ـ وكانت عنده امرأة شابة سواها فطلّقها تطليقة حتى إذا بقي من أجلها يسير قال لها: إن شئت راجعتك وصبرت على الآثرة وإن شئت تركتك.

فقالت: بل راجعني واصبر على الآثرة فراجعها بذلك الصلح...

وعلى كل حال.. صحّت هذه الرواية أم لم تصح فإن العبرة بلسان البيان وعموم النص ومفاده:

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ هذه هي المشكلة الواقعة بين الزوج وزوجته... زوجة شعرت بالتعالي من زوجها والترفع عليها... إنه يشمخ بأنفه عليها ويعرض بوجهه عنها ويرى نفسه أعلى منها منزلة...

إنها والحالة هذه ـ حالة الخوف من ذلك التعالي ـ لواقع تعيشه هي من كبر سنٍ أو دمامة منظر أو أمر من الأمور البغيضة ـ للزوج ففي مثل ذلك لا يخلو الأمر.

إما تبقى الحالة التعيسة قائمة وتتحول هي إلى ضحية مستمرة تعيش مع زوج يواجهها دائماً بوجه مكفهر وحياة نكدة صعبة قاسية وإمّا أن يطلقها وتنتهي العلاقة الزوجية، بينهما وفي ذلك قد تكون مشكلتها أشدُّ تعقيداً وأكثر صعوبة.

وأمّا أن تتنازل له عن بعض حقوقها المالية ـ مهرها كله أو بعضه ـ أو تسقط بعض حقوقها في المبيت عندها أو غير ذلك، وبهذا الحل الأخير تبقى من جهة في عصمته وترأب الصدع الذي بينها وبينه، ولكن هذا الحل يشترط أن يكون بطيب نفس منها دون ضغط أو إكراه...

وهذا الأمر هو المعبّر عنه بالصلح بينهما الذي أشار إليه تعالى في قوله: ﴿فَلَا

﴿جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ فلا إثم ولا حرج عليهما - الزوج والزوجة - أن يصلحا بينهما بأن تتنازل له عن بعض حقوقها وتبقى في عصمته. . .

إنه الحل المتعيّن عندما تسدُّ الأبواب وينحصر الخيار بين الطروحات المتقدمة. . .

صحيح أن في الأمر قساوة على المرأة ولكنه أهون من غيره من الأمور الأخرى، وفي مقام الاختيار فهو أحسنها وأفضلها والأمر إليها وبيدها الحل والربط. . .

﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ هذه جملة معترضة تبيّن أن الصلح بعمومه خير لأنه يُبنى على رضى من الطرفين والوصول إلى الحل الوسط الذي به يجمع بين الأمرين. . . الصلح في موارده يرفع الحرج كما يرفع الحزازة من القلوب وهو في كثير من الأحيان خير من غيره مما تكون فيه الأحكام كحدّ السيف. . .

ومن جملة الصلح الذي هو خير صلح الزوجة مع زوجها إذا نشز منها أو أعرض عنها فإنه يبقي الحالة الزوجية قائمة والأسرة مجتمعة فلا تصاب بتفكك أو خراب من جرّاء الطلاق أو دوام النشوز والإعراض. . .

قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ استفاد الفقهاء منها جواز الصلح وإنه خير وأسسوا باباً يسمى ﴿وَٱلصُّلْحُ﴾ وأدخلوه في باب العقود واستندوا إلى هذه الآية وغيرها من الآيات الدالة على الصلح كما استندوا إلى السنة التي شرّعت ذلك. . .

﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ أيضاً هذه جملة معترضة مناسبة للمقام من جهة أن الزوجة تريد الاحتفاظ بحقها، فهي تدافع عنه وتريد أن تحصل على أكبر قدر منه والزوج يريد أن يحطّ من حقوقها ويساومها عليها لصالحه، فكل منهما يماكس الآخر ويساومه لجلب المنفعة لنفسه ودفع المضرة عنها لما جبلت عليه النفوس من حب الخير لها ودفع المضرة عنها. . .

وكأن قوله: «وأحضرت الأنفس الشح» إشارة إلى أن على كل طرف أن يتحمّل ما يجري له مع الآخر حينما تبدأ عملية التفاوض للصلح ويصبر عليه

وعلى طلباته لأن ذلك ـ حب الذات ـ شيء طبيعي عند الإنسان فيحتاج إلى صبر وأناة للوصول إلى الحل المرتقب...

﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ هذه دعوة إلى الإحسان، وأن يرغب كل من الزوجين بالتفضل على الآخر وخصوصاً الزوج فلا يقسو في الطلبات ويكثر منها... إن الإحسان فوق العدل، والإحسان مندوب إليه مرغوب فيه.. وهو أن تعطي غيرك فوق ما يستحق.

﴿وَتَتَّقُوا﴾ تحذروا النار وتخافوا منها وتدفعوا شرها بعدم التجاوز عمّا لكم به حق من الأمور الصعبة التي ترهق كاهل المرأة وتضغط على أعصابها وتزيد في إحراجها...

ثم أخيراً ذكّرهم بالله وبعلمه بكل تفاصيل حركاتهم وحواراتهم وما يجري معهم...

فإن الله كان ولم يزل ولا يزال بما تعملون من خير أو شر خبيراً بكل ذلك يحاسب عليه ويجزي به إن كان خيراً فثوابه الجنة وما أعدّه الله للمطيعين وإن كان شراً فجزاؤه النار وما أعدّه الله للعاصين...

قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿تَسْتَطِيعُوٓاْ﴾: استطاع الشيء: قدر عليه.

﴿تَعْدِلُواْ﴾: من العدل: وهو التقسيط على سواء، والعدل بين النساء: أن يسوّي بينهن.

﴿حَرَصْتُمْ﴾: الحرص: شدّة الشره وفرط الإرادة.

﴿تَمِيلُواْ﴾: من الميل: وهو العدول عن الوسط إلى أحد الجانبين ويستعمل في الجور.

﴿فَتَذَرُوهَا﴾: في الجور فتتركوها وتدعوها.

﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾: المعلقة: هي التي ليست ذات بعل ولا مطلّقة.

﴿يَتَفَرَّقَا﴾: يقصد به الطلاق، يقال: فرقت بين الشيئين: إذا فصلت بينهما سواء كان بفصل يدركه البصر أو البصيرة.

﴿يُغْنِ﴾: يكفي.

﴿سَعَتِهِۦ﴾: السعة: الغنى، من سعته: أي من غناه.

## التفسير

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ هذا نفي لقدرة الرجال على العدالة المطلقة مع أزواجهن إذا تعددت الزوجات عند الرجل مهما أجهدوا أنفسهم وأتعبوها لتحصيل ذلك...

فمن تزوج أكثر من واحدة عجز بحكم هذه الآية عن أن يعدل بينهم وإن حرص على ذلك وأتعب نفسه في سبيله.

وهذه العدالة التي نفى الله قدرة الرجال عليها ليست هي المسكن والملبس والمأكل والمشرب والنفقات المادية، وإنما هي الحب والود والميل القلبي وما أشبه ذلك مما لا يدخل تحت قدرة الإنسان وسلطته، وهذه حالات ليست تحت قدرة الإنسان وطاقته ومهما جهد ليحب إنساناً ويساوي حبه بحب آخر لا يقدر على ذلك لأن الحب حالة نفسية لا تقع تحت يده وليست بمقدوره...

ولكن ليس معنى ذلك أن لا يعدل الزوج بين زوجاته في الحب والميل، أن يجحف في بغضه ويكون حبه لواحدة على حساب الأخرى...

إذا عجز عن العدل في الميل القلبي والحب فالله يوصي كل الرجال بقوله:

﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ فلا تعرضوا كل الإعراض عن المرغوب عنها ـ وغير المحبوبة لديكم فتتركوها والحال كذلك غير مستقرة ولا ثابتة ولا مطمئنة، فهي لا تعامل معاملة الزوجة من المودة والعطف والرحمة، وليست غريبة أجنبية حتى تبحث عن مصيرها وما يسعدها في مستقبلها، وبعبارة أخرى ـ ليست هي متزوجة فتأخذ حقوق الزوجية ـ ولا هي مطلقة لتأخذ حقوق المطلقة...

ومن أبلغ التشبيه التشبيه لها بالمعلّقة، فهي ليست في السماء ولا في الأرض

فلا يصح نسبتها إلى الأُولى كما لا يصح نسبتها إلى الثانية، وبذلك تفقد مستلزمات كل منهما وتبعاتها المترتبة عليها وهذه خسارة كبرى للمرأة ينهى الله عنها وعن القيام بها. . .

ومن هنا نهى الله عن إظهار الميل عنها بهذا الشكل الواسع الكبير، وإذا كان ولا بدَّ فليكن بمقدار قليلٍ مما لا يقدر عليه الزوج ولا يطيقه دون الجهر به أو الإعلان عنه مما يسقطها ويجعلها كالمعلقة. . .

﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وإن تصلحوا أعمالكم وتجعلوها وفق أمر الله وإرادته وتتقوه فلا تظلموا عباد الله ولا تعصوه، فإن الله كان ولا يزال غفوراً للذنوب ماحياً لها ورحيماً بكم وبالعباد ويريد لكم الخير. . .

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ إذا عجز الزوجان عن الوفاق وإتمام مشروع الزواج وتحولت حياتهما إلى رحلة شقاء وعذاب وقررا الانفصال والطلاق، فإن الله قد أذن به كحلّ أخير وإن كان مكروهاً عنده. . .

وذلك أن ينفصلا بالطلاق وتنتهي العلاقة الزوجية بينهما، فالله سيغني كلاً منهما من فضلة وكرمه.

إن الطلاق يحل عقدتهما معاً، والله عنده كل الخير وهو الغني المطلق فلن تموت نفس من جوع، فالمرأة ـ وهي الضعيفة ـ يرزقها الله ويعطيها بدل ما كانت تأخذه من نفقة الزوجية، وقد يبعث إليها من يتزوجها فتعيش السعادة والرفاهية. . .

والزوج بالطلاق يخرج مما يعانيه من حالة البغض والكراهية وتستقر نفسه القلقة التي تعيش تعاسةً وسوءاً جزاء ما يحمله من عدم ميل ورغبة في هذه المرأة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولا يزال واسعاً في عطائه وفضله وعلمه وكل صفاته وحكيماً في تدبيره وأفعاله وأحكامه. ومن حكمته أن أباح الطلاق بين الزوجين عندما تُسدُّ أبواب الوفاق وتتحول الحياة الزوجية إلى جحيم وعذاب. . .

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿وَصَّيْنَا﴾: من الوصية: وهي التقدّم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ وهنا بمعنى عهدنا.

﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: أعطوا الكتاب: وهو التوراة أو الإنجيل وهم اليهود والنصارى.

﴿حَمِيدًا﴾: محموداً: وهو الذي يستحق الثناء عليه لعطائه وكرمه.

﴿وَكِيلًا﴾: الوكيل: الذي يتولى أمرك ويدبّر شؤونك.

﴿يُذْهِبْكُمْ﴾: يميتكم.

## التفسير

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ بعد أن ذكر سبحانه ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ ناسب هنا أن يذكر أنه هو الغني المطلق وله ملك السماوات والأرض وما فيهما، فهو القادر على أن يغني كلاً من المرأة والرجل المطلقين وأن يؤنس وحشتهما ويرزقهما البديل الأفضل أو المناسب.

﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ التقوى لها عمقها وجذورها بحيث أنها وصية لله لكل أهل الأديان وأصحاب الكتب المنزلة من قبل الله...

التقوى التي بها يحرز الإنسان أعلى المراتب التي خلقها الله لأفضل عباده... إنها كانت وصية الله لليهود للنصارى كما هي للمسلمين وهي الآن للمسلمين، وهذا بيان يكشف أهميتها في كل الشرائع وأن بها السعادة وعن طريقها يحرز النعيم الدائم...

﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وإن تكفروا أنتم أيها الحاضرون وتجحدوا آيات الله ولا تتبعوا ما أنزل على ألسنة رسله فلن تضروه شيئاً لأن له ما في السماوات وما في الأرض وما أنتم ومخالفتكم وتمردكم وعصيانكم إلاّ ذرّةٌ عابرة لا تعود عليه بالضرر كما لا تعود طاعتكم عليه بالخير.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾ وكان الله ولم يزل ولا يزال الغني المطلق عن عباده وكل مخلوقاته فلا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين محمود لأفعاله الكريمة وعطاياه العظيمة وكل أياديه السديدة...

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾ أعاد سبحانه ذكر ملكيته لما في السماوات ولما في الأرض ثلاث مرات، اقتضت كل مرة أن يذكر ذلك لأنها بمثابة الأدلة والبراهين على قضايا متعددة فذكرها بعد كل قضية تكون أجدى في تثبيت المقصود وأنفع في سوق القضية مع دليلها.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ وكفى بالله قائماً في تدبير شؤون الخلق وتنظيم أمورهم، لأنها مخلوقات ممكنة محتاجة في وجودها وفي بقائها إليه ففيه الكفاية لتولي كل ممكن وإدارة شؤونه وتيسير قضاياه. . .

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ هذا بيان لبعض قدرة الله، وأنه سبحانه يملك القدرة الكافية للقضاء على العصاة والمتمردين وعلى الناس أجمعين ولو شاء لفعل، كما أنه قادر على خلق آخرين بديلاً عمَّن أفناهم وقضى عليهم فيحذِّر العصاة ليعودوا إلى رحابه، فإنه سبحانه لكرمه وجوده ورحمته لم يفعل بهم ذلك ـ مع قدرته عليهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ فهو سبحانه يملك القدرة المطلقة على إعدام قوم وفنائهم، كما يملك القدرة على إيجاد آخرين يخلفونهم ويحلّون محلهم. . .

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

من رحمة الله بعباده أنه سبحانه لم يتركهم للأهواء والميول والشهوات بل دائماً وباستمرار يأخذ بأيديهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم، وكلما انحرف الإنسان ترى العناية الإلهية تترفق بهم وتساعدهم من أجل النهوض والاستقامة. . .

وهنا يصحح الله لهذا الإنسان نظرته ونيّته وهدفه.

من كان يريد ثواب الدنيا في جهاده أو عمله أو تجارته أو صناعته أو حركته كما هي حال بعض الغافلين فيقاتل من أجل الغنيمة أو يعمل للشهرة والسلطة أو يتاجر لزيادة رقمه المالي، أو يتحرك من أجل شهوة معينة، فمثل هذا التوجه وهذه النية إنما هو لضعف في رؤيته حيث يقتصر على هذه الأمور الصغيرة من الدنيا مع إمكانية أن يطويها ويحصل على غيرها مما يعادل أضعافاً مضاعفة كمّاً وكيفاً وأجراً وثواباً، ومن هنا فالله يدلّه على المنطلق والطريق والهدف فيقول تعالى:

﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فاقصد في عملك وجه الله وتقرّب إليه فيما تأتيه فإذا أنت قد حصلت على الدنيا وعلى الآخرة فعقلك الواعي لا يختار الربح الأقل والأدنى مع إمكان أن يربح الأعلى والأكثر وخصوصاً إذا كان على مستوى الآخرة التي لا يعادلها ربح آخر حتى يقارن بها أو يقاس عليها. . .

في هذه الآية ترغيب عظيم في طاعة الله، وأن على المسلم أن ينوي بعمله وجهه الكريم ليحصل على ثواب الدنيا ومنافعها وخيرها وثواب الآخرة من الجنان ونعيمها وما فيها من سعادة وكرامة. . .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾.

## اللغة

﴿قَوَّٰمِينَ﴾: جمع قوّام مبالغة في القيام فكأن القيام ـ خلاف الجلوس ـ عادة له، والقيام بالشيء: المواظبة عليه وملازمته...

﴿ٱلْقِسْطِ﴾: العدل.

﴿شُهَدَآءَ﴾: جميع شهيد: وهو الذي يشهد على غيره، والشهادة كما يقول الراغب: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر.

﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾: الآباء والأمهات.

﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾: الأقرب ضد الأبعد، والقريب: ضد البعيد، والقريب من يمتُّ إليك بصلة قرابة رحمية.

﴿أَوْلَىٰ﴾: أحق.

﴿تَتَّبِعُوا۟﴾: اتبعه: إذا اقتفى أثره وسار خلفه.

﴿ٱلْهَوَىٰٓ﴾: ميل النفس إلى الشهوة وإلى ما لا يرضي الله.

﴿تَلْوُۥٓا﴾: اللي: الدفع، ومنه لواه حقَّه: إذا مطله.

﴿تُعْرِضُوا﴾: أعرض عن الشيء: إذا مال عنه وصرف وجهه عنه.

## التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ جاءت هذه الآية لترسي قواعد العدل الاجتماعي وتضع الأسس المتينة لبناء العدالة...

إنه أمر إلهي لجميع المؤمنين أن يكونوا مجدّين مجتهدين في إقامة العدل والحكم به قولاً وعملاً..

إن كلمة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ تحمل معها وفي روحها الاهتمام المفرط في أمر العدالة حتى تتحول إلى عادة عند المؤمنين ينشدونها بطبيعتهم ويحبونها بأمزجتهم...

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أقيموا شهاداتكم لله ولوجهه الكريم كما هي في واقعها دون مراعاة لقرابة أو رحم أو علاقة نسبية أو سببية.

الشهادة لله إقامة للحق، والحق فوق الاعتبارات والمنافع والفوائد.. ولو كانت هذه الشهادة على أنفسكم، أي لو أضرّت بكم فأقيموها، وكذلك لو كانت على آبائكم أو أمهاتكم أو الأقربين منكم كالأعمام والأخوال ومن تجمعكم بهم رحم أو قرابة...

وبعبارة مختصرة راعوا الله في الشهادة وأقيموها كما هي دون النظر إلى الاعتبارات والعلاقات والصلات والقرابات.

اللام في ﴿لِلَّهِ﴾ للغاية، أي تكون الشهادة خالصة لله دون أي اعتبار آخر من الاعتبارات السائدة ـ وهذا هو الطريق لبسط العدل وإقامة العدل...

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ هذه صورة من الصور التي يمكن أن

تجري فيها المحاباة وتتحول بعض صفات المشهود عليه إلى أداة ضغط على الشاهد فينحرف من أجلها عن إقامة الشهادة على وجهها. . .

إنها صورة غني وفقير قد يتأثر الشاهد بغنى الغني وماله فيندفع للشهادة لصالحه طمعاً بشيء من ماله إن كان له مال، أو طمعاً في شفاعته إن كان صاحب وجاهة وسلطان، وهكذا قد يتدخل عنصر الغنى ويؤثّر على نفسية الشاهد وبالتالي يؤثر على شهادته فيحوّلها إلى صالحه وإن كانت خلاف الحق والعدل. . .

وفي أحيان أخرى قد يكون عنصر الفقر من دواعي الرحمة عند الشاهد. . الحال التعيسة التي يعيشها الفقير والشفقة هي التي تكوّن دوافع الشهادة له وإن كان على حساب الحق والعدل. . .

الله سبحانه وتعالى يحرّر الإنسان الشاهد من هذه العوامل الضاغطة عليه المؤثرة في شهادته. . إنه سبحانه يحرك فيه الحس الإيماني بأن الله هو أولى وأحق وأعرف بالمصلحة من الشاهد المتأثر بالمظاهر. . .

الله الذي أوجب إقامة الشهادة كما هي أعرف بالمصالح والمفاسد، وهو سبحانه الذي حكم بإقامة الشهادة على وجهها دون أدنى تأثر بالأعراض المترائية لدى الشاهد. . .

إنه سبحانه هو أعلم بمصالح الغني والفقير وبالنظر إليهما، فلو لم تكن الشهادة لهما أو عليهما لما شرّعها وأمر بها في هذا المقام، فراعوا أمر الله دون الاعتبارات الأخرى التي يمكن أن تجرّكم إلى خلاف أمره. . .

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ جانبوا هوى النفس وميولها وشهواتها ورغباتها حتى تكونوا عدولاً كما أمر الله أو لتكونوا عدولاً كما أمر الله.

فمتابعة الهوى يخل بالعدالة ويقضي عليها، فمن أراد أن يكون عادلاً فعليه بالتخلي عن هواه إذا كان منافياً للحق، واتباع الهوى يندرج فيه مصاديق كثيرة مثل: الميل إلى الصديق أو مراعاة أغنى الأغنياء أو التعصب للأهل والعشيرة أو الميل لاقتناص غنيمة، وهكذا.

وقوله: ﴿أَن تَعۡدِلُوا۟﴾ إمّا أن يراد بها ما فسرناها به من كونها من العدل مقابل الجور وهو الأقرب والأصوب، وإمّا من العدول بمعنى الميل عن الحق... وهناك احتمالات أخرى رأينا الإعراض عنها أولى من ذكرها...

﴿وَإِن تَلۡوُۥٓا۟ أَوۡ تُعۡرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ أن تحرّفوا الشهادة عن واقعها وتشهدوا على غير الوجه الصحيح أو ترفضوا أن تشهدوا وتعرضوا عن إقامتها فإن الله كان ولا يزال ولم يزل خبيراً بكل تفاصيل حركاتكم وجزئياتها وسيحاسبكم عليها...

وهذا تهديد ووعيد وإنذار شديد لمن لوى لسانه بالشهادة أو أعرض عن إقامتها كما أنه يصح أيضاً أن يكون وعداً لمن أقام الشهادة بالعدل والحق...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يَكْفُرْ﴾: يجحد

﴿ضَلَّ﴾: الضلال: هو العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية.

## التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ إن التزمنا ظاهر الخطاب فهو موجّه إلى المؤمنين الذين ينتمون إلى هذه الملّة ظاهراً وبألسنتهم فحسب، فالله يدعوهم للإيمان الحقيقي الذي يتطابق فيه الظاهر مع الواقع والسّر مع العلن...

أنتم أيها المؤمنون بألسنتكم الذين تحملون هذه الهوية في نظر الناس كونوا من حملتها واقعاً وحقيقة وفي كل المجالات والحقول في الأصول والفروع...

﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ كما يحق له وجوداً وصفاتاً...

الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ندّ يساويه، هو الله أحدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، الخالق البارىء المصور المحيي المميت الذي بيده الأمور كلها مالك الملك الذي بيده أمر الدنيا والآخرة...

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ الذي بعثه الله لكم وللعالمين وقامت الأدلة والبراهين على صحة ما جاء به.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ لأن فيه سعادتكم وخلاصكم من النار.. إنه الدستور الذي ينظّم حياتكم ويهديكم ويرفع كل ضرر أو أذى يمكن أن يلحق بكم...

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ والمقصود بالكتاب هنا هو الجنس وهو التوراة والإنجيل اللذان أنزلهما الله على موسى وعيسى...

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

هذه هي أصول الكفر وهي خمسة:

١ - الكفر بالله: وهو الجحود له وإنكار وجوده أو ما يساوق ذلك من الشرك به أو نسبة الولد إليه أو ما شابه ذلك.

٢ - إنكار الملائكة يساوي تكذيب الرسل لأنه سبحانه أخبر على ألسنة رسله بوجودها، فمن أنكرها فقد كذّب ما جاء على ألسنتهم.

٣ - ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ أن ينكر ما أنزل الله من الكتب كالتوراة والإنجيل والقرآن.

٤ - ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ من ينكر رسله كلهم أو واحداً منهم فهو من جملة الكافرين.

٥ - ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ لأنه اليوم الذي يحاسب فيه الناس وينالون أجرهم وجزاء أعمالهم فإمّا إلى جنة أو إلى نار ومن أنكره فقد أنكر أبسط مسلّمات الإيمان.

من يكفر بهذه الأمور ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ انحرف انحرافاً بعيداً يصعب معه الرجوع إلى الإيمان والهدى.

أو انحرافاً بليغاً لم يبلغه غيره من أهل الضلال لأن الانحراف درجات ومراتب تختلف قوة وضعفاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿ٱزْدَادُوا۟﴾: الزيادة: أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر، يقال: زدته فازداد.

﴿سَبِيلًا﴾: السبيل: الطريق.

## التفسير

هذه الآية تتحدث عن فئة منافقة سلكت مسلكاً خطراً ليس على نفسها فحسب بل على المجتمع الناشىء في ابتداء الدعوة، كما أن خطرها حاضر في كل وقت...

إنها فئة تؤمن ظاهراً وتظهر شعائر الإيمان ثم تكفر بما آمنت به ثم تعود للإيمان ثم تكفر. وهكذا تزداد كفراً في تنقلها من الإيمان إلى الكفر...

هذه الفئة تشكل خطراً على العقيدة إذ تزرع بذور الشك في نفوس الضعفاء وتخلق التردد في قلوب من لم يثبت الإيمان في قلوبهم...

إن هذه الحالة المتكررة من هذه الفئة إيمان ثم كفر ثم إيمان ثم كفر تشكل حالة حرب على العقيدة أخطر من حالة الحرب المعلنة، لأن العدو إذا كان مواجهاً لك تستعد له وتتأهب للقائه بما يناسبه من أسلحة وعدة وعتاد، ولكن إذا كان يختفي بين الصفوف التي تقودها! فمن الصعب أن توقف فتكه وأذاه وتدفع خطره عنك وعمّن حولك...

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أولاً وأظهروا ذلك.

﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ ارتدّوا عن الإيمان وأعلنوا الكفر.

﴿ثُمَّ ءَامَنُوا﴾ عادوا إلى الإيمان كما كانوا أولاً.

﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ ارتدُّوا أيضاً وللمرة الثانية.

﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا﴾ فكأنهم في مرتهم الأخيرة تركيز الكفر في قلوبهم وأعلنوا معاداتهم للإيمان وأهله وماتوا على هذه الحالة.

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ هذا جزاء من قام بذلك الدور المتقدم.

أولاً: انسدّت في وجهه أبواب المغفرة لعدم قابليته لها لأن مغفرة الله مشروطة - على الأقل - بأن يحرز الإنسان مبادئها الأولية وأول تلك المبادىء أن يموت على الإيمان فهو قد حرم نفسه وباختياره هذا الشرط الأساس.

ثانياً: لقد فقدوا الهداية الموصلة لهم إلى الجنة وبعبارة أخرى تركهم الله وشأنهم ففقدوا الطريق إلى الهداية والسبيل إلى الجنة.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿بَشِّرِ﴾: البشارة: أصلها الخبر السار الذي يظهر به السرور في بشرة الوجه.

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: النفاق: هو إبطان الكفر وإظهار الإسلام.

﴿يَتَّخِذُونَ﴾: يجعلون.

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: جمع ولي: وهو من يتولى شؤونك والدفاع عنك ونصرتك.

﴿أَيَبْتَغُونَ﴾: أيطلبون.

﴿ٱلْعِزَّةَ﴾: القوة والمنعة وأصلها الشدة، ومنه يقال للأرض الصلبة الشديدة: عزاز.

## التفسير

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ أساء المنافقون إلى وحدة الصف الإسلامي وشكّلوا حلقة ضعيفة فيه لأنهم كانوا عيوناً للكافرين ينقلون إليهم كل نقاط الضعف ويدلّونهم عليها ثم يتخذون في بعض الأحيان حركة مضادة لما عليه

المسلمون أو يزرعون الشكوك في بعض النفوس الضعيفة، ومن هنا تهدّدهم الله وساق إليهم هذا التهديد بصيغة البشارة التي حملها بعضهم على أنها مجرد إخبار بما يصيبهم وحملها بعض آخر على نحو الاستهزاء والسخرية بهم، وعلى كل حال.. فالمهم العقاب المترتب على هذا الانحراف والسلوك الشائن، وعقابهم عذاب أليم يطالهم وينزل بهم.

وعندما يخبر الله عن العذاب بأنه أليم فلا يمكن أن نحصره بما عهدناه في دار الدنيا من عذابات، بل يفوق ذلك التصور المحدود وينطلق في مداه إلى أبعد حدوده وأعظم مداه أجارنا الله من عذاب الله...

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ فهؤلاء المنافقون تركوا ولاية المؤمنين والوقوف معهم ونصرتهم.. ثم راحوا يتخذون الكافرين أولياء وأعواناً وأنصاراً.. إنهم اعتمدوا بأمورهم على الكافرين وأحبُّوهم وودّوهم وتخلوا عن أهل الإيمان...

هذا بيان لطريقة المنافقين وسلوكهم حيث تركوا مجتمع الإيمان وتخلّوا عما يتوجه إليه ويرعاه، ثم أصفوا الودَّ إلى الكافرين وائتمروا بأمرهم وساروا على دربهم وأخذوا بقراراتهم التي تصدر لهم فأضحوا عملاء لهم يتلقّون أوامرهم ويطيعونهم فيما يرون ويقولون:

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ استفهام فيه إنكار عليهم وتقريع لهم واستهجان لفعلهم، وإنهم بموالاتهم للكافرين أيريدون أن يطلبوا القوة والمنعة والكرامة؟.. إنهم يطلبونها ممن يفقدها فلن يحصلوا على أثر منها عند الكافرين...

إذا أراد المنافقون من وراء موالاتهم للكافرين أن ينشدوا العزة والمنعة فلن يجدوها حيث يطلبونها... ثم إنه سبحانه دلّهم على مصدر العزة ومحل القوة فقال:

﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فالله هو مصدر كل عزّة وقوة ومنعة... وكل عزّة منه تكون وعنه تصدر وهو الذي يعطيها...

من أراد أن يطلب العزّة فليطلبها من مالكها ومفيضها ومن يملك أسبابها ووسائلها وهو قد أعطاها للمطيعين من المؤمنين الذين التزموا أمره وأطاعوه وتقيدوا بتشريعه وحكمه ولم يخرجوا عن شيء مما أراده وأحبه...

﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ هو أعطاها لأوليائه ونزعها عن أعدائه فمن أراد العزة فعليه أن يؤمن بالله وبكل رسول جاء من عنده وبكل كلام أنزله وكل حكم أراده...

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: كلامه الموحى به إلى نبيه.

﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾: يُسخر بها، وأصل الهزء مزح في خفية وقد يقال لما هو كالمزح.

﴿يَخُوضُوا﴾: الخوض: الإقتحام في الشيء ومنه خوض الماء.

﴿حَدِيثٍ﴾: كلام، وقال الراغب في مفرداته: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له حديث.

## التفسير

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ هذا الخطاب موجّه إلى المسلمين عامة، ينهاهم الله فيه عن مجالسة الكفار الذين يكفرون بآيات الله ويسخرون منها...

إنها حالة كان يعيشها الكفار ويمارسونها عملاً وسلوكاً، كانوا في مجالسهم يتناولون كلام الله فينكرون صدوره عن الله أو كانوا يشككون فيه أو يطعنون في مضمونها وكانوا أيضاً يستهزؤون بها ويسخرون منها وينتقصونها ويعيبونها.

إنها مجالس تعقد من أجل الحطّ من كلام الله وتشويهه، والتشويش عليه بقصد إبعاد الناس عنه وعن التأثر فيه...

إنه تزوير وتصحيف واعتداء على الحقيقة والواقع الصحيح...

وكان يحضر تلك المجالس بعض المسلمين وعلى الأقل من ينتسبون إلى الإسلام ظاهراً ـ كالمنافقين ـ وكانوا يستمعون إلى تلك الأقوال الكافرة والمقالات الباطلة وتلك السخرية والاستهزاء، فهنا ذكّر الله هؤلاء المسلمين أن حالتهم اليوم كحالتهم يوم كانوا في مكة حينما كانت قريش تعقد مثل هذه المجالس، وقد صدر النهي من الله للمسلمين يومئذ أن لا يجلسوا معهم ولا يقعدوا في مثل تلك المجالس...

ذكّر الله المسلمين وأعاد عليهم التوجيه الذي وجّههم إليه يوم كانوا في مكة ونهاهم عن مجالسة هؤلاء الكفار المشوّشون للحقيقة المشوّهون لها، ذكّرهم الله يوم كانوا في مكة بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾(١).

إن في القيام من مجالس الكفار نوع من احتجاج، بل دليل رفض لكلامهم وردٌ له وعدم موافقته عليه وهو أبسط أنواع الاحتجاج، وإلاّ فحق المقام أن يردّ عليه بما يناسبه ولو كان استهزاءً بهم وسخرية منهم كمقابلة بالمثل يضطر إليها المسلم في مواجهة الساقطين من الكفار...

نهى الله المسلمين عن الجلوس في تلك المجالس الكافرة.

﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ نعم إذا توقف الكفار عن

(١) الأنعام/ ٦٨.

الخوض فيما يخوضون فيه وعدلوا إلى غيره فلا تضرّ مجالستهم والقعود معهم، وهذا المنع بالإضافة إلى ما ذكرنا سابقاً فيه أيضاً نوع من تحصين للمسلمين لئلا يتأثرون بمجالسة هؤلاء الكفار، فإن الأليف يعدي والإنسان ابن بيئته يتأثر بمن حوله وما حوله...

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ هذا تعليل للنهي، وإنكم إذا اجتمعتم بهم في مجالسهم واستمعتم إليهم وإلى استهزائهم وكفرهم بآيات الله فتكونون مثلهم في الكفر والانحراف وتأخذون جزاءكم كما هو قدرٍ بقدر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ فكما اجتمع المنافقون في مجالس الكفار فسيجمعهم الله معاً في نار جهنم... اجتمعوا في الدنيا على الكفر والباطل والاستهزاء بآيات الله فسيجمعهم الله جميعاً في نار جهنم...

لم يتفرقوا في الدنيا بل اجتمعوا وائتلفوا ولم يطيعوا أمر الله فكانت عاقبتهم مجتمعة في هذه العاقبة المرّة الصعبة وهي نار جهنم...

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾: التربُّص: الانتظار.

﴿فَتْحٌ﴾: الفتح: الظفر والنصر...

﴿نَصِيبٌ﴾: حظ وسهم من النصر.

﴿نَسْتَحْوِذْ﴾: الاستحواذ: الاستيلاء والتغلب، يقال: استحوذ على كذا: إذا غلب عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

﴿وَنَمْنَعْكُم﴾: نحجبكم، وفلان ذو منعة: أي عزيز ممتنع على مَنْ يرومه..

﴿يَحْكُمُ﴾: يقضي ويفصل.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يوم يقوم الناس للحساب والفصل، ويعبر عنه يوم الدين.

﴿سَبِيلاً﴾: طريقاً.

﴿يُخَادِعُونَ﴾: الخداع: إبداء أمر خلاف ما يخفيه.

﴿كُسَالَىٰ﴾: جمع كسلان، والكسل: التثاقل عمّا لا ينبغي التثاقل عنه.

﴿يُرَاءُونَ﴾: الرياء: هو التظاهر بخير دون حقيقة، وفعل ذلك رياء: أي تظاهراً ليراه الناس دون ما في باطنه...

﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾: الذبذبة: التحريك والاضطراب، والمذبذب: المتردد بين أمرين، وأصله صوت الحركة للشيء المعلق.

﴿يُضْلِلِ﴾: الضلال: هو العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

## التفسير

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ هذه حالة من حالات المنافقين وموقف من مواقفهم المشينة إنهم يعيشون الانتظار والتوقف ويراقبون الأحداث ومسيرة الحياة عن كثب.

إنهم يعيشون بأجسادهم بين المسلمين ولكن أرواحهم تتطلع إلى المنافع والفوائد والثمرات...

فإن كان للمؤمنين فتح من عند الله حيث ينتصرون على الكافرين ويحققون إرادة الله فيما يحاربون ويقاتلون ويتم لهم الاستيلاء على الأعداء ويغنمون ويكسبون ينبري هؤلاء المنافقون يرفعون رؤوسهم من تحت الرمال ويصيحون بصوت واحد.

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ نقاتل عدوكم ونحاربه فأقسموا لنا من المغانم وأعطونا سهمنا وحقّنا منه...

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ وأمّا إذا دارت الدائرة على المسلمين فخسروا جولة وكان النصر المؤقت إلى جانب الكفار قالوا:

﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ كنا قادرين على أن نتغلب عليكم وننتقم منكم ونقتلكم ونصفّيكم من الوجود فأبقينا عليكم وخلّينا سبيلكم حتى انتصرتم.

﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نمنع وصول القتل إليكم والأذى الذي كان يمكن أن يصيبكم من المؤمنين حيث ثبتنا عزائمهم وأوهنّا قواهم وألقينا إليهم ما ضعفت به قلوبهم حتى انتصرتم عليهم فأعطونا سهمنا مما غنمتم واكتسبتم. . .

إن خطابهم إلى الكفار خطاب المدلّين الذين يرون أن لهم سهماً في انتصاراتهم حيث شكلوا لهم درعاً واقياً من ضربات المؤمنين وساعدوهم على الانتصار والفوز، فهم يطلبون أجرهم من الغنيمة والمكاسب التي حققها الكفار على حساب المؤمنين إنهم كالمنشار كيفما حركته أكل، فإن انتصر الإسلام طالبوا بالغنيمة وإن انتصر الكفر طالبوا بالغنيمة.

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فالله سبحانه لن يترك ما وقع في الحياة كما هو بدون حساب بل سيحكم ويفصل بين المؤمنين والمنافقين فيعطي المؤمنين جنات النعيم كما يعطي الكافرين جهنم وبئس المصير. . .

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ هذا تطمين لقلوب المؤمنين وتيئيس لأولئك المنافقين الذين يراهنون على الكافرين. .

نفى سبحانه أن يجعل للكافرين سلطة وطريقاً لهم على المؤمنين فلن يتغلبوا عليهم طالما أن المؤمنين على جادة الحق وضمن المنهج الإلهي والطريقة الإلهية. . .

إن سقوط المؤمنين في موقعة أو هزيمة في وقت ما أو انتكاسة لظروف آنية فما هي إلا وقتية محدودة ولكن في النهاية النصر والتمكين في الأرض لهم. . .

وحمل بعضهم ـ السبيل ـ على الحجة والدليل وأن حجة المؤمنين وأدلتهم لا تغلبها حجة الكافرين وأدلتهم. . .

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ هذه واحدة من أفعالهم القبيحة إنهم يظهرون الإيمان ويُخدعون به - بظنهم - والله هو الذي يعلم السِّر وأخفى وهو سبحانه سيجازيهم على خديعتهم ويتركهم وشأنهم حتى يوقفهم للحساب وينالهم العذاب. . .

فخداعهم معروف من حيث إظهار الإيمان وإبطان الكفر.

وخداعه سبحانه لهم أنه يجري عليهم ما أحبّوه وعملوا به ويتركهم وشأنهم فيسقطهم من عينه ويجازيهم على خداعهم فسمى سبحانه جزاءهم خداعاً بطريق المشاكلة لأن وبال خداعهم عائد إليهم. . .

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ هذه واحدة ثانية من أفعالهم الشائنة، إنهم إذا أرادوا الصلاة قاموا بتباطؤ وفتور لا عن رغبة وسرور. . . إنهم لم يعترفوا بها ولا بمن شرعها حتى يحبّوا القيام بها ولقاء الله من خلالها. . .

إن من يعرف أن الصلاة لقاءً وضعه الله بينه وبين العبد مضروب له من أجل مناجاته والحديث معه والخضوع له يشعر برغبة فيها ويتشوق لإقامتها ويشعر بالراحة في أدائها فهو ينتظر موعد اللقاء وبشوق أكيد يتحرك للقاء الحبيب.

أمّا من لم يعتقد بكل ذلك فيشعر بثقلها على نفسه ولا يتحرك نحوها إلاّ قهراً عنه من أجل أن يحفظ نفسه عن التلف ورأسه عن السقوط. . .

إنهم كسالى لا يؤدون الصلاة إلاّ خوفاً على أنفسهم وفزعاً من حد السيف أن يطالهم، فلذا يقومون إليها بفتور وتثاقل. . .

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ وما يقومون به من عبادات ومنها الصلاة لم يكن لله، بل من أجل أن يراهم الناس يقومون به فيبنون على إسلامهم ويحقنون بذلك دماءهم. . .

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يذكرون الله إلاّ في أوقاتٍ يرونهم فيها الناس وهي أوقات قليلة يقع فيها هذا الذكر القليل. . .

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هؤلاء أصحاب الأقنعة المتعددة

والوجوه المتقلبة. . . إنهم يتلونون تلون الحرباء ويشكّلون الطابور الخامس الذين لا يعيشون حالة الإيمان والطهر والصفاء ولا يعيشون حالة الكفر والانحراف والرذيلة. . .

لا يُعدّون من جملة المؤمنين، لأنهم يبطنون الكفر ولا يعدّون من الكافرين لأنهم يظهرون الإسلام. . إنهم شق ثالث يعيش النفاق لا يُحسبون على المؤمنين واقعاً ولا على الكافرين، فلذا لا يعترف بهم المؤمنون كما لا يعترف بهم أهل الكفر. . .

إنهم أرادوا أن يجمعوا فوائد وثمرات أهل الإيمان وأهل الكفر فعوملوا بضد ذلك وخلافه حيث نفاهم كل فريق من ساحته وطردهم عن مقامه فخسروا الدنيا والآخرة وذلك الخسران المبين. . .

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ من يتخلى الله عنه ويتركه وشأنه سيضل وينحرف ويخرج عن طريق الحق ولن يجد بعد هذا الضلال طريقاً إلى الهدى والفلاح. . .

عندما يتخلى الله عن الإنسان ـ لتمرد الإنسان نفسه على الحق وفقدان القابلية للصلاح ـ فلن يجد بعد ذلك سبيلاً إلى الهدى والعودة إلى الخير وطريق الله. . .

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: جمع ولي: من يتولى شؤونك والدفاع عنك ونصرتك.

﴿سُلْطَـٰنًا﴾: حجة.

﴿مُّبِينًا﴾: ظاهراً.

## التفسير

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ نهى سبحانه المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أصحاباً وأصدقاء يتولون نصرهم وودّهم وحبّهم ويتركوا المؤمنين جانباً وهم الذين يجب أن تكون المودة لهم والنصرة بهم والتعاون معهم...

إن طبيعة المؤمن بحكم هذا الإيمان ينشدُّ إلى أصحابه في الدين والعقيدة فيتخذهم أخلاَّء وأصحاباً وأهل مودة، فلو عكس القضية بأن تخلى عنهم واتخذ

الكافرين أولياء لكان ذلك تصرفاً ناشزاً ومخالفة سافرة لقواعد الإيمان ومستلزماته، ومن هنا ترتب الحكم على هذه المخالفة فقال سبحانه:

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ استفهام يراد به المبالغة وتهويل هَذه الإرادة لما يترتب عليها من أثر عظيم..

أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بالغة عظيمة بموالاتكم للكافرين فتستحقون العذاب الأليم، لأن هذه الموالاة تخرجكم من صفوف المؤمنين وتلحقكم بالمنافقين فتأخذون حكمهم وينالكم عقابه المعدّ لهم...

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

## اللغة

﴿ٱلدَّرْكِ﴾: الدرك: كالدرج لكن الدرج يقال اعتباراً بالصعود والدرك اعتباراً بالحدور والدرك: أقصى قعر البحر.

﴿ٱلْأَسْفَلِ﴾: السُّفل: ضد العلو، وأسفل: ضد أعلى.

﴿نَصِيرًا﴾: معيناً.

﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾: الصلاح: ضد الفساد، وأصلح عمله: إذا أزال عنه الفساد.

﴿وَٱعْتَصَمُوا۟﴾: استمسكوا، والاعتصام بالشيء التمسك به.

﴿وَأَخْلَصُوا۟﴾: من خلص، والخالص كالصافي إلاّ أن الخالص ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه.

﴿يُؤْتِ﴾: يعطي.

﴿أَجْرًا﴾: ثواباً.

﴿شَكَرْتُمْ﴾: الشكر: تصوّر النعمة وإظهارها ويضاده الكفر الذي هو نسيان النعمة وسترها.

## التفسير

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ هذه عاقبة، هذه الفئة الضالة التي اختفت وراء النفاق وراحت تكيد في السّر للمسلمين وتزرع بذور التشكيك في قلوبهم...

إنها فئة شريرة خطرها قد يكون أعظم من خطر الكافرين لأنها تعيش في وسط الجسد الإسلامي وتعرف كل نقاط الضعف فيه فتنقلها إلى الأعداء، ومن هنا يكون خطر الداخل أشدُّ وأعظم من الخطر الداهم من الخارج... إن الله يتهددها ويتوعدها بهذا العذاب الشديد...

إنها فئة بمقدار جرمها وخطرها وأثرها الكبير في الضرر يجب أن تأخذ هذا الموقع من النار...

إنها في أسفل دركات النار.. وكما أن الجنة درجات يرتقي أهل الفضل والإيمان والعمل الصالح إليها كل واحد بحسب عمله حتى يصل بعضهم إلى أرفع درجاتها، ففي المقابل يتسافل أهل الشر حتى تصل الأمور بالمنافقين إلى احتلال قعر النار حيث الدرك الأسفل منها...

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ إنهم فقدوا كل معين يعينهم وكل ناصر ينصرهم أو ينتصر لهم... فالمصير محتوم سقطت أمامه كل الشفاعات والوساطات وكل المعونات... فقدوا الناصر والمعين واستقر بهم المقام في الدرك الأسفل من النار.

ولكن الله لا يسدّ أبواب رحمته عن خلقه بل يترك لهم ولو بصيص أمل لعلهم يرجعون، فلذا ترك باب التوبة الصادقة أمامهم وهذا ما أخبر به.

فقال تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ شرطَ الله لقبول توبة أهل النفاق أربعة شروط متى استجمعها التائب من النفاق التحق بركب المؤمنين وعُدَّ معهم وفيهم وهذا هو الشرط الأول وهو أن يقلع عن هذه الحالة ويهجرها ويبتعد عنها...

١ - ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ إنه الدواء لداء النفاق... التوبة المطهرة من إثم الماضي وعاره وكل ما يحمل من آثام ومعاصٍ وانحرافات... التوبة التي تغسل القلوب من مرض النفاق وتضع هذا الإنسان على الطريق السليم الموصل إلى الراحة وجنة النعيم...

٢ - ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ يرممون ما أفسدوا ويصلحون ما خرّبوا... إنهم يرجعون إلى حركة حياتهم وما فعلوه.. وإلى نواياهم وخواطر قلوبهم فيصلحونها وفق البرنامج الإلهي فلا يحملون حسداً ولا يخططون لتفجير الحالة الإسلامية من الداخل كما هو دأبهم، وهكذا يدخلون إلى كل خفقات قلوبهم فيصلحونها كما أراد الله وأحب...

٣ - ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ تمسكوا بالله والتجأوا إليه وعملوا بما في كتابه... الاعتصام بالله.. أن يتمسك بدينه وكتابه وبما جاءت به رسله.

٤ - ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ حوّلوا طاعاتهم وكل أعمالهم خالصة لوجه الله دون رياء أو نفاق أو شوب شرك.. إخلاص الدين لله أن يُوْقع المؤمن كل عباداته ومعاملاته قربة إلى الله لا يرى غير الله فيها.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من يفعل ذلك من المنافقين يخرج من دائرة النفاق وأهله ويصبح مع المؤمنين في الدنيا ويصبح معهم أيضاً في الآخرة لوحدة الصفة التي يحملونها جميعهم.

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذه بشرى للمؤمنين ووعد إلهي لهم بأنه سيعطيهم أجراً عظيماً، والقدر المتيقن فيه الجنة ولك أن تحملك الاحتمالات

إلى غيرها ولكن لن تصل إلى ذلك التحديد لأن الأجر إذا وصفه الله بالعظيم وكان منه فلن تقدر على تقديره أو الإحاطة به. . .

﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ الاستفهام يفيد النفي بأبلغ تعبير، فإنه سبحانه الغني المطلق الذي لا يتأثر بمعصية العاصين حتى يتشفّى منهم أو ينتقم أو يثأر أو يريد جلب منفعة لنفسه أو يدفع ضرراً عنها. . .

والعذاب على قدر الجناية والانحراف، فالنفاق والكفر يستحقان النار والعذاب الأليم والشفاء منهما يستدعي الإيمان وجزاؤه الجنة والخلود في دار النعيم. . .

يبقى أن نذكر أنه سبحانه قدّم الشكر على الإيمان ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ وقد ذكروا في جواب ذلك عدة وجوه أهمها:

١ ـ إنّما قدّم سبحانه الشكر لأن الناظر يدرك النعمة أولاً فيشكر شكراً مبهماً ثم يدقق ويفحص فيدرك المنعم على حقيقته.

وبعبارة أخرى: أن النعمة تستدعي شكر منعمها وهذا يستدعي البحث عنه والإيمان به: فهي طريق إلى الإيمان فلذا قدّمها. . .

٢ ـ ذهب بعضهم إلى أن الواو هنا حالية ويصبح المعنى بدون تكلف تأويل ﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾ حال كونكم مؤمنين فلن يعذبكم أبداً، فالنفي منصبٌ عليهما معاً حينما يستجمعهما المؤمن. . .

٣ ـ قالوا إن الواو لا تفيد الترتيب وعليه فأصل السؤال يسقط ولا يبقى له من مبرر. .

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ إنه سبحانه يعلم مَنْ شكره فيعطيه أجر شكره وثوابه. . يعطي الأجر العظيم على العمل القليل. . . إنه سبحانه يعلم بالشاكرين كما يعلم بالمؤمنين فيعطي كلاً بما يستحقه.

قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿ٱلْجَهْرَ﴾: الجهر بالشيء: الإعلان به وإظهاره، وجهر بالقول: رفع صوته به.

﴿ٱلسُّوٓءِ﴾: كل ما يغمّ الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية.

﴿تُبْدُوا۟﴾: تظهروا.

﴿خَيْرًا﴾: الخير: ما يرغب فيه الكل، الفضل، الشيء النافع.

﴿تُخْفُوهُ﴾: أخفى الشيء: ستره ولم يظهره.

﴿تَعْفُوا۟﴾: العفو: هو التجافي عن الذنب، وعفوت عن ذنبه: إذا تجاوزت عنه ولم أؤاخذه به.

## التفسير

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ ذكر سبحانه فيما تقدم المنافقين وبيّن خططهم وفضح أساليبهم الملتوية وبيّن هنا أنه لا يحب إظهار

المعايب والفضائح إلاّ في صور معينة وأحوال خاصة منها: ما لو كان المجاهر بالسوء وذكر المعايب مظلوماً فحق له إبانة عيب الظالم وفضحه... وعدم حب الله للجهر بالسوء كناية عن بغضه له والغضب على من يتعاطاه.

الجهر بالسوء هو إعلانٌ وإظهارٌ للعيوب وكشفٌ لها، وإظهار العيوب هذه تسيء للحالة الاجتماعية من حيث يتفشى هذا المرض ويؤدي إلى زعزعة الثقة بالناس وزرع القلق في النفوس ويفقد الجو العام طهره وصفاءه وأجواء الثقة التي يجب أن تكون متبادلة بين أفراده...

وأيضاً فللفرد حصانة خاصة جعلها الله له لا يجوز هتكها وإزالتها وكشف العيوب أمام الناس...

إن معنى أن تغتاب الناس أو تنمّ بينهم أو تنقل الفاحشة وتذيعها في مجتمعهم معنى ذلك أنك تهتك هذه الحصانة المضروبة عليهم وبذلك تقتل شخصيتهم المعنوية التي توفّر لهم الاحترام والتقدير وترفع من شأنهم وتحفظ لهم وجودهم...

إن معنى أن تهتك شخصاً بإذاعة الفاحشة وإلصاقها به أو الكذب عليه أو إذاعة ما يشينه معنى ذلك أنك تقتله وتساهم في القضاء عليه، وهذا أمر لا يحبه الله ولا يريده تشريعاً وتقنيناً وعلى كل الحالات إلاّ في بعضها...

وأيضاً الجهر بالسوء يسيء إلى التشريع نفسه من حيث أنه إذاعة للمحرّم الذي منع الله عن إبدائه وإعلانه، فعندما ينتشر ويذاع تتكسر هالة التشريع بالتدريج وبذا تهون المعصية وتخف حرمتها وأثرها في عيون الناس وقلوبهم...

نعم ورد الاستثناء هنا في هذه الآية لمن ظُلم.. فإن المظلوم يحق له ويجوز أن يشرح ظلامته ويرفعها أمام أنظار الناس...

إن هذه الحالة التي لحقت المظلوم يجب أن نعطي صاحبها حق الدفاع عن نفسه ولا نجمع عليه الظلم والمنع من الإفصاح عنه لكي يرتدع الظالم وينتظر المظلوم، فلعل يداً تمتد إليه فتنقذه من هذا الظلم وتكف يد الظالم عنه...

إنها حالة استثنائية ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فيحق له أن يجهر بالسوء الذي وقع عليه من الظالم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ فالله يسمع القول كل قول من الظالم والمظلوم.

﴿عَلِيمًا﴾ بكل فعل ونية وسيجازي كل واحد على ما فعل ونوى. . .

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾ إن تظهروا الخير من فعل الطاعات أو الإحسان إلى الناس أو الصدقة عليهم أو غير ذلك من أبواب المعروف مما فيه إعزاز الدين أو الترغيب بالخير أو مما يكون الإظهار فيه أرجح لدواعٍ دينية.

﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ لدواعي يريدها الله كما لو كان ستر الصدقة للابتعاد بها عن الرّياء والنفاق أو ستر إعانة الناس من أجل أن تبقى النية خالصة لوجه الله أو صيانة لماء وجه المؤمن من الإذلال أو غير ذلك. . .

﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ أي تصفحوا عن قبيحٍ وإساءةٍ عملها معكم أحد الناس. . .

والعفو عن السيئة ـ أو السيئات ـ مندوب إليها مرغوب فيها لأنها تحكي عن نفسية طيبة وعمل كريم يمارسه صاحب العفو ـ فمن جهة ـ يمارس عملاً مندوباً أحبّه الله ورغّب الناس بالقيام فيه.

ومن جهة أخرى: يعطي درساً إلى المعفو عنه يردّه إلى جادة الصواب ويحسسه بقيمة هذا الفعل النبيل خصوصاً إذا كان عاقلاً فإنه يرتدع عن كل سيئة ويمتنع عن فعل كل قبيح لأن العفو إنما يكون مع القدرة على الاقتصاص بالمثل. . .

والعفو يجب أن يراعى فيه المصلحة فإن كان ينفع في ردع المسيء وإعادته إلى جادة الصواب ويشعره بعظيم ما ارتكب من الانحراف فهو العفو المندوب إليه المرغوب فيه.

أمّا إذا كان العفو يُطمعه في التمادي في السيئات ويجرّه إلى زيادة القبائح فهنا

يصبح العفو كماء السماء حينما ينزل في فم الأفاعي يتحول إلى سم زعاف فلا يُندب إليه والحالة كذلك بل يؤخذ بأشد العقاب ليعود إلى الحق ويرعوي إليه. . .

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ هذا ترغيب في العفو من حيث أنكم إذا قمتم بالعفو فقد اتصفتم بصفة من صفات الله وهو القادر على أخذ المسيئين واستئصال شأفتهم ومع ذلك فهو يعفو عنهم في كل وقت وحين. . .

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١)﴾.

## اللغة

﴿يُفَرِّقُوا﴾: الفرق: يقارب الفلق، لكن الفلق للانشقاق، والفرق: للانفصال والتفريق، يقال في تشتيت الشمل والكلمة.

﴿يَتَّخِذُوا﴾: الأخذ: حوز الشيء وتحصيله، والاتخاذ: افتعال ويجري مجرى الجعل.

﴿سَبِيلًا﴾: طريقاً.

﴿حَقًّا﴾: واجباً ولازماً أو ثابتاً.

﴿أَعْتَدْنَا﴾: هيأنا وأعددنا.

﴿مُّهِينًا﴾: مذلاً.

## التفسير

وحدة الرسل:

هذه الآية تنقل ما وقع فيه أهل الكتاب من انحراف صارخ يناقض الحقيقة الإيمانية المستمدة من الإيمان بالله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾.

إنها طريقة منكرة من الإيمان يرفضها الله ويعدّ من يعتقد بها أو يعمل بمضمونها كافراً حقيقة...

إن من الناس من يكفر بالله وبرسله فيجحد وجود الله وينكره كما ينكر بعث الأنبياء والرسل وهذا من أظهر أنواع الكفر وأوضحه...

ومن الناس من يفرّقوا بين الله ورسله فيؤمنون بالله ويعتقدون بوجوده ولكنهم يرفضون الإيمان بكل رسله بل يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض...

إن الإيمان ببعض الرسل دون بعض لا ينطلق عند من انتحله من أدلة ملزمة قاهرة أو عن عجز في إثبات نبوة هذا البعض، وإنما كان للهوى المتبع والعناد والإصرار على التمرد والعصيان...

إن الكفر ببعض الأنبياء كما هو حال اليهود بالنسبة إلى عيسى عليه السلام أو حال النصارى بالنسبة إلى محمد لم ينطلق إلاّ من التعصب والعناد، وإلاّ فإن الأدلة والبراهين قائمة على بعثتهما ورسالتهما ونبوتهما بأجلى وأوضح ما يكون البيان، فعندما اتخذوا الرفض لهما كان ذلك رفضاً لإرادة الله ومشيئته وما أحب وأراد وهذا هو الكفر...

إن وحدة الرسل تستدعي الإيمان بهم جميعاً... إنهم وحدة متكاملة أرسلهم الله جميعاً وإنكار واحد منهم يستدعي إنكار الجميع ورفض واحد منهم يستدعي

رفض الجميع وردٌ واحد منهم يلزمه ردُّ الجميع.. إن وحدتهم تنثلم بعدم الإيمان بواحد منهم، ومن هنا يجب الإيمان بهم جميعاً...

إن وحدة المرسِل يستدعي وحدة الإيمان بالرسُل جميعاً...

إن الوسطية بين الكفر والإيمان غير موجودة في العقيدة...

الإيمان ببعض الأنبياء والكفر بالبعض الآخر الذي ذهب إليه هؤلاء واتخذوه طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر يساوي الكفر، بل هو الكفر الحقيقي...

إن الإيمان بالله يستدعي الإيمان بكل الأنبياء جملة واحدة.

ومن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض يصفهم الله بقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ أي حقاً وصدقاً قد ثبت كفرهم وأصبحوا كافرين حقيقة ويقيناً ثم رتب لهم جزاء كفرهم بقوله تعالى:

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ هيأنا وأعددنا لهم جزاء كفرهم عذاباً مذلاً مخزياً يهينهم مع الخلود في النار.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يُفَرِّقُوا﴾: الفرق: يقارب الفلق لكن الفلق للانشقاق، والفرق للانفصال والتفريق، يقال في تشتيت الشمل والكلمة.

﴿يُؤْتِيهِمْ﴾: يعطيهم.

﴿أُجُورَهُمْ﴾: ثوابهم.

## التفسير

بعد أن ذكر سبحانه حال المفرّقين بين الله ورسله وهم الذين يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون بالبعض وحكم بكفرهم وأوعدهم بالعذاب المهين أردفه سبحانه بالوعد الحسن لمن آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم...

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ اعتقدوا بوجوده وبكل صفات الكمال له.

﴿وَرُسُلِهِ﴾ آمنوا بكل رسل الله وأنهم مبعوثون من قبل الله لحمل كلامه وتبليغه إلى الناس...

﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ لم يكفروا ببعض ويؤمنوا ببعض بل آمنوا بالجميع واعتقدوا بهم أنهم سفراء من قبل الله لهذا الإنسان، ينقلون كلامه ويبلغون رسالته.

﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ فالله يتعهد لهم بإيصال ما يستحقونه من الثواب على إيمانهم وأعمالهم.

وعبّر سبحانه: ﴿أُجُورَهُمْ﴾ للدلالة على استحقاقهم لها.

والتعبير بـ﴿سَوْفَ﴾ الدالة على المستقبل للدلالة على أن الأجر حاصل قطعاً وإن كان في المستقبل...

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

## اللغة

﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارى ونسبوا إلى الكتاب الإلهي تشريفاً وتنبيهاً.

﴿تُنَزِّلَ﴾: النزول في الأصل انحطاط من علو، وإنزال الله نعمه: إعطاؤهم إياها بنفسها، تنزل علينا: تأتينا من السماء.

﴿أَرِنَا﴾: من رأى: التي تعني إدراك المرئي بالعين.

﴿جَهْرَةً﴾: عياناً.

﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: جمعها صواعق: وهي نار تسقط من السماء في رعد شديد.

﴿ٱلْعِجْلَ﴾: ولد البقر.

﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الدلائل الواضحة.

﴿سُلْطَٰنًا﴾: حجة وبرهاناً.

﴿مُّبِينًا﴾: ظاهراً واضحاً.

﴿وَرَفَعْنَا﴾: من الرفع: يقال للأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها.

﴿ٱلطُّورَ﴾: اسم للجبل الذي كلّم الله عليه موسى، وقيل: اسم لكل جبل.

﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾: الميثاق: العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد.

﴿سُجَّدًا﴾: من السجود: وأصله التذلل والخضوع، وأمّا في الشريعة فهو الركن المعلوم المتقوم بوضع الجبهة على الأرض.

﴿لَا تَعْدُوا﴾: من عدا، والعدوان: هو التجاوز ومنافاة الالتئام فإذا كان بالقلب يقال له: عداوة وتارة يكون إخلالاً بالعدالة في المعاملة، فيقال له: عدوان، والاعتداء: مجاوزة الحق.

## التفسير

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أهل الكتاب هم اليهود والنصارى وقد نسبهم الله إلى الكتاب (التوراة والإنجيل) ليذكّرهم بصلتهم بكلام الله وأن من حقهم والواجب عليهم أن يحفظوا هذا الشرف ولا يتنكبوا عنه أو يتنكّروا لمضمونه أو يبتعدوا عمن يشترك معهم في كتاب إلهي أنزله الله...

وهؤلاء «أهل الكتاب» لم يرعوا حق هذه النسبة! فعندما جاء النبي محمد ﷺ من عند الله يحمل كلامه ويبلّغهم أنه رسول من عنده أنكروا المعجزات ورفضوا البينات وأصرّوا على العناد... إنهم قرروا من أول يوم قرع سمعهم خبر نبوة النبي محمد ﷺ أن يقفوا في وجهه ويكفروا به ولا يصدقوا بشيء مما جاء به...

لم تنقصهم البيّنات ولم تعوزهم الحجج والإثباتات على صدق ما جاء به

ولكنهم رفضوا الإيمان به عناداً وجحوداً وكفراً، ولذا كانوا يقترحون عليه تعنتاً وتحدياً أن يأتيهم بما يقترحون ويريدون وهم لا يريدون من وراء ذلك إيماناً وتصديقاً ـ ولو أرادوا حقيقة ذلك لاستجاب الله لهم ـ ولكن علم منهم الافتراء والكذب والتعنت وعدم الإيمان، فلذا ذكّرهم بفعل آبائهم وممارساتهم الخاطئة مع أنبيائهم وأنهم على سيرتهم وطريقتهم لم يختلف إلاّ الزمان والأشخاص. . .

إن يهود المدينة وبكل صلافة ووقاحة يطلبون من النبي محمد ﷺ أن يصعد إلى السماء ويأتيهم بكتاب يبيّن لهم ما يقترحون ويطلبون. . .

إنه سؤال يدلل على عدم فهمهم للرسالة وما يراد منها. . .

والله سبحانه يتولى الردّ عليهم بتذكيرهم بما فعل آباؤهم وهم امتداد لأولئك الذين تعنتوا في طلب المعجزات وسألوا نبيهم أكبر من هذا الطلب. . .

إن الحاضرين اليوم يمتدون بطلباتهم إلى آبائهم وأجدادهم وقد سار الأبناء مسيرة الآباء وانحدر الصغير عن الكبير والفرع نبت على ما نبت عليه الأصل. . . إنها جبلة واحدة وطبيعة واحدة حكمت الآباء من قبل وهي نفسها تحكم الأبناء اليوم وستبقى تحكم من يأتي منهم إلى آخر يوم. . .

ولذا يذكّرهم بفعل آبائهم تسلية منه للنبي ﷺ وتخفيفاً لما يلاقيه منهم، وكذلك لعلّهم يلتفتون إلى خطأ الأسلاف فيعيدون النظر في اقتراحاتهم الساقطة. . .

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ فلا تعجب يا محمد! أو تستغرب من تعنت الحاضرين فقد سأل آباؤهم موسى أكبر مما سألوك وأعظم وأخطر. . .

ونسبة السؤال إلى الحاضرين ـ فقد سألوا موسى ـ وإن كان السائلون آباءهم لأن الأبناء ارتضوا فعل آبائهم وتبنّوه وقبلوا به فأُسند السؤال إليهم. . .

والذي سأله آباؤهم لموسى ذكره الله بقوله حاكياً قولهم:

﴿فَقَالُوٓا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ يا موسى! أرنا الله رؤية معاينة، دعنا نرى الله بأعيننا كما نراك ونرى الأشياء. . .

إنه سؤال عظيم يدلل على جهلهم بالله وبصفاته... إن أفكارهم قاصرة عن إدراك الله فهم كأطفال صغار يتحركون في ضمن الماديات وما تقع عليه الحواس فحسب...

إنه سؤال فيه تعنت ورفض لمعجزات موسى وما جاء فيه من البينات... إنهم رفضوا التوراة والمعجزات واقترحوا عليه أن يروا الله ليؤمنوا به فكذلك لا استغراب في أن يطلب الحاضرون اليوم من أبنائهم من النبي أن ينزل عليهم كتاباً من السماء...

وبعد أن يذكر الله تعنت آبائهم وما طلبوه من موسى عليه السلام لم يترك ذكر عقابهم تخويفاً للحاضرين أن يطالهم من العقاب ما طال آباءهم.

فقال سبحانه:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أنزل الله عليهم ناراً من السماء فأهلكتهم بسبب ظلمهم الذي تضمنه سؤالهم أن يروا الله جهرة قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وهل هناك أعظم ظلماً ممن جهل الله وجعله جسماً مادياً فقيراً ممكناً وأرادوا رؤيته؟!...

وبعد أن أهلكهم الله أحياهم وكان من حقهم التوبة والإنابة والطاعة والالتزام، ولكنهم مَرَدوا على العصيان والسقوط فعادوا إلى فعل آخر شائن ومخزٍ ومهين.

يقول تعالى:

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ وهذه هي الفعلة الأخرى الشائنة والشنيعة، إنهم عبدوا العجل وتوجهوا إليه من دون الله من بعد ما جاءهم موسى بالمعجزات التي تثبت صحة نبوته وما يدّعيه من السفارة الإلهية...

إنهم قوم رأوا بأم أعينهم المعجزات والدلائل الدالة على نبوة موسى عليه السلام ولكنهم مع ذلك عبدوا العجل ولم يستطيعوا تركه أو التخلي عنه بحكم تربيتهم والبيئة التي يعيشون فيها، إنهم تركوا الله مع قيام الأدلة على توحيده وانحصار

العبادة فيه تعالى ثم عدلوا إلى عبادة العجل، ولكن من رحمة الله بهم وعظيم عطفه وشفقته عليهم عفى عنهم لمّا تابوا وعلم منهم صدق توبتهم عندما أمرهم أن يقتلوا أنفسهم ففعلوا فعفى عن الباقين مع أنهم يجب أن يموتوا لكن لرحمة الله بهم عفى عنهم..

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أعطينا موسى حجة ظاهرة بيّنة تلزمهم ولا يستطيعون الهروب منها، وهي ما أعطاه الله من المعجزات كالعصا واليد البيضاء وفلق البحر، ومع ذلك لم يؤمنوا به، بل استمروا في تعنتهم وانحرافهم، وكذلك أبناءهم اليوم يقفون منك يا محمد! نفس الموقف مع وضوح الحجة وما أعطاك الله من المعجزات والبراهين الدّالة على صدقك وصدق ما جئت به...

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أخذوا على أنفسهم أن يقبلوا ما في التوراة ويعملوا به، وعندما جاءتهم تلكؤوا وتأخروا وتأففوا وتذمّروا فرفع الله فوق رؤوسهم الجبل إنذاراً لهم بالعذاب الأليم وهدّدهم بإسقاطه عليهم..

إنها من جملة هناتهم وتمردهم وأنهم قوم لا يفون بميثاق ولا يؤخذون بمواعيد بل ينقضونها كلما لاحت لهم فرصة أو قدروا على ذلك...

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ وهذه أيضاً من مخالفاتهم التي مارسوها مع موسى وكيف وجّه إليهم نصيحة لخلاصهم من الذل والهوان وأرشدهم إلى منازل العز والكرامة فأبوا أن يكونوا من أهل إطاعة الله وأهل الخير... إن الله نصحهم لغفران ذنوبهم أن يدخلوا باب (حطة) بتذلل وخشوع وخضوع فلم يقوموا بذلك فلزمتهم اللعنة ولزمهم سوء المصير...

وهذا المعنى ذكرته آيات البقرة في قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾[١]. إنهم لم

---

(١) البقرة/٥٨ ـ ٥٩.

يطيعوا أمر الله ويدخلوا باب حطة سجداً بل رفضوا ذلك وبدّلوا كلام الله بقولهم وهم يزحفون «حبة حنطة» استهزاء وسخرية بأمر الله. . . إنها طبيعة يهودية اعتادت الخبث ونشأت عليه، فهي مستمرة في ممارسته يعيش هذه الطبيعة الأحفاد كما عاشها الأسلاف من قبل. . .

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ﴾ وهذه من مخالفاتهم الساقطة، وهي أن الله حرّم عليهم صيد الحيتان يوم السبت فاحتالوا في حبسها في ذلك اليوم ثم اصطادوها متأخراً وهذا ما أخبر به الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾[(١)].

إنه سبحانه نهاهم عن صيد الحيتان يوم السبت فاعتدوا على حرمة هذا المنع فكان أن عاقبهم الله بالمسخ فمسخهم قردة ذليلة. . .

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أخذ الله عليهم أن يأخذوا التوراة بقوة ويعملوا بها ولكنهم عندما جاءتهم نقضوها ونكثوا العهد وخالفوا الوعد.

إنهم قالوا سمعنا وأطعنا ولكنهم فيما بعد تمردوا وعصوا فطبع الله على قلوبهم وأخذهم بشدّة وبالعذاب الأليم. . .

---

(١) البقرة/٦٦.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿نَقْضِهِم﴾: النقض: انتثار العقد من البناء والحبل وهو تفكيكه وحلّه ومنه أُخذ نقض العهد والميثاق لأنه يتحلل منه ويخرج عنه.

﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾: الميثاق: العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد.

﴿غُلْفٌۢ﴾: الغلف: جمع أغلف: وهو المتغطي بالغلاف أي الغطاء، أو جمع غلاف: وهو الظرف فكأنهم أوعية للعلم ممتلئة فلا حاجة إليه.

﴿طَبَعَ﴾: الطبع: الختم.

﴿مَرْيَمَ﴾: هي مريم بنت عمران أم المسيح عيسى عليه السلام.

﴿بُهْتَـٰنًا﴾: البهتان: الكذب الذي يُتحير فيه من شدته وعظمته، والبهتان: اتهام الآخر بعيب ليس فيه.

﴿صَلَبُوهُ﴾: الصلب: تعليق الإنسان وشدّ صَلبه للقتل، والصليب: أصله الخشب الذي يُصلب عليه.

﴿شُبِّهَ﴾: وقع الشبه بين عيسى والمقتول الذي صلبوه.

﴿ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾: تنازعوا وتجادلوا.

﴿ٱتِّبَاعَ﴾: إتبع أثره: إذا اقتفى أثره.

﴿ٱلظَّنِّ﴾: دون اليقين وفوق الشك الذي يعني احتمال تساوي الطرفين...

﴿يَقِينًۢا﴾: اليقين: هو الصورة التي يصل فيها الإنسان في الأمر إلى نفي احتمال الخلاف.

﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾: الرفع: يقال للأجسام إذا أعليتها عن قعرها.

﴿عَزِيزًا﴾: العزة: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب من قولهم: أرض عزاز: أي صلبة.

﴿حَكِيمًا﴾: الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل ومن الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام.

﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾: يصدّق به ويعتقد.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: يوم يقوم الناس للحساب.

﴿شَهِيدًا﴾: الشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يشهد عليهم ويثبت بقوله كل ما يقول...

## التفسير

هذه الآيات تكشف سوء أعمال اليهود وتعدّد الانحرافات التي قاموا بها خلال مسيرتهم مع أنبيائهم... إنه سجل طافح بالتمرد والعصيان والجرائم والتعديات... إنهم لُعنوا وطُردوا من رحمة الله بسبب هذه الأمور التي ارتكبوها وخالفوا أمر الله فيها، وهي:

١ ـ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ بسبب أنهم نقضوا ما التزموا به من العمل بالتوراة إنهم أعطوا عهودهم أن يعملوا بالتوراة ثم لم يلبثوا أن خالفوا ذلك وتمرّدوا عليه فاستحقوا اللعنة ونالهم ما نالهم من العذاب الأليم...

٢ ـ ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جحودهم الآيات والمعجزات التي دلّت على نبوة الأنبياء والمثبتة لرسالاتهم، أو كفرهم بكلام الله من حيث حرّفوا الكلام عن مواضعه أو جحدهم للقرآن مع ما فيه من أدلّة تثبت صحته وصحة نبوة من جاء به.

٣ ـ ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهذه واحدة من مخازيهم التي أوجبت طردهم ولعنهم... إنها عادتهم الجارية مع أنبيائهم حيث قتلوهم ظلماً وعدواناً لأنهم دعوهم إلى الله وإلى عبادته وترك كل انحراف واعتداء وفسق وفجور، وهذا ما حصل مع زكريا ويحيى عليهما السلام وغيرهما من أنبياء الله المرسلين...

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لتأكيد قبح هذه الجريمة وفظاعتها وإلاّ فإن قتل الأنبياء جريمة بحد ذاتها وهي بغير حق قطعاً وإنما جيء بها لتعظيم فعلهم وتهويل ما أقدموا عليه...

٤ ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ قلوبنا في أغشية فهي مغطاة فلا تستقبل ما تقول ولا تفكر بما تقول... إنهم ادعوا عدم الفهم وتذرّعوا بهذا لرد كلامه وعدم الاستماع إليه والقبول له...

إنها حالة صدّ قبيحة وإغلاقٍ لباب الاستفادة، فهُم مصمّمون على الرفض

وعدم الإيمان مهما كان الثمن ولو كان بهذه الدعوة السفيهة التي تذرّعوا بها. . .

ولكن الله لم يترك هذا الإدعاء منهم ولم يهمل الإجابة عليه.

فقال تعالى:

﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ليس كما ادعى اليهود من أن قلوبهم غلف، فلذا لا تتفاعل مع كلام الله أو تستجيب له ليس الأمر كذلك، بل عدم استجابتهم لأن الله تخلّى عنهم وحجب أنوار الهداية عن بصيرتهم بسبب كفرهم. . .

إنهم كفروا بالله وبأنبيائه وبكتبه، فهذا سبب حجب أنوار الهداية عنهم فتخلى سبحانه عن تسديدهم فوقعوا في هذا الضلال. . . إن كفرهم هو وراء ترك الله لهم فقبّحهم الله لا يؤمن منهم إلا القليل وهذا ما صدّقه الواقع وشاهد الحال، فإن اليهود في المدينة استمروا على عدائهم ولم يؤمنوا فأجلاهم النبي عنها وطردهم منها. . .

٥ - ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ ولجحودهم المطلق وإنكارهم لقدرة الله وغناه وصفاته التي بها قوام ذاته، أو لكفرهم من حيث جحودهم للأنبياء ومنهم النبي محمد المؤدي إلى إنكار المرسِل والتشكيك فيه. . .

٦ - ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ وهو ما رموها فيه من الزنا حيث اتهموها بيوسف النجار وكان رجلاً صالحاً. . .

ولا شك أن رمي قدّيسة طاهرة كمريم عليها السلام بالزنا كذب قبيح يتحيّر فيه السامع ويندهش لهذه الفرية العظيمة، وحقّ أن يقال عنه أنه بهتان عظيم، لأن وصف الطاهرة بالعاهرة يحيّر الإنسان ويُسقط ما في يده. . .

٧ - ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وهذه أيضاً من مخازيهم. . إنهم يتبجحون بأنهم قتلوا المسيح. . إنهم يعلنون قتله ويجهرون

بذلك ويفتخرون بهذا الشرف العريض لهم.. إنها النفسية الشقية المريضة التي تحكي واقع ما يتمنونه ويرغبون فيه...

ووصفهم عيسى ابن مريم بأنه ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إما استهزاء منهم ونظيره قول فرعون في حق موسى عليه السلام ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[1] وأما أن يكون استئنافاً من الله بمدحه. وعلى كل حال لم يترك الله مقولتهم تأخذ مجراها ولم يتركهم يحققون ما يتمنون بل كذّبهم في قولهم ونفى قدرتهم على ذلك فقال ردّاً عليهم.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ نفى سبحانه مقولتهم ورفض دعواهم وكذّبهم فيما يذهبون إليه...

إن الحقيقة الناصعة أنهم ما قتلوا المسيح وما صلبوه ولم يجر عليه موت في محاولتهم الفاشلة حيث أرادوا ذلك فألقى الله شبهه على أحد المنافقين فأخذوه وقتلوه فظنوا أنه المسيح عليه السلام... إنهم قتلوا من يشبهه دون أن يقتلوا المسيح نفسه...

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ إن الذين اختلفوا في أمر عيسى عليه السلام فقال بعضهم أنه نبي وقال آخرون أنه كذّاب وقال غيرهم غير ذلك، هؤلاء اختلفوا فيما بينهم في شأن عيسى عليه السلام وأنه هل وقع عليه القتل أو لا وما ذهبوا إليه من قتله إنما هو ظن ظنوه دون أن يتيقنوا منه أو يقطعوا فيه...

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ هذا تأكيد لنفي القتل عن عيسى عليه السلام فلم يقتل يقيناً وقطعاً بل رفعه الله إليه، رفعه بجسده فضلاً عن روحه.

وهذا الرفع رفع تشريف حيث اختار الله له محل إقامة كريم حفظه فيه من شر الأعداء وأعدّه ليخرج في آخر الزمان عندما يظهر الإمام المهدي المنتظر عليه السلام فيعود معه ويصلي خلفه...

---

(١) الشعراء/ ٢٧.

من هنا يذهب المسلمون في عقيدتهم إلى أن المسيح عليه السلام لم يُقتل ولم يصلب بل رفعه الله إليه وهذا مخالف في جوهره لما يذهب إليه النصارى من عقيدة الصلب التي هي من أسس عقيدتهم المسيحية...

وما ذهب إليه المسلمون في عقيدتهم أشرف وأفضل وأعظم مما ذهب إليه النصارى خصوصاً لمن يقرأ ما جرى عليه وما كان يتكلم به مما يجعله إنساناً مستضعفاً تمارس عليه المظالم والعذابات ولا يقدر على دفعها مع الاستغاثة والحزن والأسى...

إن المسيح عليه السلام نبي من أنبياء الله العظام ومن أُولي العزم من الرسل حملت به أمه من دون ذكر، فكان معجزة في حمله كما كان معجزة في نُطْقه وهو في المهد، وكذلك كان معجزة في رفعه من بين القوم الذين أرادوا قتله...

فكما كان المسيح عليه السلام معجزة في ولادته كان معجزة في نهايته فتساوت المعجزتان معجزة البداية ومعجزة النهاية...

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولم يزل منيع الجانب قادراً قاهراً يمنع أولياءه أن تطالهم أيدي أعدائه، حكيماً في تصرّفه وتدبيره يفعل ما يصلح عباده وما ينفعهم وما فيه خيرهم وسعادتهم...

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

اختلف التفسير لهذه الآية تبعاً للاختلاف في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ فلمن يرجع الهاء في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾؟

١ - فإن أُرجع الضمير إلى ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يصبح المعنى: ما من أحد من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل الموت...

وهذا يستدعي أن كل كتابيٍّ سواء كان من اليهود أو النصارى إلاّ ويؤمن بالمسيح قبل أن يموت وقد ذهب إلى هذا المعنى بعض المفسرين وقالوا: إن الساعات الأخيرة من حياة الإنسان ساعات حق لا يشوبها باطل، وساعات صفاء

ووضوح في الرؤية، وساعات تتجلى فيها الحقيقة فيقف الإنسان أمامها ويصل إليها ويلمسها، ففي تلك الساعات تنكشف حقيقة عيسى عند اليهود الذين كذّبوه ورموا أمه بالبهتان وحاولوا قتله فتظهر حقيقته على أنه نبي كريم. . .

كما تتضح الرؤية عند النصارى الذين رفعوه عن مقامه حتى ألّهوه وأُمه، فيعودون عن غلوهم ويعرفون خطأ عقيدتهم، ولكن هذا الإيمان من كلا الفريقين لا ينفع صاحبه شيئاً لأنه كإيمان فرعون عندما أدركه الغرق. . .

وإن قلت فما فائدة ذكر هذه الحقيقة الناصعة قلنا: إن فائدتها لفت نظر اليهود والنصارى إلى مراجعة حساباتهم وعقيدتهم في هذا النبي العظيم وتصحيحها قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه إيمان. . .

٢ - وإذا أُرجع ضمير ﴿قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ إلى عيسى عليه السلام المدلول عليه بضمير ﴿بِهِۦ﴾ فالمعنى أنه ليس هناك من أهل الكتاب أحد إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام قبل موته، فاليهود جميعاً سيؤمنون به قبل موتهم ولكن هذا يستدعي القول بالرجعة التي أجازها الزمخشري في (كشافه) حيث قال من جملة تفسيراته وأنقله للأقوال المختلفة: «ويجوز أن يراد أن لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به على أن الله يحييهم في قبورهم في ذلك الزمان ويعلمهم نزوله وما أنزل له ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم». . .

وإن في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ نافية بمعنى: ما.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ فإنه عليه السلام يشهد على أهل الكتاب فيشهد على اليهود بتكذيبهم له ورمي أمه بالزنا ومحاولة قتله. . .

ويشهد على النصارى بغلوهم فيه وتأليههم له وعبادته. . .

وهذه الشهادة مقبولة مرضية عند الله يؤخذ بها كلاً من اليهود والنصارى ويحاسبون عليها. . .

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿هَادُوا﴾: أصل الهود: الرجوع برفق وإنّا هُدنا إليك: أي تبنا، وهادى فلان: إذا تحرّى طريقة اليهود.

﴿حَرَّمْنَا﴾: الحرام: هو الممنوع من تناوله شرعاً.

﴿طَيِّبَٰتٍ﴾: أصل الطيب: ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس، والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً من حيث يجوز وبقدر ما يجوز ومن المكان الذي يجوز.

﴿أُحِلَّتْ﴾: الحلال: ما جاز تناوله شرعاً.

﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾: الصدّ: المنع.

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: طريقه الموصل إلى رضاه.

﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: الربا: هو الزيادة على رأس المال يأخذه صاحبه، وهو ربا معاملة، وربا قرض.

﴿نُهُواْ عَنْهُ﴾: مُنعوا عنه وزُجروا عن فعله.

﴿ٱلْبَٰطِلِ﴾: الباطل: نقيض الحق، وهو ما لا ثبات له عند الفحص.

﴿أَعْتَدْنَا﴾: هيأنا.

﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾: المتمكنون منه.

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾: إقامة الصلاة: الدوام على فعلها والمحافظة عليها.

﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾: المعطون، من الإيتاء: وهو الإعطاء.

﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الزكاة: لغة النمو، وشرعاً إخراج قدر معيّن من أعيان معيّنة حددتها الشريعة.

﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: يوم الحساب مقابل أيام الدنيا.

﴿أَجْرًا﴾: ثواباً.

## التفسير

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ إنها جبلّة يهودية اعتادت الشر وألفت الظلم عصت الله في منطقها وسلوكها وحركتها، إنها نقضت الميثاق التي أخذته على نفسها وكفرت بآيات الله وقتلت الأنبياء بغير حق وقالت قلوبنا غلف وقالت على مريم بهتاناً مبيناً، وقالت: أنها قتلت المسيح عليه السلام هذا كله قد تقدم...

وأمّا هنا فالله أيضاً يعدّد جملة انحرافات قام بها اليهود... إنها انحرافات متتابعة مستمرة كان نتيجتها في الدنيا حرمانهم من طيبات كانت حلالاً لهم وأمّا في الآخرة فلهم العذاب الأليم، إنها جملة انحرافات هي هذه.

١ - بسبب الظلم العظيم لليهود حرم الله عليهم طيبات كانت محللة لهم.. إنهم تجاوزوا الحد فقوبلوا بالحرمان والمنع وما حرّمه الله عليهم إذ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾(١).

٢ - ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ قيامهم بمنع الناس من الدخول في دين الله... إن اليهود قاموا بحملة عنيفة منعوا الناس خلالها من الوصول إلى دين الله والتدين به... إنهم حرّفوا كتاب الله وصرفوه عن معانيه وكتموا الحق الذي يجب الإعلان عنه ومارسوا شتى الانحرافات التي هرّبت الناس عن الدين وجعلتهم يشمئزون منه، وآخر تلك الصدود ما قاموا به من مواجهة النبي محمد ﷺ وتبعيد الناس عنه وإنكارهم ما نزل في حقه في كتبهم...

٣ - ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ لقد بلغهم تحريم أخذ الربا ووصل إليهم ذلك بالقطع واليقين ولكنهم لم يرتدعوا عن ذلك بل تعاملوا به وأخذوه وأكلوه...

إنها النفوس التي تمرّدت على أحكام الله لن تتوقف عن معصيته خصوصاً عندما يلوح أمامها الربح المالي ويظهر الذهب الأصفر يتلألأ بشكله الجميل...

٤ - ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ﴾ لم يتورّعوا عن باب من أبواب الحرام... إنهم يستغلون كل فرصة لأكل أموال الناس ظلماً وبغير حق... إنهم يأكلون أموال الناس بالرشوة والكذب والزور وكل أنواع السحت..

المهم عند اليهودي أن تصل الأموال إليه ويصبح إمبراطورها بدون منازع بدون نظر إلى مصدرها وكيف يحصل عليها ولو كانت من دماء الناس وثمن أشلائهم وإعلان الحروب المدمرة... إن اليهود من أشدّ الناس جشعاً إلى المال وقد آمنت البشرية على اختلاف أديانها ومذاهبها ومشاربها بهذه الحقيقة، فلذا

---

(١) الأنعام/١٤٦.

أصبح اليهودي مبغوضاً ممقوتاً تحتقره العيون وتزدريه النفوس ولا يحبه إنسان شريف يعرف للإنسانية قيمتها وكرامتها. . .

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هذا هو جزاء الذين كفروا من اليهود في الآخرة إنه العذاب الأليم الذي أعدّه الله لهم جزاء ظلمهم وانحرافهم وبعدهم عن طاعته. . .

﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

لكل قاعدة شواذ يكون المؤمنون الحجة على غيرهم فيما إذا انحرفت العامة أو تنكّبت عن طريق الحق. . .

وإن من بين اليهود الذين تقدّم ذكرهم ـ الذين نقضوا الميثاق وظلموا ـ هناك منهم من تمكن من العلم الإلهي ووقف على حقيقة الدين وما جاء به الأنبياء ومن خلفهم المؤمنون الذين يتحرّون الحق من أهله ويبحثون عنه من معدنه. . هؤلاء استمروا على إيمانهم وعقيدتهم الصحيحة فآمنوا بما أنزل الله على النبي محمد ﷺ عندما رأوا المعجزات والدلائل الدالة على صدقه والتي تثبت نبوته. .

إنهم آمنوا بما أنزل الله على محمد ﷺ وما أنزل على الأنبياء قبله كموسى وعيسى. . .

إنهم آمنوا بآخر الأنبياء محمد وبمن تقدّم عليه منهم فكانت وحدة الرسل عقيدة ثابتة، آمنوا بهم كلهم ولم يفرّقوا بين أحد من رسله. . .

ومن المفسرين من حمل قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ في قوله: ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ على أنهم أصحاب النبي محمد من المهاجرين والأنصار ولكن سياق الآيات يأبى هذا الحمل ولا موجب له أو ضرورة تستدعيه. . .

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ نصب المقيمين على المدح وتقديره وأمدح المقيمين الصلاة تعظيماً لهم ومدحاً لمقامهم وخصّهم بهذا المدح لما للصلاة من أثر في

تهذيب النفس وتقويمها وخصوصاً إذا أقيمت بشروطها وأجزائها وفي أوقاتها مع الدوام عليها والإكثار منها وتحوّلت إلى معراج للمؤمن وصلة بينه وبين الله ومفتاحاً لقبول الأعمال. . .

﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الذين يخرجون زكاة أموالهم ويساهمون من خلال دفعها بدفع غائلة الفقر والعوز والحاجة ويجعلونها وسيلة لرفع الشحّ عن النفوس والبخل بالمال. . .

الذين يعطون الزكاة لوجه الله يتقربون إليه بدفعها إلى عباده المحتاجين ويساهمون في التعاون الاجتماعي والتكافل فيما بينهم. . .

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الذين يؤمنون بوجود الله ويؤمنون بيوم يُخرج الله فيه الناس للحساب ونيل الجزاء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أولئك إشارة إلى الموصوفين بالأوصاف الجليلة التي تقدمت وهو مبتدأ خبره سنؤتيهم أجراً عظيماً.

وتنكير الأجر للتفخيم وكم من التقابل الظريف بين وعيد الله للذين خالفوا بالعذاب الأليم ووعده هؤلاء بالأجر العظيم. . .

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

## اللغة

﴿أَوْحَيْنَآ﴾: الإيحاء يأتي على معان، منها الإشارة ومنها الإلهام ومنها ما أودعه الله من الغريزة وهنا يراد به ما يلقى إلى الأنبياء من قبل الله.

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: جمع سبط: وهو ولد الولد والمراد أولاد يعقوب عليه السلام.

﴿ءَاتَيْنَا﴾: أعطينا.

﴿زَبُورًا﴾: الزبور: هو الكتاب المنزل على داود «كالإنجيل والتوراة» لموسى وعيسى عليهما السلام.

﴿قَصَصْنَـٰهُمْ﴾: القص: تتبع الأثر، والقصص: الأخبار المتتبعة حكايات الأشخاص والأمم وما جرى عليهم.

﴿مُبَشِّرِينَ﴾: البشارة والبشرى: الخبر السار.

﴿مُنذِرِينَ﴾: الإنذار: إخبار فيه تخويف.

﴿حُجَّةٌ﴾: الدلالة المبينة للمحجة ما يحتج به ويثبت به المراد.

﴿يَشْهَدُ﴾: الشهادة: الحضور مع المشاهدة، والشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة.

## التفسير

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ هذه الآية تؤكد وحدة المصدر الذي استقى منه الأنبياء علومهم ووحدة الوحي الذي زودهم الله بها من خلاله بمنزلة النبوة وتلقّي كلامه إما بالواسطة أو مباشرة أو بغيرهما مما جعله الله وسيلة للاتصال بهم..

جاءت هذه الآية لترد على الذين لم يرغبوا أن تكون النبوة في محمد ﷺ وأرادوا أن يكون الله خاضعاً لمشيئتهم إنها آية تقرر وحدة الوحي من الله إلى محمد وإلى كل الأنبياء الذين تقدموا عليه...

﴿إِنَّآ﴾ خطاب الله إلى نبيه محمد ﷺ وبـ ـ نون ـ العظمة التي لا يستحقها غيره على وجه الحقيقة.

﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي ألقينا إليك كلامنا وخصصناك به.

﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فنفس النمط من الوحي الذي أوحيناه إلى نوح عليه السلام ومن بعده من النبيين هو نفسه الوحي الموحى إليك، فكلام الله واحد في كيفية وصوله إليك كما وصل إلى نوح والنبيين من بعده...

إنها وحدة الوحي الراجعة إلى وحدة الموحي وإن اختلف الموحى إليه، فتارة يكون محمداً ﷺ وأخرى غيره من الأنبياء والرسل.

وذكر نوح عليه السلام باعتباره ـ كما قيل ـ أنه أول نبي أنزل الله عليه كتاب وأعطاه شريعة وبقي الأنبياء بعده يعملون بشريعته إلى أن جاء إبراهيم عليه السلام بالحنيفة السمحاء. . .

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عميد التوحيد وشيخ المرسلين.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ ابنا إبراهيم خليل الرحمٰن.

﴿وَيَعْقُوبَ﴾ وهو إسرائيل بن إسحاق عليه السلام.

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وهم أولاد يعقوب عليه السلام وكانوا اثنا عشر سبطاً.

﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم ذكره سبحانه لينبه اليهود على خطئهم عندما أنكروا نبوته وحاولوا قتله. . .

﴿وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ خصّص الله هؤلاء بالذكر تشريفاً لهم وتعظيماً لشأنهم.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وهو نص على نبوته وأنه صاحب كتاب ولعل ذكره بالخصوص إشارة تردُّ على اليهود مزاعمهم حيث يحسبونه ملكاً وليس نبياً. . .

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي وأرسلنا رسلاً قد أخبرناك عنهم وذكرنا لك قصصهم وما جرى لهم وعليهم من قبل أن تأتي وتبعث، أو من قبل في الآيات التي نزلت سابقاً.

﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وأرسلنا أيضاً رسلاً لم نذكرهم لك ولم نحك لك قصصهم أو نتلوها عليك إمّا لأن أممهم قد فنيت وزالت من الوجود أو لأنه لا فائدة الآن في ذكر قصصهم حيث فيما نذكر من الأنبياء كفاية عمّن سواهم. .

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ هذه خصوصية خاصة بنبي الله موسى عليه السلام فالله سبحانه كلّمه بدون واسطة وجاء قوله تعالى: ﴿تَكْلِيمًا﴾ ليؤكد ﴿كَلَّمَ﴾ رفعاً لاحتمال المجاز وتنصيصاً مؤكداً على كلام الله معه مباشرة.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: كلّم[1] الله موسى تكليماً بلا جوارح وأدوات وشفة ولا لهوات سبحانه وتعالى عن الصفات...

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا، وهذا بيان لمهمة الرسل وهي مهمة تجمع الجميع ومن أجلها بعثهم الله وأرسلهم إلى خلقه.

﴿مُبَشِّرِينَ﴾ يزفّون للمطيعين أخباراً سارة تقرّبهم من الطاعة وترغبهم فيها حيث ينالون الخير العميم وجنة نعيم ويعطيهم ربهم الحور العين والولدان المخلدين.

﴿وَمُنذِرِينَ﴾ محذّرين الناس من المعاصي وآثارها وما تتركه عليهم من البلاء والعذاب حيث تنتظرهم النار التي لا يقوى عليها شيء ولا يتحملها أحد...

إنها عملية ترغيب وترهيب والإنسان مرهون بأحدهما فمن لم تنفعه الأولى كفته الثانية، وهكذا...

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أرسلنا رسلنا مبشرين ومنذرين كي لا يكون ولا يبقى للناس على الله من حجة يحتجون بها حيث أرسل إليهم الرسل...

وبعبارة أخرى: قطعت بعثة الرسل كل عذر يمكن أن يعتذر به الإنسان فليس لأحد أن يحتج أنه لم يصلني التكليف ولم أتبلغ ما يريد الله مني... لقد سقطت الاعتذارات والحجج والذرائع، وأصبح هذا الإنسان في مواجهة التكليف وهذا على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] وكذلك العقول تحكم «بقبح العقاب بدون بيان» فإذا وصل البيان وأهمل الإنسان استحق العقاب بدون إشكال...

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولم يزل ـ أزلاً وأبداً ـ قوياً لا يُغلب حكيماً

---

(١) التوحيد للصدوق، باب التوحيد، ص٧٩.

(٢) الإسراء/ ١٥.

في تدبيره وتقديره فهو لا يُقهر وكذلك سبحانه حكيم يضع الأمور مواضعها دون نقص أو خلل.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ إذا كان اليهود يرفضون الشهادة لك بأن الله قد أوحى إليك هذا القرآن وأنزله عليك فإنه سبحانه هو يشهد لك بما أنزل إليك وكفى بشهادة الله عن كل شهادة، وشهادته سبحانه تأتي على كل شهادة لأنها شهادة ممن أنزل القرآن فلا يبقى من شك أو ريب ولا تحتاج بعدها إلى شهادة هؤلاء الساقطين الذين تحكمهم الأهواء والميول والرغبات...

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أنزله سبحانه بما عنده من علم خاص حيث تم تركيبه وتأليفه وصياغته بنحو يعجز البشر عن الإتيان بمثله بل بسورة من مثل سوره...

إنه أعجز الإنس والجن وتحدى الفصحاء والبلغاء وأرباب الأدب والفن ورجعوا مقرّين بعجزهم معترفين بأنه من كلام الخالق الذي يعجز أحد عن مجاراته أو الإتيان بمثله.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ فالله يشهد وتبعاً له تشهد الملائكة، كلهم يشهدون أن ما أوحى به الله إلى محمد ﷺ هو كلامه المنزل عليه من قبله...

والملائكة لا تشهد إلاّ بالحق وقد أخبر سبحانه أنها تشهد لمحمد...

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ في شهادة الله كفاية عن كل شهادة لأنها شهادة ممن أنزل الوحي على محمد وأنزل كلامه إليه وإذا كان صاحب العلاقة هو الشاهد على فعله ففي ذلك كفاية بل نهاية الكفاية...

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

## اللغة

﴿وَصَدُّواْ﴾: الصدُّ: المنع.

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: طريقه الموصل إليه - إلى رضاه.

﴿ضَلُّواْ﴾: من ضل، والضلال: العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

﴿جَهَنَّمَ﴾: اسم لنار الله الموقدة، قيل: أصلها فارسي معرب جهنام.

﴿يَسِيرًا﴾: اليسير والميسور: السهل.

## التفسير

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذين كفروا هم الذين جحدوا الأدلة الدالة على الله وعلى نبوة محمد أو حرّفوا ما ورد له من أوصاف... الذين كفروا بما جاء به النبي مع قيام الحجج والبراهين على صحة نبوته وصحة كل

تشريع جاء به، وكذلك ضموا إلى كفرهم أنهم حملوا راية الصدّ والمنع عن هذا الدين الذي هو ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

إنهم جحدوا عن علم ورفضوا قبول الحق عن معرفة ثم كانوا أئمة ضلال في منع الناس عن الدخول في هذا الدين. . .

جمعوا إلى كفرهم بمنعهم الناس عن الدخول في الإسلام بما شنُّوه من حملة منكرة فيها من التشهير الشيء الكثير الذي يُبعد الناس عن هذا الدين ولهذا وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَـٰلًا بَعِيدًا﴾ ووجه كون هذا الضلال بالبعيد لأنهم ضلّوا أنفسهم وأضلوا غيرهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعاد سبحانه ذكر جريمتهم لما لها من أخطار وما تتركه من آثار. . . إنها ليست جريمة تقتصر أضرارها على نفس مرتكبها فحسب بل تعدّت ذلك وتجاوزته لتطال غيره عن قصد وسابق تصميم وتخطيط.

﴿وَظَلَمُواْ﴾ الحقيقة التي تتمثل بنبوة النبي محمد ﷺ التي تعود بالظلم على الله من حيث أنكروا ما أنزل وكفروا بمن أرسل كما أنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وظلموا الآخرين عندما راحوا يصدونهم عن دين الله. . .

إنهم ظلموا بعد الكفر، وهذان أمران رتب الله لهما عقوبة قصوى لمن مات عليهما وختم حياته بهما فقال سبحانه: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فقد فقدوا قابلية المغفرة مع سعتها عند الله. . . إن مغفرة الله أوسع من كل عمل. . لا تحديد لها ولا تضييق لسعتها لكن شرطها أن يكون الموضوع قابلاً لها أما إذا لم يكن قابلاً لها، فالعجز يتأتى من هذا الجانب، فعلى من يحمله أن يصحّحه وإلاّ فلا يستحق مغفرة ولا نظرة رحمة من الله. . .

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ عبارة شديدة اللهجة حاسمة في موضوعها تقطع رجاء من كفر وظلم وتدفعه ليعيد حساباته أمام نفسه التي ارتكبت أعظم جريمة

وأقبحها، إنها الكفر بالله والظلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ قطع الله مدده عنهم عندما قطعوا الصلة به فما كان بعد هذا الانقطاع إلاَّ طريقاً واحداً سيوصلهم إلى النار... إنها النهاية المحتومة لمن كفر بالله وقطع خطوط الاتصال به، فالله يتركه ونفسه وفي مثل تلك الحال لا بدّ وأن يتحرك ولكن لن يصل إلى طريق الخير والحق الموصل إلى الجنة بل إنه سيسير في انحراف مستمر حتى يصل إلى نار جهنم...

وباعتبار أن الله تخلى عن هذا الكافر عندما رفض الإيمان به فنُسِب إليه تعالى أنه هو الذي هداه إلى طريق جهنم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ إنه الدوام في عذاب جهنم لا ينقطع ولا ينفك... إنه الخلود الدائم في العذاب ـ أجارنا الله منه.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ كان إيصالهم إلى نار جهنم وتخليدهم فيها سهلاً على الله، وهذا فيه توهين لأمرهم واستخفاف بهم ولا يُعجز الله شيءٌ في السماوات والأرض..

---

(١) النساء/ ٤٨.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ﴾ عدل سبحانه في الخطاب عن أهل الكتاب احتقاراً لهم وإعراضاً عنهم لأنه سبحانه علم كفرهم وظلمهم وضلالهم وأنهم لن يعودوا إلى طريق الإيمان...

عدل بالخطاب إلى الناس، كل الناس.. قد جاءكم الرسول محمد ﷺ ووصفه بالرسول ليدلّل لهم على الصفة التي توجب عليهم قبوله من خلالها...

إنه رسول بل ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ بما في هذه الكلمة من معنى يجمع كل الرسالات ويحصرها فيه بل يعرّفه سبحانه بأهم صفاته وأعظمها ﴿ٱلرَّسُولُ﴾.

إنه الرسول من عند الله بعثه الله من عنده بالحق إنه يحمل الحق ويعيشه وينقذ به الأمم والشعوب...

إنه جاء بالحق من ربكم فما أعظم ما جاء به وما أعظم المصدر الذي جاء به من عنده.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم وسوّاكم وأنشأكم وربّاكم... جاء بالحق يحمله إليكم من ربكم...

وإذا كانت هذه الحقيقة صادقة ومضمونها صحيح وسليم إذاً. ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ لأن في الإيمان حفظ النفس من النار ونجاتها من العذاب والوصول بها إلى الله وإلى النعيم العظيم...

الخير كل الخير في هذا الإيمان وهو الإيمان بالرسول محمد ﷺ وبكل ما جاء به وما قاله وأراده... الإيمان بالنبي إيمان موصل إلى الجنة التي ليس فوقها نعيم...

فإذا كان الإيمان وقَبِلَ الإنسان دعوة الله إليه فهو، وإلاّ إذا رفض وأبى وتعصّب فالله تعالى يقول:

﴿وَإِن تَكْفُرُواْ﴾ بالنبي المرسل والهادي لكم إلى طريق الجنة والخير..

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه غني عنكم لا يضره كفركم وعدم إيمانكم، كما أنه لا ينفعه إيمانكم والتزامكم لأنه الغني المطلق الذي لا يتأثر بالمعاصي وإن نهى عنها ولا يتأثر بالطاعات وإن أمر بها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ عليماً بكل نياتكم وحركاتكم إيجاباً وسلباً إيماناً وكفراً وسيحاسب عليها جميعاً بمقتضى علمه المحيط بكل شيء.

﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره وصنعه وفيما يأمر به وينهى عنه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا (١٧١) لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا (١٧٢) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا (١٧٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا (١٧٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا (١٧٥)﴾.

## اللغة

﴿لَا تَغۡلُواْ﴾: الغلو: التجاوز في الحد من جهة الإفراط أو التفريط.

﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: هو عيسى بن مريم عليه السلام سمي بذلك لأنه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ، وقيل: لأنه كان ممسوحاً من كل عاهة ذميمة كالجهل وغيرها...

﴿أَلۡقَىٰهَآ﴾: أصل الإلقاء: الطرح، وهنا يراد أوصلها إليها وجعلها فيها.

﴿انتَهُوا﴾: كفّوا وامتنعوا.

﴿سُبْحَانَهُ﴾: التسبيح: معناه التنزيه، وتسبيح الله: تنزيهه عمّا لا يليق به.

﴿وَكِيلًا﴾: الوكيل: هو الذي يتولى أمور غيره ويدبرها له.

﴿يَسْتَنكِفَ﴾: يأنف ويأبى، والاستنكاف: الأنفة والترفع مأخوذ من نكفت الدمع: إذا نحيته بأصبعك عن خدك.

﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾: من القرب: وهو ضد البُعد، والمقصود هنا المقربون بالحظوة والرعاية.

﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾: الاستكبار: أن يجعل الإنسان نفسه كبيرة غروراً منه وإعجاباً بها..

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾: سيجمعهم.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾: التوفية: الاستيفاء للشيء تاماً من غير نقص ويوفيهم أجورهم أن يعطيهم جزاء أعمالهم كاملة تامة غير منقوصة.

﴿أُجُورَهُمْ﴾: ثوابهم.

﴿فَضْلِهِ﴾: إحسانه.

﴿وَلِيًّا﴾: الولي: الأولى بالشيء، والمتولي لتدبير الشيء - والناصر والمعين...

﴿نَصِيرًا﴾: معيناً.

﴿بُرْهَانٌ﴾: البرهان: الدليل، ويراد به هنا المعجزات وما شابهه.

﴿نُورًا﴾: يراد بالنور هنا إمّا الحجج والبينات أو النبي محمد ﷺ...

﴿مُبِينًا﴾: ظاهراً واضحاً.

﴿وَاعْتَصَمُوا﴾: لاذوا ولجأوا، والعصمة: الامتناع.

﴿صِرَاطًا﴾: الصراط: الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

## التفسير

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ الخطاب متوجّه إلى النصارى وإن كان ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أُطلق عليهم وعلى اليهود. . .

ذكّرهم الله بهذه الصفة التي يجب أن يراعوا مضمونها ويبقوا كما أراد الله دون أن يتجاوزوا إلى غيرها فيدخلون في الكفر والباطل. . .

إن الله سبحانه في هذه الآية يصحح مفهوماً خاطئاً عن السيد المسيح عليه السلام تبناه النصارى خلافاً لما هو فيه. . .

إنها عقيدة منحرفة ظلمت المسيح عليه السلام وظلمت الله حيث رفعت المسيح إلى مقام الألوهية وجعلته شريكاً لله، فنهاهم الله عن الغلو في الدين، والمقصود أن لا يتجاوزوا العقيدة الصحيحة في المسيح عليه السلام فلا يرفعوه إلى مستوى الأُلوهية ويحولوه إلهاً يتوجهون إليه بالعبادة. . .

إن عيسى عليه السلام إنسان خصّه الله بالنبوة وحباه بالرسالة وأعطاه المعجزات والكرامات وهو عبد مطيع لله لم يدّع لنفسه ما يدّعيه له النصارى. . .

لا تغلوا في دينكم: أي لا تتجاوزوا الاعتدال في عقيدتكم وترفعوا المسيح عليه السلام إلى مرتبة الألوهية التي هي من مختصات الله الواحد الأحد. . .

﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ لا تصفوا الله بغير ما هو لائق به فلا حلول له في أحد ولا هو ثالث ثلاثة ولا اتحاد له بغيره ولا ولد له ولا شريك ولا صاحبة، وهكذا. . . وصْفُ الله يجب أن يكون بما هو فيه وما هو عليه مما تسالمتْ عليه العقول أو حكم به الشّرع المبين وكل من قال بغير ذلك فقد قال على الله بالباطل. . .

ثم لمّا نهاهم عن الغلو وأن لا يقولوا على الله إلاّ الحق بيّن لهم الطريق السليم والقول الصحيح في المسيح عليه السلام. . .

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ هذا هو الحق في عيسى عليه السلام فهو أولاً ابن مريم نسبه لأمه لأنه تكوّن في رحمها وتولّد منها وتربّى على يديها فهو ابن أنثى من لحم ودم ـ وليس ابن الله ـ وهو رسول الله اختصه الله برسالته وبعثه لهداية الناس كما أرسل الأنبياء من قبله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى عليهم السلام لم يختلف عنهم في المهمة الموكّل بها وإن اختصه الله بولادة غير عادية وأعطاه بعض المعجزات التي يُثبت بها نبوته كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله. . .

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ المسيح عليه السلام كلمة الله ألقاها إلى مريم فكان المسيح عليه السلام. . .

إن ولادة الإنسان تكون بسبب ظاهر كما هو المعروف والمعهود بالاتصال بين ذكر وأنثى ولما كانت ولادة المسيح عليه السلام على خلاف هذه العادة أي بكلمة ﴿كُن﴾ التي أرادها الله، فكلمة ﴿كُن﴾ التي صدرت عن الله بها كان المسيح عليه السلام وتم تكوينه، فهو بالكلمة وُجد وخرج إلى عالم الوجود والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه، فسمي المسيح عليه السلام باسم الكلمة التي كانت السبب وراء خلقه كما أراد الله وأحب.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1].

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فالمسيح عليه السلام روح من خلق الله ـ وليس بعضاً منه ـ جل وعلا.

سمي المسيح عليه السلام روحاً لأنه حدث عن نفخه جبرائيل في درع مريم عليها السلام بأمر الله فكان، والإضافة من باب التشريف. . وقيل: سمّي روحاً لأن من اتبعه يحيى روحياً بتعاليمه وما جاء به. .

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوأ أحد.

(١) آل عمران/ ٤٥.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ آمنوا برسل الله جميعاً من أولهم إلى آخرهم دون تفريق فيما بينهم «بأن تؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض».

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾ نهاهم عن القول بالتثليث.. فلا تجعلوا الآلهة ثلاثة، الله والمسيح ومريم كما هو ظاهر قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾[1] أو الأب والابن وروح القدس؟ كما يذهب إليه النصارى وكما هي مقولتهم الشائعة اليوم!..

كفوا عن قولكم إن الآلهة ثلاثة.

﴿خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾ لأن الخير كل الخير في توحيد الإله والإيمان بوحدانيته وتفرده لأنها العقيدة الصحيحة التي لا تظلمون الله فيها ولا تُظلم الحقيقة ولا تسيء لمنطق العقل والروح وما يستتبع ذلك من تشريع متوحّد ينظّم حياة هذا الإنسان ويرسم له شوطه في الحياة الدنيا الذي يوصله إلى الجنة وما فيها من خير وسعادة ونعيم دائم لا يزول ولا يحول...

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ بعد أن نهى عن التثليث كعقيدة فاسدة غير صحيحة «بعد الهدم للفساد» أمر هنا بالحق وبيّن الصواب والعدل.

حصر الألوهية بالله وحده لا شريك له... والتوحيد عقيدة سهلة المنال بيّنة البرهان واضحة الدلالة تتقبلها العقول بيسر لأنها على مستوى «أصل الوجود» لله، فكما أن العقول تقرّ بوجود إله من فيضه كان هذا الخلق كله كذلك تذهب العقول إلى وحدانية هذا الإله...

إن القول ـ مجرد القول ـ بتعدد الآلهة ـ يجرّ إلى القول بعدم تناهي الآلهة وهذا مما ترفضه العقول ويتنافى مع الفطرة البشرية المودعة في نفس هذا الإنسان وما جُبل عليه...

الله واحد أحد لا تعدّد في ذاته ومتفرد في صفاته...

---

(١) المائدة/ ١١٦.

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ تـنـزّه الله أن يكون له ولد وتقدّس عن هذه الصفة التي تُسقط مقومات الألوهية.

إن الولد يُطلب لغاية تنفع الأهل وتفيدهم ويكون امتداداً لهم بعد موتهم يحمل اسمهم ويكمل شوطهم ويحقق أهدافهم التي يؤمنون بها والله سبحانه جلّ اسمه غني مطلق عن كل ذلك وأمثاله وما شاكله...

إن الله سبحانه تنزّه عن الولد وعن الصاحبة وعن الشريك وعن النظير فليس بحاجة إلى أحد من خلقه...

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ كأنه تعليل لنفي الولد له سبحانه لأنه إذا كانت السماوات والأرض مملوكة لله مخلوقة له «ومن جملتها عيسى عليه السلام وأمه» فكيف ما يكون مخلوقاً ومملوكاً كيف يكون ولداً لله؟!.

إنه المالك لما في السماوات والأرض - ومن جملتهما عيسى عليه السلام وأمه - فلا يحتاج إلى ولد ولا إلى وارث ولا إلى صاحبة... لأن ما يخلقه يخالفه سنخاً فلا يمكن أن يكون ولداً له وهو مخلوق له ومن غير سنخه وطبيعته...

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فالله غني وفيه الكفاية لتولي أمور هذا العالم وتدبير شؤونه وإدارته وحفظه وليس بحاجة إلى ولد يخلفه في التدبير والحفظ والتنظيم...

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ لن يأنف أو يأبى المسيح عليه السلام من أن يكون عبداً لله لأن عبوديته لله تزيده شرفاً وعزّاً وترفع من مقامه وتُعلي من شأنه...

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ فهؤلاء مع علو رتبهم وارتفاع مقاماتهم لا يأنفون عن أن يكونوا عبيداً لله يتذلّلون له ويخضعون لمقامه لأن مراتب القرب توجب المعرفة وهي بدورها توجب زيادة الخضوع والعبودية لله...

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ من يأبى الخضوع لله والتذلل له أو يستكبر ويتجبر وتأخذه العزة عليه سبحانه، فإنه سيحشر الجميع

ويجمعهم للحساب، فالمسيء والممتنع يأخذ جزاء تمرُّده، والمطيع الأمين يأخذ ثواب عمله وطاعته وهو ما بيّنه سبحانه بقوله:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فهؤلاء الذين صحّت عقيدتهم وحسن عملهم... يؤمنون بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ويعملون ما أمرهم الله من الواجبات وينتهون عمّا نهى الله عنه من المحرمات، فهؤلاء سيعطيهم الله أجر عملهم كاملاً لا ينقص منه شيئاً، بل يزيدهم لكرمه وجوده حيث يرى منهم الموضع والمحل اللائق بكرمه وجوده فيفيض عليهم من خيره وعطاياه...

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهذا هو الفريق الآخر المخالف للفريق الأول عقيدة وتفكيراً ونهجاً وعملاً... إنه فريق متمرد عاصٍ يرى نفسه فوق الخضوع لله والخشوع له... إنه ممتنع عن الخضوع له ومتكبّر عن عبادته، هذا الفريق سيطالهم الله بعذابه الموجع جزاء تمردهم واستكبارهم...

إنه جزاء المتمردين قدراً بقدر ومثلاً بمثل دون زيادة وحاشا لله أن يظلم أحداً أو يأخذه بأكثر مما يستحق...

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ إنهم قطعوا الصلة بالله فانقطعت بهم كل السبل وكل الصلات... لقد سقط محامو الدفاع وكل المناصرين والمعينين لهم... إنهم إذا بحثوا وفتّشوا عمّن يدافع عنهم أو ينصرهم فلن يجدوا أحداً معهم...

إنهم تخلوا عن الله فتخلى الناس عنهم...

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الخطاب موجّه إلى جميع الناس ليكون قاطعاً للحجج ولكل الأعذار...

قد جاءكم من قبل الله برهان واضح ودليل قاطع يثبت لكم الحقيقة ويضعها بين أيديكم...

لقد جاءكم محمد ﷺ من ربّكم وهو أمامكم فادرسوا حياته وأطوار هذه الحياة وادرسوا كل حركاته منذ ولادته إلى آخر يوم من حياته. . .

إنه الرجل الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس في مدرسة أو يتخرج من معهد. . إنه بنفسه حجة قاطعة على أنه مبعوث من قبل الخالق إلى الخلق، ومن رب الأرباب إلى العباد. . .

محمد ﷺ حجة قاطعة ودليل واضح على صدق نبوته وما يدّعيه من السفارة الإلهية، فعلى الناس جميعاً أن يؤمنوا به ويعتقدوا بنبوته. . .

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ عبّر عن القرآن ـ كتاب الله ـ بالنور الواضح الظاهر وأنه سبحانه أنزله على محمد ﷺ بهذا الشكل سنداً قوياً لما يدّعيه من النبوة. . .

«والنور» تتوجّه إليه الأنظار وبه تهتدي الأبصار، فكيف إذا كان دليلاً واضحاً على الخير وكاشفاً عن الحق؟. . وقد فرّع سبحانه على مجيء النبي ونزول القرآن عليه أمراً مهماً به تكون النجاة، وبدونه يكون الهلاك.

فقال سبحانه:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ اعتقدوا بوجوده وبوحدانيته وبكل صفاته.

﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ أي لاذوا به والتجأوا إليه بأن آمنوا بكل رسله وبكل ما أنزله عليهم من كتب وعملوا بكل ما أراد وأحب، هؤلاء رتّب لهم هذا الجزاء وهو. .

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ سيدخلهم الجنة جزاءاً لهم وأجراً على أفعالهم ويعطيهم زيادة من الخيرات مما يرفع درجاتهم لأنهم آمنوا بالله واعتصموا به. . .

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ لأن من يؤمن بالله ويعتصم به فقد وضع نفسه في الطريق المستقيم الذي هو دين الإسلام، ومثل هذا سيسدّده الله ويوفقه ويقوّي إيمانه فيبقى متجهاً اتجاهه الصحيح في الخط الإلهي حتى يصل إلى الغاية

القصوى التي يريدها الله فيحقق رضاه ويصل إلى مبتغاه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[1].

(١) العنكبوت/ ٦٩.

قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## اللغة

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: الاستفتاء: طلب الفتوى، والفُتيا والفتوى: الجواب عمّا يشكل من الأحكام وأصله من الفتى وهو الشاب، فكأن البيان يقوى بالفُتيا.

﴿ٱلْكَلَٰلَةِ﴾: كلّ لغة معناها تعب، وكلّل: بمعنى أحاط، وفي عرف الفقهاء من لا والدين له ولا أولاد...

﴿ٱمْرُؤٌا۟﴾: إنسان.

﴿هَلَكَ﴾: مات.

﴿لِلذَّكَرِ﴾: قسيم الأنثى ومقابلها.

﴿حَظِّ﴾: نصيب، سهم.

﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: مثنى الأنثى وهي مقابل الذكر.

﴿يُبَيِّنُ﴾: يوضح ويظهر ويكشف.

﴿تَضِلُّواْ﴾: من الضلال: وهو العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

## التفسير

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ توجّه السؤال إلى النبي ﷺ في كيفية ميراث (الكلالة) فقد ابتلي بها أحد المسلمين.

تقول الرواية أن جابر بن عبد الله الأنصاري مرض وشعر بعلامات الموت والفراق فزاره النبي ﷺ فالتفت جابر إلى النبي وقال: يا رسول الله! إن لي كلالة فكيف أصنع في مالي؟ فنزلت الآية...

والكلالة: كما يصدق على الميت الذي لا والدين له ولا أولاد يصدق على الورثة - غير الآباء والأبناء - فالقضية في حدودها.. أن أحدهم مات ولم يكن له والدين ولا أولاد يرثونه وإنما له أخوة أو أخوات أو أبناء أخوة وأخوات، فهنا كيف توزع التركة ويقسّم الميراث؟ فالله سبحانه وتعالى ينقل السؤال الذي توجّه إلى النبيّ ويتولى سبحانه تعليمه إلى الرسول...

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يطلبون منك الفُتيا في هذه القضية، والفُتيا: هي بيان الحكم وتوضيحه في الكلالة.

﴿قل﴾ لهم يا محمد!

﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ الله هو الذي يبيّن لكم حكم الكلالة - التي هي موت إنسان لا والد له ولا ولد ويرثه الأخوة والأخوات أو هما معاً - فالله هو الذي يتولى بيان هذه المسألة وإيضاحها.

﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ هذا بيان ما لو مات رجل وليس له ولد أبداً لا بنت ولا صبي وهذا المعنى هو المستفاد من كلمة ولد حيث يطلق على الذكر والأنثى، فهذا توفى وليس له وارث من أولاده.

وطبعاً بالإجماع ليس له أحد أبويه وإلاّ كان الميراث له...

مات الرجل وليس له أولاد ولا أحد الأبوين ولكن له أخت - وهذه الأخت لأب وأم أو لأب - فلها نصف ما ترك بالفرض بحسب هذا النص الشريف ويبقى النصف الآخر يردّ عليها فترثه بالقرابة طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾(١) فتذهب الأخت بالجميع في نهاية المطاف النصف بالفرض والنصف الآخر بالرد...

﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ إذا توفيت المرأة وليس لها أولاد ولا أحد الأبوين - فهي كلالة - ولها أخ يذهب هذا الأخ بكل ميراثها نصاً واضحاً في كتاب الله لا يقبل التأويل أو التعديل.

وطبعاً هذا الميراث كله إذا كان الأخ الشقيق لأبوين أو للأب...

﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ إذا توفي الرجل وهو كلالة - لا أولاد له ولا أحد الأبوين فضلاً عنهما - وله أختان فهنا ترثان الثلثان بالسوية لكل أخت ثلث وأما الثلث الباقي فيردّ عليهما بالسوية لكل أخت نصف هذا الثلث وبالنتيجة لكل أخت نصف التركة، ثلثها بالفرض ونصف الثلث الباقي بالردّ لقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ إذا مات الرجل - وكان كلالة - لا أولاد له ولا أحد الأبوين - وكان له أخوة وأخوات فيقسّم ميراثه بينهم للذكر ضعف الأنثى، وبالتعبير القرآني الشريف ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ - الذكر يرث سهم أنثيين...

وهذه الآية الشريفة توضح بشكل قاطع لمن أنصف وعدل وكان على تقوى من الله أن هذا الميراث أخذ فيه عدم وجود الأولاد مطلقاً كما هو نص قوله تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ حيث شرط فقد الولد الشامل للذكر والأنثى من الأولاد كما هو في اللغة والعرف، ومنه نستفيد أن البنت إذا كانت وحدها

---

(١) الأنفال/ ٧٥.

ـ بمقتضى هذا الشرط ـ «إن امرؤ هلك ليس له ولد» إن البنت الواحدة تذهب بالميراث كله نصفه بالفرض والنصف الآخر بالردّ لآية «أولوا الأرحام» فلا يصل الميراث إلى الأعمام والأخوال أو غيرهم مع وجود البنت. وهذا هو مذهب أهل البيت وعليه اتباعهم وشيعتهم في كل العصور والأزمنة والأمكنة. . .

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ يبيّن الله لكم أحكام المواريث وكيف يتم توزيعها وتقسيمها بين الورثة لئلا تضلوا وتنحرفوا وتخطئوا في توزيعها. . .

إنه سبحانه يريدنا على الجادة المستقيمة ويريدنا أن نكون على صواب وسداد من تصرفنا وحركتنا وكل ما نتعاطاه ونعمله، ولهذا كشف سبحانه لنا كيف يكون المنهج الصحيح في كل شيء، ومنه ميراث الكلالة التي هي موضوع بحثنا وقضيتنا التي وقع بها بعض المسلمين فلم يعرفوا وجهها فاستفتوا النبي في حكمها وطلبوا الحل منه. . .

فأفتاهم الله بهذا النص القرآني الواضح الذي نقله لهم النبي ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ عِلْمُ الله مطلق في كل شيء لأنه الخالق لكل شيء والمطّلع على كل شيء ولعلمه سبحانه بوجوه المصالح والمفاسد كان هذا التشريع العظيم للكلالة ولغيرها. . . فهو العالم بمصالحكم ومفاسدكم يشرّع لكم ما فيه المصلحة لكم ويدفع في تشريعه عنكم ما فيه المفسدة. . .

# الفهرس